

النص والخطاب والاتصال

الأستاذ الدكتور

محمد العبد

أستاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية
كلية الألسن - جامعة عين شمس



الأكاديمية الحديثة
للكتاب الجامعي

النص والخطاب والاتصال

الأستاذ الدكتور

محمد العبد

أستاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية
كلية الألسن — جامعة عين شمس



الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي

لكتاب : النص واخطاب والاتصال

المؤلف : الأستاذ الدكتور محمد العبد

تاريخ الإصدار : ٢٠١٤ م

حقوق الطبع : محفوظة للناشر

الناشر : الأكاديمية احدثبة للكتاب الجامعى

العنوان : ٨٢ شارع وادى النيل المهندسين ، القاهرة ، مصر

تلفاكس : ٥٦١ ٣٣٠٣٤ (٠٠٢٠٢) ١٧٣٤٥٩٣ ١٢٢٠

البريد الإلكتروني:

m.academyfub@yahoo.com

m.academyfub@gmail.com

رلم الإبداع : ٤٩٩٥ / ٢٠١٣

الترقيم الدولى : ٥ - ٦٢ - ٦١٤٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

تهدير :

حقوق النشر : لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أى نحو أو بأية طريقة سواء أكانت الكترونية أو ميكانيكية أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر على هذا كتابةً ومقداً.

تصدير

تريد الدراسات التي يصمما هذا الكتاب أن تشق طريقاً جديداً في حقل اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، موصولة بطائفة من الأدبيات الأصلية في ذلك الحقل إفاة وتعميقاً وتطبيقاً على نصوص عربية أسهمت في صناعة الثقافة العربية والأدب العربي القديم والمعاصر، انطلاقاً مما رأبناه مفاهيم جوهرية لا بد للبحث اللساني العربي المعاصر من أن يدلى فيها جاهداً بدلوم في الدراسة الأولى تناولت مفهوم الكفاية وتطوره من الكفاية اللغوية عند

التحوليين إلى الكفاية الاتصالية عند اللسانيين الاجتماعيين والتداوليين. وهي الدراسة الثانية استهدفت بالتحليل مفهوماً محورياً ومعياراً نصياً أولياً هو "الحبكة" في قراءة متأنية لتبصرات البلاغيين العرب لذلك المعيار سواء أكان حبكة نصياً أدبياً أم حبكة نصياً قرآنياً. وقد خلصت هنا إلى جملة من الملاحظات والاستخلاصات التي تؤكد وعياً نظرياً قوياً بأهمية ذلك المعيار في صناعة النص وتحليله في أن معاً.

أما الدراسة الثالثة، فقد حاولت فيها الوقوف على أهم الوسائل اللغوية والمنطقية التي مالت النصوص الحجاجية العربية قديماً وحديثاً إلى توظيفها للإقناع بوجهة النظر.

وهي الدراسة الرابعة عالجت مفهوماً مركزياً في تداولية أفعال الكلام: وهو مفهوم "تعديل القوة الإنجازية" الذي أتوقع له استعماراً موسعاً حديثاً في ميدان اللسانيات العربية المعاصرة والنقد الأدبي العربي المعاصر؛ وذلك لوقوعه في مركز العملية الاتصالية في صورتها العامة والأدبية جميعاً.

أما الدراسة الخامسة والأخيرة في ذلك الكتاب، فهي محاولة لاستجلاء العلاقة بين الصورة الأدبية والثقافة، وقد بدا لي هنا أن الثقافة العربية قد عنيت بالصورة الأدبية من حيث هي نص على حساب العناية بها من حيث هي خطاب، ومن ثم كانت العناية بتحليل عناصر الصورة وجمالياتها على حساب ربط الصورة بسياقاتها الاتصالية والثقافية، حيثما تصح الصورة الجميلة في سياق اتصالي ثقابي غير حمله في سياق اتصالي ثقافي آخر.

صراحة كل من هاينمان W.Heinemann و هينيجر D.Viehweger. وعلى رغم أن كلا منهما يرى أن كثيراً مما يسمى بعلم اللغة النصي لا يكفى - فيما يبدو - لوضع المعايير التي يجب أن يقوم عليها علم للنص، من حيث إن العنصر الأساسي - وهو "النص" وحده - قد أظهر أنه غير كاف لبناء فرع معرفي مستقل، فإنهما قد ذهبا إلى أنه لا يمكن أن يفهم علم اللغة النصي على أنه علم شامل، بل يجب على علم اللغة النصي أن يبقى بحثه محصوراً في أبنية النصوص وصياغاتها، مع إحاطته بالعلاقات الاتصالية والاجتماعية والنفسية العامة⁽¹⁾.

إن تعريف النص بالخطاب شيء مألوف عند كثير من الدارسين. يقول روجر فاولر Roger Fowler: "إن كل نص خطاب، فعل لفة من لدن مؤلف ضمنى، له تصميم محدد لقارئ ضمنى محدد الهوية"⁽²⁾. وتقول جوليا كريستيفا Julia Kristeva: "النص الأدبي خطاب يخترق حالياً وجه العلم والأيدولوجيا والسياسة"⁽³⁾.

لقد اعترف ميخائيل استوبس Michael Stubbs بما يعترض النص والخطاب من غموض وخط، ولكنه يرى - في الوقت نفسه - أن الاختلاف بينهما اختلاف ضئيل لا يجعله يأمل في تأسيس فارق نظري مهم بينهما. ولكنه يعود - في محاولته التمييز بينهما - إلى تقديم بعض الملحوظات المفيدة:

١- فنحن نتكلم غالباً عن "النص المكتوب" في مقابل "الخطاب المنطوق".

٢- وغالباً ما يمتد "الخطاب" الخطاب التفاعلي interactive discourse، على حين يكون النص مونولوجياً غير تفاعلي، سواء في ذلك أن يكون مونولوجياً منطوقاً جهرة أم غير ذلك⁽⁴⁾.

(١) راجع: فرانصاح عابدين وديز فينجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة د. فاخ من سبب النصي، طبعة الملك سعود، السعودية (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، ص ٩-١٢.

(٢) فاولر، روجر: اللسانيات وفرونها، ترجمة حسن إحسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط ١ (١٩٩٧م) ص ٦٦.

(٣) كريستيفا، جوليا: علم النص، ترجمة هريد فرانس، مراجعة عبدالحليل باطم، دار لورغال للنشر، الدار البيضاء، ط ٢ (١٩٩٧م) ص ١٣.

(٤) Stubbs, Michael: Discourse Analysis, Basil Blackwell, p.9.

التمييزات السابقة نرى لها نظيراً في الثقافة العربية. بينما ارتبط النص بالمتن أو ناتج العملية الاتصالية، إذا بالخطاب يرتبط بالاتصال الشفاهي المباشر من ناحية، كما يرتبط بحضور الطرف الآخر في العملية الاتصالية وتفاعله على نحو ما أداء وظائف أيديولوجية من ناحية أخرى.

الحوارية والتفاعل في الخطاب مما يلح على التويه به غير واحد من المعاصرين. خذ مثلاً على ذلك ديان ماسكدونيل Dian McDonell التي تجعل الحوار الشرط الأول للخطاب⁽¹⁾.

الحيرة بين المصطلحين أو المراوحة بينهما في دراسات نظرية وتطبيقية لاتحصى تزول إلى حصر بعض المنظرين النص في البناء المجرد في الوقت الذي يربط فيه آخرون ذلك البناء بمقاصده ووظائفه. يرى ولهم جراب W.Grabbe أن النص هو المعادل البنائي للغة في استعمال حقيقي⁽²⁾.

ويقوم هـج. ودوسون H.G.Widdowson على دراسة الأدب بوصفه نصاً والأدب بوصفه خطاباً.

يعالج ودوسون في الحال الأولى موضوعات مثل: الإحالة، والمدول، ومعدنات الاختيار، وقواعد المصاحبة، وغيرها من خصائص الأساليب والتراكيب⁽³⁾. فإذا عالج الأدب بوصفه خطاباً صارت بؤرة اهتمامه هي أن قطعة من الاستعمال اللغوي - أدبية فكانت أم غير أدبية - ليست تمثيلاً محضاً لمقولات لغوية؛ أي ليست نصاً فحسب، ولكنها أيضاً قطعة من الاتصال، قطعة من خطاب من نوع أو آخر. يقول ودوسون: السؤال المهم في هذه الحال هو عن أهمية السمات أو الملامح النصية textual features التي تلزم لفهم الأدب بوصفه خطاباً. إن مركز هذه المسألة هو إشكالية العلاقة بين مراعاة القواعد وإمكانية التاويل⁽⁴⁾.

من ناحية أخرى، يرى كل من دو بوجرانند De Beaugrande ودرسلر Dressler أن النص هو الناتج الفعلي للممارسات الاتصالية التي تتهض على

(1) ماكديول، ديان: فلسفة في نظريات الخطاب. ترجمة وتقديم د. مراد إسحاق. للغة الأكاديمية. ط 1 (2001) ص 177.
 (2) Grabbe, W. : Written Discourse Analysis. A R A L. Vol.5. U S A (1985) p. 106
 (3) Widdowson, H. G. : Stylistics and The Teaching of Literature. Longman . Group Ltd. London (1975) pp.7-26.
 (4) للرجع لسبق ص 17-16 .

الوحدات والأنماط البنائية حال الاستعمال. بيد أن النص عندهما - في الوقت نفسه - ليس محض هيئة أو تركيب من الوحدات الصرفية والجمل. الأخرى عندهما أن الوحدات الصرفية والجمل توظف من حيث هي وحدات وأنماط إجرائية تشير إلى المعاني والأغراض أثناء الاتصال. يرى دو بوجراند ودرسلر أنه من الصعب أن نحصر دراسة النصوص في صناعة الكلام أو الكتابة: وذلك أن هذه الصناعات ناهضة بطبيعتها إذا عزلت عن العمليات الإجرائية التي تؤديها⁽¹⁾.

إذا كان النص عند هذين المنظرين الرائدتين هو الناتج الفعلي للعمليات الاتصالية، فإن الخطاب عندهما موقف أو سلسلة من الواقيات Events التي يمرض فيها المشاركون نصوصاً بوصفها أهلاً خطابية discourse actions. ويجعل كل منهما الاتصال من خلال الخطاب حالة من حالات التخطيط التفاعلي interactive planning⁽²⁾.

يظل التمييز بين النص والخطاب من زاوية كون النص في الأساس بنية في مقابل كون الخطاب في الأساس موقفاً هو التمييز السائد في أدبيات نظرية النص وتحليل الخطاب، بيد أن الإلحاح على ربط النص بمقاصده ووظائفه مما يبعد هذين المصطلحين في الاستعمال إلى دوائر متشابكة، يبدو فض الاشتباك بينهما أمراً عسيراً جداً.

ومهما يكن من أمر، فإن هناك فروقا أولية ينمقد عليها الإجماع نظرياً، من أهمها ما يلي:

١- ينظر إلى النص في الأساس من حيث هو بنية مترابطة تتكون وحدة دلالية. وينظر إلى الخطاب من حيث هو موقف ينبغي للغة فيه أن تعمل على مطابقته.

٢- يحصل من ذلك القول بأن الخطاب أوسع من النص؛ فالخطاب بنية بالضرورة ولكنه يتسع لمرض ملابسات إنتاجها وتلقيها وتأويلها. ويدخل في تلك الملابس ما ليس بلغة كالمسلوكيات الحركية المصاحبة إيجابياً للاتصال.

(1) De Beaugrand, R- Dressler, W. : An Introduction To Textlinguistics . Longman London-New York (1983) p. 35.

(2) المرجع السابق ص ١٢٥ .

- ٣- النص في الأصل هو النص المكتوب، والخطاب في الأصل هو الكلام المنطوق، ولكنه يتلبس بصورة الآخر على التوسع؛ إذ يطلق النص على المنطوق، كما يطلق الخطاب على المكتوب؛ كـالخطاب الروائي.
- ٤- يتميز الخطاب عادةً بالطول؛ وذلك أنه في جوهره حوار أو مبادلة كلامية. أما النص فيقتصر حتى يكون كلمة مفردة (مثل: "سكوت") ويطول حتى يصبح مدونة كاملة (مثل: "رسالة الفخران").
- ٥- يرتبط ميل الخطاب عادةً إلى الطول والامتداد والحوارية بتمكينه من التعبير عن وجهات النظر والمواقف المختلفة. إذا اتخذنا من خطاب الرواية مثالاً رأينا أن دراسة الخطاب تجري ضمن ككل مظاهر الرواية التي تتصل بها مفاهيم مثل "الحوار" و"وجهة النظر" و"الموقف" و"رؤية العالم" و"نبرة الخطاب" و"اعتقادات المؤلف"، وأنواع الأحكام التي يصدرها، وشبكة العلاقات التواصلية بين المؤلف والشخص والقارئ الضمني... الخ.



الفصل الأول
الكفاية اللغوية
والكفاية الاتصالية

١- توطئة :

عرفت النظرية اللغوية طائفة من الثنائيات المفهومية التي ارتبطت بنظريات ومناهج في الفكر اللغوي والتي تطول بها القائمة^(١). كان فرديناند دوسوسير F.de Saussure قد ميز. كما هو معلوم . بين اللغة Langue والكلام Parole . اللغة عنده مخزن مملوء بأعضاء من مجتمع معين عبر استعمالهم النشط للكلام. ليست اللغة وظيفة أو عملاً للمتكلم ، بل هي إنتاج تمتلئ بطريقة مجهولة^(٢). أما الكلام فهو الجانب الأدائي التنفيذي. والأداء فردي دائماً ، والفردي سيده الدائم^(٣). وقد بنى دوسوسير على ذلك مقولته بأن اللغة اجتماعية والكلام فردي ، وأن اللغة أساسية والكلام ثانوي^(٤).

وفي عام ١٩٧٥ عاد نوام تشومسكي N. Chomsky إلى التمييز بين النظام الذي يصنع الإطار اللغوي للمجتمع والنشاط الذي يتحرك مع الأفراد في تعاملاتهم داخل هذا الإطار . عرفت اللغة عنده بالكفاية Competence وقبول الكلام بالأداء Performance . الكفاية عنده تعنى معرفة المتكلم بلغته ، والأداء ما ينتج عن هذه المعرفة من كلام متحقق في مواقف ملموسة. نضى هنا ببحث مشكل الكفاية في النظرية اللغوية. كان شأن مفهوم الكفاية التشومسكية شأن النظرية التحويلية ذاتها. بينما الرأي عند سامبسون Sampson في النظرية التحويلية أنها كانت تطوراً مشثوماً في علم اللسانيات^(٥) ، ترى ميلسكا إفيشش أنها دخلت بالنحو الحديث أهم مراحل

(١) من بين هذه الفكرة نذكر مثلاً :

النظام العام Langue / الاستعمال الفردي Use ، والجملنة Sentence / التطور Utterance ، الحدث القول / Locutionary الحدث الإلهامي Illocutionary act ، علم الدلالة Semantics / الصلولة Pragmatics . ويرى بركله Brekle أن نهاية اللغة/ الكلام التي ارتبطت بدوسوسير ، كانت قد عرفت - على نحو ضمني على الأقل - في أصل الفهم من دوسوسير ، مثل: علم اللغة Sprachwissenschaft الذي ميز له صاحبه جيهلبرت (Göbbelnsz 1901) بين اللغة والكلام ، فر بين النظام اللغوي والكلام النضلي .

انظر في تفصيل ذلك :

Brekle, Herbert : Semantik, Uni / Taschenbuecher, 2 Verb. Auflage Wilhelm Fink Verlag- Muenchen (1972) s.50.

(٢) دوسوسير ، فرديناند: أصول في علم اللغة العام ، ترجمة دكتور أحمد نعيم الكراعين ، مقر العرلة الجامعية - الإسكندرية (١٩٨٥) ص٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص٣٦ ..

(٤) المرجع نفسه ص٣٧

(٥) سلسون ، جفري : مفارص اللسانيات : التناضق والتطور ، ترجمة دكتور محمد زياد كبة ، النشر العلمي والمطابع - جامعة الملك سعود - الرياض (١١١٧ع) ص١٧١ .

تطوره، وأن صدور كتاب تشومسكي « البنى النحوية Syntactic Structures » في عام ١٩٥٧م كان أهم الأحداث اللسانية في السنوات الأخيرة^(١).
والحق أن مفهوم الكفاية قد شغل اللغويين المعاصرين منذ أن أدخله تشومسكي إلى الآن. يبدو هذا فيما أدى إليه من جدل ونقاش ومحاولات تعديل وإعادة صياغة، كما يبدو فيما خلفه من كفايات أخرى وفيما أثاره من أفكار ومفاهيم جديدة بين مناهج لغوية مختلفة.

فضلا عن الكفاية الاتصالية التي تقف - على نحو ما سنرى - موقف الند الصريح لكفاية تشومسكي اللغوية، صار مفهوم الكفاية مفهوما مشرا في كثير من التراكمات؛ فهناك ما يسمى الكفاية التفاعلية interaktionale Kompetenz، وهي - في تعريف أوكسازر Oksaar - قدرة الشخص على إنجاز العمليات الاتصالية اللغوية وغير اللغوية متكلمة ومستمعا، وفاق موافقها وتبعا لقواعد الجماعة الثقافية الاجتماعية والنفسية الاجتماعية. ويبنى البحث في الكفاية التفاعلية على أساس القانون التالي :

«من يقول ماذا في أي فتاة لمن بأي تأثير؟»

وينبغي في عملية التفاعل تحقيق التوافق التداولي والسميائي والمحافظة عليه، كما ينبغي مراعاة السياقات الثقافية^(٢).

وقد كان لرواد الإثنوميثودولوجيا (المنهجية الشعبية) عناية خاصة باختبار الكفاية التفاعلية في التفاعلات اللغوية؛ مثل شيكورييل Cicourel. يرى شيكورييل أن الصنفاء يدرسون الوضع Status الذي يكون عليه البالغون في إنجازهم التفاعلات الاجتماعية، على رغم ما يكون لها من خواص موقعية. إنهم يستخدمون - في هذه الحالة- التويمات اللغوية، ويمرطون الضوابط المعيارية، ويراعونها، ويؤدون أدوارهم الكلامية أداء مناسباً، وينصتون، ويقاطعون، ويستهلون مخاطبات وينهونها على نحو مناسب، ويتبها لهم تعبير الوجه الصحيح، والسلوك الجسدي المناسب، ونبرة الصوت المناسبة^(٣).

(١) إينش، هيلكا: المحامات تحت الشمس، ترجمة دكتور سعد مصلح، ودكتورة رند كامل نهد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (١٩٩٦م) ص ٢٨٠.

(٢) Lewandowski, Theodor: Linguistisches Woererbuch 2, Quelle U. Meyer Heidelberg, 6. Auflage. Wiesbaden (1994) S. 476.

(٣) Lewandowski, op. Cit., S. 476.

كذلك يشير بكل من هاينمن Heinemann وفينبجر Viehweger، إلى إطار عرضهما استراتيجيات تشكيل النصوص الكبرى، إلى ما يسمى بالكفاية الموضوعية Sachkompetenz. وهي قدرة المؤلف - في تصميمه نصا كبيرا - على تحديد ما لديه ليقوله، وما يبيّن أن يصل إليه عند طوائف بعينها من القراء. ويحتاج ذلك - كما يذكران- إلى نفس طول واستراتيجية ممددة الأمد. ومن ثم، جملا الكفاية الموضوعية والكفاية الاتصالية فروضا ضرورية لكتابة النصوص الكبرى⁽¹⁾.

وبإ نظرية إنتاج النص وتلقاه يذكر سونوسكي Sowinski نوعين آخرين من الكفاية، هما الكفاية النصية Textkompetenz، والكفاية الدلالية Semantische Kompetenz.

يعني الأول ببحث اكتساب اللغة اكتسابا لغويا نفسها، وملاحظة المقدرة على تشكيل النص عند الطفل، وملاحظة تطور الجمل المكونة من أكثر من كلمة واحدة عند الطفل الصغير إلى عامه الثالث⁽²⁾.

ولا تعني الكفاية النصية عند دويجراند التمييز فقط بين النص واللانص، بل يتضمن مفهوم الكفاية النصية طائفة من المعارف والإجراءات، مثل: معرفة رصيد البدائل Options في النظم الافتراضية، ومعرفة هيود النظام الخاصة بانتقاء البدائل أو تلافئها، ومعرفة المعتقدات والمعلومات الشائعة في المجموعة الاتصالية أو المجتمع عن العالم الحقيقي، ومعرفة أنواع النصوص، وإجراءات استخدام النظم الافتراضية عند تفعيلها actualization، وإجراءات إنتاج النصوص، وإجراءات استقبال النصوص، وإجراءات المحافظة على النصية ... إلخ⁽³⁾.

أما الكفاية الدلالية، فهي تمكن مستمع النص وقارئه من عمليات التجريد أو استنباط المعنى Abstraktionen والتي تتيح له تقديم معلومات مناسبة أخرى من معرفته على أساس موضوع معروف من قبل. ومما يؤدي إلى تنمية القدرات اللغوية، لا سيما تنمية الكفاية النصية، استقاء الموضوع من قدر من

(1) Heinemann, Wolfgang - Viehweger, Dieter: Textlinguistik, Eine Einführung, Max Niemeyer Verlag Tübingen (1991) S. 251.

(2) Sowinski, Bernhard: Textlinguistik, Eine Einführung, Max Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart- Berlin- Köln- Mainz (1983) S.58

(3) دويجراند، ويرت: نص والخطاب والإجراء، ترجمة دكتور لام حسان، عالم الكتب - القاهرة (1984) ص 111-112.

المعلومات المنظمة تتظلمها نصيا في إطار تلقي النص ومن استبطاط الموضوع استبطاطا ضمنيا في إطار إنتاجه⁽¹⁾.

من ناحية أخرى، تتطلق النظرية اللغوية النفسية المعاصرة من ضرورة الزعم بأن مستخدم اللغة لديه معرفة بناثية ضمنية *implicit structural knowledge*، وهدفها تشخيص مثل هذه المعرفة المسماة بالكفافية اللغوية. ينبني للنظرية اللغوية النفسية الكاملة أيضا، أن تبين كيفية دخول هذه المعرفة في طور الاستعمال، فيما سمى بالأداء اللغوي⁽²⁾. ويمكن القول بأن نشوء علم النفس اللغوي مدين لنظرية تشومسكي اللغوية؛ إذ عني فيه بابتكار نماذج للسلوك اللغوي مبنية على نظريته في الكفافية والأداء. ويرى مارك ريشل Marc Richelle أن تشومسكي قد أضفى أهمية أساسية على موضوع اكتساب اللغة في إطار النظرية العامة للغة، وأنه قد جدد الكيفية التي يطرح بها مشكل اكتساب اللغة⁽³⁾. وعلى رغم ما أثاره نموذج الكفافية الذي اقترحه تشومسكي نموذجا للأداء من مشكلات، فإن مزيمته التي لا يجادل فيها، هي أنه نبه علماء النفس إلى ما يتصف به الإنتاج اللغوي من تعقد بالغ.

والحق أن النظرية اللغوية النفسية ذاتها قد أبدت شهنا ظاهرا من الفطنة إلى تتفاعل أنماط مختلفة من المعرفة في المواقف الاتصالية الفعلية متجاوزة بذلك حدود المعرفة عند تشومسكي. يقول سلوبين Slobin مثلا: مثلا: في الاتصال الفعلي تتفاعل أنماط عدة من المعرفة: المعرفة بالصوتيات، والنحو، وعلم الدلالة، والتداولية، والأعراف الاجتماعية، والعالم الفيزيقي، والشخصية .. الخ⁽⁴⁾.

(1) Sowiński, op. Cit., S. 95

رومير ليكو Eco بين نوعين من الكفافية الدلالية :

- يسمى الأولى للمرساة: إنه التصريف الجرد والقلموس الأركي القرمذ .
- يسمى الأخرى موسوعة ، وهي التصريف القاطل للقلموس وهو التي الذي يمله مجتمع عربيا ، لرحمة مسبوقة مبهمة . وعده النظرية الأسييرة هي التي يتبنها ليكو لأنها هي القادرة في نظره على تفسير كفاءة مجتمعية في كل ثقافتها الحية . وارجع في تفصيل ذلك المقدمه التي وضعها عند مستص في صدر ترجمت كتاب مايكل ريفالير: دلالات الشعر، كلية الأعماب والعلوم الإنسانية - فرباط (1997) ص 127 .

(2) Slobin, Dan Isaac: Psycholinguistics, 2. edition USA (1979) p. 12.

(3) ريشل ، مارك: اكتساب اللغة ، ترجمة دكتور كمال بكداش ، المؤسسة الجامعية للدراسات وحشر والفنون ، بيروت ط 1 (1982 - 1981) ص 11 ، 12 .

(4) Slobin, op. Cit., p. 12 .

وفي ربيع القرن الأخير نشطت حركة تحليل الأبنية اللغوية للنصوص والأساليب الأدبية في إطار المنهج التحليلي التوليدي متخذة من نموذج الكفافية اللغوية قاعدة لمعرفة ما يملكه المتكلم الأصلي من بنية لفته.

وقد عني هنا بظواهر عدة، من أهمها :

- (أ) تعيين درجات الصحة النحوية المختلفة.
- (ب) الاهتمام بتأمل ظاهرة التعميد التركيبية.
- (ج) الاهتمام بمسألة العلاقة بين المقبولة والصحة.
- (د) الاهتمام بمسألة العلاقة بين البنى غير النحوية وأنواع محددة من التمايير المجازية.

وفي المسألة الأخيرة مثلاً يلاحظ ثورن Thorn ما يلي :

(1) أن الجمل غير النحوية ungrammatical ترد في الشعر أكثر مما ترد في النثر كثيراً.

(ب) أن هذه الجمل المنحرفة تشكل عنصراً أساسياً في استجابتنا للشعر.

(ج) على رغم معرفتنا بانحراف هذه الجمل المنحرفة ، فقد يحدث ألا نشعر بأنها منحرفة عن سياق القصيدة.

(د) أن الصيغ غير المياريه معيارية في سياق القصيدة⁽¹⁾.

كذلك كان لمفهوم الكفافية اللغوية الذي أدخله تشومسكي أثره الواضح في حرص نظرية الحدث اللغوي على تأكيد افكار بعينها. يرى فاندرفيكس Vanderveken مثلاً أن المناطق وفلسفة اللغة من نوى الاتجاه المنطقي- مثل كارناب ومونتاج وكابلان - قد مالوا إلى اختزال كفاية المتكلم اللغوية في قدرته على فهم شروط صدق القضايا التي تعبر عنها منطوقات الجمل في السياقات المتنوعة الممكنة التي يستعمل فيها لفته، وأنهم تجاهلوا المظاهر الإنجازية الأخرى لمعنى الجملة. نتج عن هذا عجزهم عن إعطاء اهتمام كاف للاختلافات في المعنى التي تقع بين جمل من أنماط تركيبية مختلفة، نحو :

(1) راجع لي تحليل ذلك: ثورن ، ج. ب. القواعد التوليدية وتحليل الأسلوب . في: اللغة والحظ الأصلي ، صرعة مقالات معها وترجمها دكتور سيد السامي ، المركز الثقافي العربي - بيروت ط 1 (1993م) ص 78-91 .

♦ جون سوف يفعل هذا.

♦ من فضلك، يا جون، افعل هذا !

♦ لو يفعل جون هذا !

هذه الأنماط التركيبية التي تعبر عن التضاميات ذاتها بالنظر إلى سياقات المنطوق الممكنة ذاتها، ولكنها تستخدم لأداء أحداث إنجازية ذات قوى مختلفة. في منهج فاندريهفيسكن لا تتفصل الكفاية اللغوية عن الأداء، كما هي الحال في مدرسة تشومسكي. على العكس من ذلك، تتوَلَّى كفاية المتكلم اللغوية بأنها قدرته على أداء أحداث لغوية وفهمها في السياقات الممكنة المتنوعة التي يستعمل فيها لفته⁽¹⁾.

هكذا كانت الكفاية التشومسكية المادة الأولية لألوان شتى من الكفايات، ناسبت تفاوت الاتجاهات والاهتمامات، وارتبط بعضها بالمتكلم، وبعضها بالمستمع (أو القارئ)، وبعضها الآخر بعملية التفاعل اللغوي ذاتها بين هذين الطرفين.

٢ - الكفاية اللغوية :

(١) مفهوم الكفاية اللغوية :

يميز تشومسكي بين ما يعرفه متكلم لفة ما معرفة ضمنية، وهو ما يسميه بكفايته his Competence وما يفعله بهذه المعرفة وهو ما يسميه أداءه his Performance⁽²⁾. المعرفة التي تكمن في مقدرة الشخص على استعمال لفته، هي إذن معرفة ضمنية فقط.

أما النحاة، فيحتاجون - كما يقول هدلمستون Huddleston - إلى معرفة واعية بمعرفة المتكلم/ المستمع الضمنية⁽³⁾. كان تشومسكي يشخص النحو التوليدي للغة بأنه وصف صريح للكفاية الذاتية لدى المتكلم أو المستمع المثالي، ويدهي أن قدرة المتكلم على استعمال لفته تتضمن قدرته على إنتاج

(١) Vanderwoken, Denial: Meaning and Speech Acts, Vol. 1 : Principles of Language Use, Cambridge Uni. Press New York (1990) pp. 10-11 .

(٢) Chomsky, Noam: Topics in the theory of Generative Grammar, in: Current Trends in linguistics (ed. Thomas A. Sebeok) 3- The Hague - Paris (1966) p.3.

(٣) Huddleston, Rodney: An Introduction to English Transformational Syntax. Longman. London (1979) p.1.

منطوقات جديدة وفهمها: أي منطوقات لم يتكلم بها من قبل ولم يسمها⁽¹⁾. ويشرح ليفاندوفسكي الكفاية قائلا: «الكفاية نظام من القواعد والمبادئ التي تمثل تمثيلا عقليا، والتي تمكن المتكلم من فهم جمل حية، وتمكن الجمل من التعبير عن أفكاره: إذ ترتبط الأصوات بالدلالات وينتمي إلى كفاية المتكلم النحوية قدراته التركيبية والدلالية والفونولوجية، التي تقضي بتطابق التميزات مع ما تمبر عنه في لغة بيمينها، كما تضم الأحكام عن حسن السبك الشكلي والدلالي، ومرجعية التعبيرات، والتماثل الدلالي، والتعمد الدلالي، ودرجة الانحراف»⁽²⁾.

يكتمل وضوح مفهوم الكفاية اللغوية بالوقوف على النقاط المهمة التالية في نظرية تشومسكي النحوية:

- 1- أن اللغة مجموعة (متاهية أو غير متاهية) من الجمل، كل جملة منها متاهية الطول ومكونة من مجموعة متاهية من العناصر. واللغات الطبيعية جميعها في صورها المنطوقة أو المكتوبة هي لغات بهذا المعنى؛ وذلك أن كل لغة طبيعية تمتلك عدداً متاهياً من الوحدات الصوتية (أو الحروف) على رغم وجود جمل عدة غير متاهية.
- 2- الهدف الرئيس في التحليل اللغوي للغة هو التمييز بين السلاسل النحوية التي تمثل جمل اللغة والسلاسل غير النحوية التي ليست بجمل اللغة، ثم دراسة أبنية السلاسل النحوية.
- 3- نحو اللغة إذن هو الجهاز الذي يولد جميع السلاسل النحوية للغة ولا يولد السلاسل غير النحوية. وتختبر صلاحية النحو المقترح للغة بالوقوف على حقيقة تكون السلاسل التي يولدها سلاسل نحوية حقاً أم لا؛ أي إن كانت سلاسل مقبولة عند المتكلم الأصلي *native speaker*.
- 4- تقترض في المتكلم الأصلي معرفة حسنة *intuitive knowledge* بالجمل النحوية للغة، وينبغي للنحو القيام بمهمة إنتاج تلك الجمل على نحو فعال ومضن. وتقترض هنا أيضاً معرفة جزئية بما يمد جملاً وبما لا يمد (أي الجمل *Sentences* واللاجمل *Non-Sentences*).

(1) المرجع السابق ص 1.

(2) Lewandowski, op. Cit., S.570.

٥- النحو مرآة سلوك المتكلم الذي يستطيع - على أساس تجربته انحددة باللغة - أن ينتج أو أن يفهم عددا غير محدد من الجمل الجديدة. وكل تفسير لفكرة النحوية في اللغة grammaticalness : أي شكل تشخيص للنحوية في اللغة في حدود المنطوقات اللغوية الملاحظة، يعد تفسيرا لوجه رئيس من وجوه السلوك اللغوي.

٦- لا تحدد فكرة النحوية من خلال المعنى أو الدلالة. تتساوى الجملتان في خلوهما من المعنى، ولكن متكلم اللغة يعرف أن إحداهما فقط هي الصحيحة نحويا. ويمثل تشومسكي على ذلك بالجملتين التاليتين :

- Colorless green ideas sleep furiously.
- Furiously sleep ideas green Colorless.

فهما مشتركتان في خلوهما من المعنى، ولكن الأولى منهما نحوية. يخلص تشومسكي من مناقشة مثل هذه الجمل إلى أن البحث عن تحديد دلالي للصحة النحوية سيكون عديم النفع^(١).

٧- نحو اللغة هو بالضرورة نظرية اللغة. وتعتمد كل نظرية علمية على عدد متناه من الملاحظات، وتبحث عن ارتباطها بالظواهر الملاحظة، وتتباين بظواهر جديدة عن طريق إنشاء قوانين عامة في حدود أبنية افتراضية. ويعتمد نحو اللغة على مدونة أصلية Corpus من المنطوقات (المحفوظات). وهو يحتوي على قوانين نحوية محددة بحدود الوحدات الصوتية الخاصة والعبارات وغيرها بهذه اللغة (أبنية افتراضية hypothetical constructs). تعبر هذه القوانين عن العلاقات البنائية بين الجمل المكونة للمدونة والمد غير المتناهي من الجمل التي يولدها النحو من هذه المدونة (التوقعات). النظرية الصحيحة للغة هي تطوير المعايير التي تحكم انتقاء نحوها الصحيح^(٢).

اللغة عند تشومسكي إذن طائفة من الجمل، ولكنها الجمل الصحيحة نحويا فحسب والنظرية اللغوية نظرية للجمل الصحيحة نحويا. ويعتمد متكلم اللغة الأصلي في تمييزه بين الجمل الصحيحة نحويا والجمل غير الصحيحة على معرفته الحدسية. هذه المعرفة تمكنه أيضا من إنتاج عدد غير متناه من

(1) Chomsky, Noam: Syntactic Structures, Mouton - The Hague - Paris, 8. th. Printing (1969) pp. 13-15.

(2) المرجع السابق ص ١٩ .

الجمل الجديدة وفهمها. هي مصدر المعلومات في تحديد فكرة النحوية، وليس المنى أو الدلالة. يضيف هدلستون، أحد ممثلي المنهج التحويلي، فكرة مهمة، هي أن تحديد اللغة لا يكون من خلال المنطوقات المحتملة.

ويمثل على ذلك فيما يلي :

(1) I was hoping that you - would you tell him the news for me?

(2) I was hoping that you would tell him the news for me .

فالبنية النحوية للمنطوق الأول غير مكتملة مقارنة بالمنطوق الثاني وعدم الاستكمال ظاهرة شائعة تماما في الكلام التقائي. ومن هنا، يجعل المنطوق الأول منطوقا محتملا potential utterance، يمكن أن يقع. ومتكلم الإنجليزية يمي (1) مختلف في حالته عن (2).

وينبغي للوصف الذي يناسب معرفة المتكلم/المستمع بالإنجليزية، ينبغي له أن يبرر عن هذا الاختلاف في الحالة. ولما كانت المنطوقات من كلا النمطين يمكن أن تقع، فلا يمكن أن نشخص الاختلافات في الحالة في حدود فكرة احتمالية الوقوع Potentiality of Occurrence وأن (2) وليس (1) ينتمي إلى مجموعة الجمل حسنة السبك Wellformed Sentences في الإنجليزية⁽¹⁾.

بينما مما سبق الانتهاء إلى أن الجملة Sentence مفهوم ينتمي إلى نظرية الأداء. يمثل المنطوق في (2) علاقة مباشرة وبسيطة (نسبيا) بين المنطوق والجملة، بيد أنه لا توجد جملة أو سلسلة من الجمل تتأخر المنطوق في (1). ليست كل المنطوقات منطوقات جمل. وهذه علة مهمة للاحتفاظ بالتمايز النظري بين المفاهيم. حينما ينطق متكلم بالمنطوق في (2)، فلا يؤخذ هذا على أنه دليل على أن معرفته بالإنجليزية معرفة غير تامة. الأخرى أن نسلم كما يقول هدلستون. بأن استعمال المتكلم لفته قد لا يعكس على نحو مباشر معرفته بهذه اللغة(2).

وغنى عن البيان أن نحو اللغة ذاته يفسح مجالاً لتراكيب جديدة غير متناهية. ولعل قدرة المتكلم على توليد الجمل الجديدة وفهمها، وحده عن بنى العبارات والجملة، وحده عن التفاوت بين درجات حسن السبك للجملة الواحدة، مما يتيح لنا القول بأن مفهوم الكفاية عند تشومسكي لا يحاذي محاذاة تامة مفهوم اللغة عند دوسوسير، وذلك أن اللغة عند دوسوسير ليست. كما المحنا سابقا. إلا مغزنا ونظاما نحويا يوجد بالقوة في كل عقل.

(1) Huddleston, Op. Cit, P. 2

(ب) الكفاية والأداء :

الكفاية معرفة ضمنية باللغة. والأداء استعمال اللغة في مواقف ملموسة. الكفاية معرفة مكتسبة، والأداء فعل كلامي متحقق. يعني هذا أن الأداء هو طريق الوصول إلى الكفاية: فالكفاية لا تدرك إلا من أفعال الأداء اللغوي. من ثم عدت الكفاية بناء افتراضيا مثاليا، في الوقت الذي يكون فيه الأداء ناتجا لغويا واقميا. أثار هذا التمييز مشكلا عويصا بين علماء اللغة وعلماء علم اللغة النفسي، هو مشكل تحديد ماهية الوقائع التي ينبني أن تؤخذ في الحسبان عند تحديد الكفاية والواقعات التي يجب استبعادها، من حيث إنها واقعات غير مناسبة. يقول مارك ريشل: « لقد حل علماء اللغة بوجه عام هذه المشكلة بالرجوع إلى حدس الأشخاص الناطقين، وبالاعتماد على أنفسهم عند الاقتضاء بوصفهم عينات ممثلة للجماعة اللغوية »⁽¹⁾.

تثير الكفاية في علاقتها بالأداء إشكاليات عدة، نوجزها - من خلال ما لاحظته العلماء بعد تشومسكي - فيما يلي :

١- يؤدي الفصل بين الكفاية والأداء إلى النظر إلى الكفاية على أنها اللغة الطبيعية في صيغتها المثالية، والنظر إلى الأداء على أنه الحقيقة البالية التي تحوى الآثار الجانبية الفسيولوجية وغيرها من الأشياء التي لا يتصل بعضها ببعض⁽²⁾.

٢- ليس كل ما يبهره معيار الصحة النحوية مقبولا عند الأداء. تكون العبارة صحيحة نحويا، ولكن أحدا لا ينطق بها ولا يفهمها في الاستعمال المادي. إن جملة نحو: « أكل الفار الذي قتله الهر الذي طارده الكلب الجبن » تمد جزوا من اللغة عند كل من ينحو منحى تشومسكي، لأن قواعد اللغة تجهزها. ولكن متن اللغة لا يعرف مثل هذه الجملة. يرجع مارك ريشل ذلك إلى أن بعض القيود التي ترتبط بالأداء تحظر استعمال مثل هذه العبارات، مثل قيود الذاكرة، والتمقد المنطقي الذي يستحيل حله .. إلخ⁽³⁾.

(1) كتاب اللغة ص ٣٦

(2) Halliday, M. A. K: Language as Social Semiotic: The Social Interpretation Of Language and Meaning. Open Uni. London (1993) p. 38

(3) كتاب اللغة ص ٣٨

٣- استبعد تشومسكي عند إنشاء نظريته النحوية عوامل مثل محدودية الذاكرة، والمدول عن خطة الكلام أثناء التكلم، كما تجاهل الأخطاء^(١). يثير هذا تساؤلا عن مدى جعل الأداء الفعلي (على رغم ما يمرض من عوارض، وعلى رغم تفاوته عند المتكلم الواحد من مناسبة إلى أخرى) عيارا للحكم على الكفاية التي عدت دائما طريقة مثالية للعمل وفقا للقوانين. أبتظر إلى تلك العوامل والعوارض مستقلة عن الكفاية اللغوية، أم يمتد بما تحمله من مضامين عن معرفة المتكلم أو المستمع بلفته؟ يقول ريشل: «المعلوم أن الطفل يتلفظ ببعض المبررات غير الأصولية (أي غير المطابقة لقوانين النحو). وحين يتلفظ الراشد بمثل هذه العبارات، فإن عالم اللغة يستجدها بسهولة بوصفها أحداثا طارئة من الأداء ولا تدرج بالتالي في قواعد النحو»^(٢).

إن معيار الصحة النحوية ليس مهيارا مطلقا. وكثيرا ما يجرى تحديد بنية المنطوق الأساسية من خلال وحدات الخطاب الكبرى، سواء أكانت مقابلة أم مقامية. ولم يكن غريبا مع مثل تلك الإشكاليات أن تصدق نظرية تحليل الخطاب عن مفهوم الكفاية وأن تراه مفهوما غير مساعد في حلها^(٣).

(ج) نقد الكفاية اللغوية :

تماور علماء علم اللغة الاجتماعي وعلماء النص ومحللو الخطاب مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكي ومن هنا منحاه بالنقد من جهات مختلفة. يمكن أن نوجز أهم ما أخذ على الكفاية فيما يلي :

١- تقابل ثنائية الكفاية/الأداء بين ما يعرفه المتكلم وما يؤديه، في الوقت الذي لا حاجة فيه إلى استظهار ما يعرفه المتكلم؛ وذلك أن خلفية ما يؤديه ذلك على ما يمكنه أن يؤدي؛ أي دليل على الممكن الذي هو موضوعي Objective، لا الكفاية التي هي ذاتية Subjective^(٤).

(١) نص والخطاب والإجراء ص ١٠٨ .

(٢) اكتساب اللغة ص ٢٨ .

(٣) Coulthard, Malcolm-Montgomery, Martin : Studies in Discourse Analysis, Routledge-London and New York (1989) PP . 28-83.

(٤) Halliday, op. Cit., pp. 34-38.

نظرية بمبادئ نظرية أو نظريات أخرى. فهم الكفافية في إطار النظرية التحويلية التوليدية لا يجعل الاعتبار السباقية التداولية أمرا وارداً؛ وذلك أن تحليل الأبنية النحوية للحمل في ذاتها (وليس من خلال المعنى أو الدلالة) المبدأ الذي يُسبّر الفكر التحويلي التوليدي عند تشومسكي ومدرسته. وكان تشومسكي نفسه يدرك أن معرفة الإنسان اللغوية: أي نظام القواعد المستمع داخل ذهن الإنسان، هي فقط عامل واحد من عوامل كثيرة تقرر كيف تستخدم أو تفهم عبارة ما في موقف معين^(١).

كان تشومسكي قد درس الرياضيات والفلسفة في جامعة بنسلفانيا. وقد سبقت هذه الدراسة فكره اللغوي، وساعدته على تطوير فرضية «الكليات النحوية» (Syntactic Universals)، التي ناظرت «الكليات الصوتية الوظيفية» عند رومان ياكوبسون Roman Jakobson أحد مؤسسي اللسانيات الوظيفية في مدرسة براغ. كان جوهر فرضية تشومسكي أن التراكيب اللغوية متشابهة بين شتى اللغات، وأن كل لغة تعرف عدداً غير متناه من الجمل. على رغم تنامي الملامات اللغوية فيها. من أجل ذلك، استقرت عناية تشومسكي على نشاط العقل البشري في إنشاء أعداد غير متناهية من الجمل في أنماط مختلفة، صارفاً النظر عن ارتباط هذا النشاط وتلك الأنماط بسياقاتها الاتصالية الفعلية. وهذا مكمن النقص في نظرية تشومسكي في الكفافية اللغوية. هي نظرية جزئية أو ناقصة؛ وذلك أنها انصرفت إلى البنى التركيبية والجوانب الشكلية من اللغة، حتى شغلت عن المحيطات التبليغية الاجتماعية التي تقع فيها تلك البنى وعن الجوانب الإنسانية التي تشكل صيغ التفاعلات اللغوية اليومية. ويلحظ المرء أن بعض الجمل التي وصفت في التحليل النحوي عند تشومسكي بأنها خاطئة نحويًا، إنما هي بالأحرى جمل لم يملك قائلوها أن يههؤوا لها مقاماتها المناسبة والتي تجعل لها معنى. ومن أدلة الحكم على نظريته في الكفافية بالنتقصان، أنها لم تجعل محللاً في حساباتها للجمل المحتملة المقبولة في الأداء؛ فالمتكلمون لا يقصرون أداءهم اللغوي على جمل مكتملة تحدها حدود النحو وقوانينه النموذجية، بل قد يصدرون أيضاً

(١) خلاص: الفكر وثمة ص ١٧٢

منطوقات جعل ناقصة من حيث البني النحوية، ككاملة في وظائفها الاتصالية التداولية.

في نظرية تشومسكي في الكفائية، يبدو لنا الفصل واضحاً بين النحو ومبادئ العلوم الإنسانية، فضلاً عن وضوح الفصل بين النحو وعلم الدلالة من مبادئ العلوم اللغوية ذاتها. ونحن مع ستويس Stubbe في أن الفصل بين المبادئ وفروع المبادئ يفيد في غالب الأحوال؛ وذلك أنه يتيح درس طائفة مهمة من الظواهر التي يضرب عنها الصنف^(١). ولكن النظرة المترابطة إلى اللغة، ينبغي لها أن تأخذ في الحسبان استعمال اللغة استعمالاً يومياً في خطاب متصل.

(د) إعادة صياغة الكفائية :

يمكن القول بأن بعضاً من المآخذ السابقة تعد توجيهات إلى إعادة صياغة كفاية تشومسكي اللغوية. ولعل أهم محاولات إعادة الصياغة الموسومة محاولة هيربرت برسكله Herbert Brekle وهانز بولر Hans Buehler. سمعت محاولة برسكله إلى بيان العلاقة بين الكفائية والأداء وبين ثلاثية دو سوسير: الكلام / Parole / اللغة / Langage / كلية اللغة faculte de langue في إطار الأبعاد السيميائية الثلاثة: النحو، والدلالة، والتداولية. إنها محاولة لإعادة الصيغة في ضوء ما يقدمه علم الدلالة من مكونات دلالية للكفائية اللغوية العامة، وما تقدمه التداولية لها من مبادئ؛ مثل اشتراك المتكلم والمستمع في الأدوار الاجتماعية وفي سياقات التعامل Handlungskontexte^(٢).

أما هانز بولر وزملاؤه، فينطلقون من تحديد موضوعات علم اللغة الكبرى في :

- ١- اللغة في نظامها .
 - ٢- اللغة في وظيفتها الاجتماعية .
- ومن هنا كانت العناية بأمريين اثنين:
- ١- فحص المفهومين: الكفائية/الأداء فحواً نقدياً، وتمريفهما تعريفياً جديداً في المسائل اللغوية الاجتماعية.

(١) Smbbs, Michael: Discourse Analysis. Basil Blackwell-Oxford (1989) p 11.

(٢) Brekle, op. Cit., SS. 124-130

٢- تعيين الوضع النموذجي لكل من المتكلم والمستمع: لمعمل نموذج للبنائية اللغوية والنحو التحويلي التوليدي وعلم الدلالة والتداولية^(١).
 المتكلم أو المستمع النموذجي في منهج النحو التحويلي التوليدي، لا يملك أي علامات فيزيائية، ولا أي علامات اجتماعية: كالتربية والتعليم والوظيفة، والملاقات الاجتماعية، والجماعة التي ينتمي إليها.
 دعا هذا بولر وزملاءه إلى العودة إلى «نمذجة» المتكلم والمستمع، ومحاولة تقديم تعريف جديد للعلاقة بين الكفاية والأداء. ينبغي للمتكلم أو المستمع «النمذجة» أن يتمتع بالقدرة على حيازة النصوص محكمة الجمل، والقدرة على تأليف التعبيرات وإنتاجها ووضعها في مواقفها الاجتماعية.
 يعني هذا أن المناهج وطرق الإجراء في بحث اللغة في نظامها، لا تستطيع أن تصف قدرات المتكلم أو المستمع، أو أن توضحها على نحو تام، هذه القدرات التي تعد في علم اللغة الاجتماعي ذات أهمية معرفية. يبين بولر وزملاءه ذلك بالتمثيل بمحاولتين لا يعتدّر متكلم بمبته في مواقف اتصالية اجتماعية متفاوتة :

(١) السيد من يعتذر إلى زوجته عن سوء مزاجه :

« قطني ... لا تزعجي ... معذرة ... من فضلك ... يوسفني هذا ... لم أكن أقصد هذا ... » .

(٢) السيد من يعتذر في مناقشة علنية إلى شريكه في المحادثة غريب نسبياً:
 «أرجوكم يا سيد من أن تهدوا بالآ، أؤكد لكم أنني أسف أسفا بالغا على تصرفي ... » .

يريد هانز بولر بهذا أن يبين أن النوعيات المتفاوتة للتعامل اللغوي، لا تكاد تتضح عن طريق الوصف اللغوي الشكلي؛ فالفرق في تفسير السيد من اعتذاره بين (١) و (٢)، يأتي من الموقفية الاجتماعية المتفاوتة للنص، ومن درجة الألفة بين المشاركين، ومن علانية الموقف، ومن التوافق الخطابي المتفاوت "Redekonstellation"^(٢)

(١) Buehler, Hans, et. al. : Sprache 2, Eine Einführung in die moderne Linguistik. Fischer Taschenbuch Verlag-Frankfurt (1973) S 180 >

(٢) المرجع نفسه من ١٨١-١٨٢

التحقق	الافتراضي
<p>الاستعمال اللغوي (الأداء)</p> <hr style="border-top: 1px dashed black;"/> <p>الفردية الجماعية</p>	<p>التوليد الممكن للأبنية اللغوية (الكفاية)</p> <hr style="border-top: 1px dashed black;"/> <p>الفردية الجماعية</p>
	<p>الملكية اللغوية (الشفرة)</p> <hr style="border-top: 1px dashed black;"/> <p>الفردية الجماعية</p>

تتألف الشائبة المفهومية: الكفاية/الأداء، في هذا الجدول بالتعبير عنها بالمفهومين: الافتراضي/ المتحقق وتقوم الكفاية هنا بأنها قدرة المتكلم أو المستمع على التفسير وعلى فك التشفير، وبأنها تحقيق الشفرة Kode أو الملكية اللغوية Sprachbesitz هي إذن القدرة على الاختيار أو الانتقاء من مخزون العلامات اللغوية وما يربط بينها من قواعد لإنتاج أبنية لغوية. هذه القدرة هي ما نعنيها تماما عن الكفاية النحوية الخالصة⁽¹⁾. أما استدعاء المتكلم أو المستمع كفايته النحوية، فهو ما يعرف بالأداء، الأداء الذي يرتبط بمساقيات عرشفة وموقفية، كما يرتبط بمكونات اجتماعية ونفسية: أي بما أسماه بولر باسم التوافق الخطابي Redekonstellation.

لماذا لم تقبل البحوث اللغوية الاجتماعية التفرع إلى الكفاية والأداء؟ يرجع ذلك إلى أن ارتباط مناسبة العملية الاتصالية وفهمها وتفسيرها بالسبك النحوي ارتباط جزئي فحسب؛ وذلك أن هناك أشياء أخرى ينبغي أن ترتبط بها؛ هي المكونات الموقفية والاجتماعية والنفسية.

في محاولتي اعتذار السيد من السابقتين، لم يكن الحكم بمناسبة سلوكه اللغوي أو عدم مناسبة مرتبطة بجودة السبك أو بردائه. كانت جعل الاعتذار صحبة بحكم فهمنا الملاقات الاجتماعية بين السيد من

(1) المرجع نفسه ص ١٨٣.

ومخاطبفه؁ ومن سمات الموقف^(١١).

فء هءه الكال؁ فءكحل بولر وزملاؤه المفهوم: ككفافة السلوك الاتصالي اللفوي Verbal Kommunikative Verhaltenskompetenz. وففر الكءول السابق

كفنئذ إلى الشككل الكالف:

الككف	الافراضي												
<table border="1"> <tr> <td colspan="2">الأفعال الاتصالية للفرفة</td> </tr> <tr> <td>الفرفة</td> <td>الجماعفة</td> </tr> </table>	الأفعال الاتصالية للفرفة		الفرفة	الجماعفة	<table border="1"> <tr> <td colspan="2">الكفافة السلوكفة الاتصالية للفرفة</td> </tr> <tr> <td>الفرفة</td> <td>الجماعفة</td> </tr> <tr> <td colspan="2">الملكفة للفرفة (الشفرفة)</td> </tr> <tr> <td>الفرفة</td> <td>الجماعفة</td> </tr> </table>	الكفافة السلوكفة الاتصالية للفرفة		الفرفة	الجماعفة	الملكفة للفرفة (الشفرفة)		الفرفة	الجماعفة
الأفعال الاتصالية للفرفة													
الفرفة	الجماعفة												
الكفافة السلوكفة الاتصالية للفرفة													
الفرفة	الجماعفة												
الملكفة للفرفة (الشفرفة)													
الفرفة	الجماعفة												

ففهم الكفافة السلوكفة الاتصالية للفرفة من مقءرة المككلم أو المسكع الكف كمارس عملها فء الكوافق الكطابي على ككوف لفوف: أف ففمها لفوف^(١٢).

(ه) الكفافة للفرفة والمككة اللسانفة:

كان ابن ككلون - وإن لم فكن من اللفوفف الككرفف - قء سبق إلى مفوم «الملككة اللسانفة» الكف كراه صالحا لأن فكون المقابل المررف لمفوم الككفافة عنء ككومسكف. الككف ابن ككلون إلى كل الأفكار المهمة فء نظرفة ككومسكف فء الككفافة؁ بل زاء بعضا من الأفكار الكف الكصلت بالواقع اللفوف فء المككع المررف. فممكن أن نمط اللام عن ذلك من كلال النقاط الجوهرفة الكالف:

١- الملككة اللسانفة عنء ابن ككلون كمنف أفضا المعرفة الكف فككسبها مككلم اللغة السلفف عن لفنه ككلاما وفهما: فالكروف والكرككات والهناء - أف الأوضاع - لم فككلفها المررف: ؁ إنما هف ملككة فء

(١١) المرع سلفن ص ١٨١

(١٢) المرع سلفن ص ١٨٥

السنتهم ، ياخذها الآخر عن الأول^(١) . وتكتسب اللفة عنده بالطرق التالية :

(ا) السمع: وهو ابو الملصكات اللسانية^(٢) .

(ب) والتعلم: ووجهه حفظ كلام العرب الجاري على اساليبهم^(٣) .

(ج) وكثرة الحفظ: وذلك ان حصول ملكة اللسان العربي، إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتمم في خياله النوال الذي نسجوا عليه تراكيبيهم، فينسخ هو عليه، وينزل بذلك منزلة من نشأ منهم وخالف عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم^(٤) . وكثرة الحفظ تزيد صاحب الملكة رسوخا وقوة^(٥) . ولا تحصل الملكة من حفظ كلام العرب إلا بعد فهمه^(٦) .

(د) والممارسة: فالملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه^(٧) .

وللتكرار أثره في ترسيخ الملكة: والملصكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال: لأن الفعل يقع أولاً، وتمود فيه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً. ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار، فتكون ملكة: أي صفة راسخة^(٨) . ويشرح ابن خلدون هذه المراحل بقوله: « فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللفة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام آل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تمبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها، فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن عبد): المقدمة، مراجعة لجنة من العلماء، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة، ص ٥١٦/١.

(٢) المرجع السابق ٥١٦/١.

(٣) المرجع نفسه ٥٥٩/١ وقرن ٥٥٨/١.

(٤) المرجع نفسه ٥٦١/١.

(٥) المرجع نفسه ٥٥٩/١.

(٦) المرجع نفسه ٥٥٣/١.

(٧) المرجع نفسه ٥٦٢/١.

(٨) المرجع نفسه ٥٥٤/١.

لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم^(١).

لوقوع الفعل اللساني ← صفة للذات لتكرار الصفة ← حال أو صفة غير راسخة لزيادة تكرارا ← ملكة أو صفة راسخة .

الملكية إذن مكتسبة. والصواب للعرب في لفهم إعرابا وبلاغة لم يكن أمرا طبيعيا. لم تكن العرب تنطق بالطبع، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام، تمكنت ورسخت، فظهرت كأنها جبله وطبع^(٢).

٢- كان هدف الدراسة اللغوية عند تشومسكي هو دراسة كفاية المتكلم أو المستمع السليق، وكذلك يرى ابن خلدون أن اللغات كلها ملكات، وأن اللغات وملكاتها ليست مجانا^(٣).

٣- كان تشومسكي يرى اللغة طائفة من الجمل الصحيحة نحويا، كما كان يرى أن نحو اللغة هو نظرية اللغة. وهذه الأهمية للنحو تعظم أيضا في جعل ابن خلدون الأهم المقدم من علوم اللسان العربي (اللغة والنحو والبيان والأدب) هو النحو: «إذ به تبين أصول المقاصد بالدلالة، فمعرفة الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر.. علم النحو أهم من اللغة: إذ في جهله الإخلال بالنتاهم جملة وليست كذلك اللغة^(٤). والحق أن اصطلاح «اللغة» عند ابن خلدون في مثل الكلام السابق ليس هو اصطلاح «اللغة» الذي نعرفه في العصر الحديث غير موقوف على المفردات، إنما كان العرب يطلقونه على «المفردات». وقد استقر عند علمائنا القدماء أن جهل بمض مفردات اللغة لا يقدر في العالم، إذ لا يحيط باللغة إلا «نبي» كما قالوا، أما جهل جانب واحد من جوانب النحو فنقيصة من النقائص الكبرى.

٤- لم يكن منطلق تشومسكي تأمل الرموز اللغوية المفردة، ولا تجمع الرموز اللغوية، ولكنه كان إنتاج الجمل والجهاز القاعدي الذي يرتبط

(١) المرجع ضء ١/١٠٤١-١٠٤٠ .

(٢) المرجع ضء ١/١٠٤٢ .

(٣) المرجع ضء ١/١٠٤٧ .

(٤) المرجع ضء ١/١٠٤٨ .

به. لقد قصد تشومسكي بالكفاية اللغوية الجهاز القاعدي النحوي في دماغ متكلم سليق وامتلاكه قواعد توليد التراكييب التي يحصلها من اكتسابه الأول للغة. وكذلك كانت نظرة ابن خلدون إلى الملكة: فتمام الملكة أو نقصانها ليس بالنظر إلى المبررات، وإنما هو بالنظر إلى التراكييب^(١).

ويميز ابن خلدون هنا بين التراكييب الراجعة إلى الملكة اللسانية والقوانين المطردة المستتبطة من كلام العرب فالقوانين إنما تمهد علما باللسان، ولا تمهد حصول الملكة^(٢). قوانين الملكة علم بكيفية لا نفس كيفية. فالبصير بالخطابة علما غير المحكم للمكتبة عملاً. وكذلك العلم بقوانين الإعراب، فهو علم بكيفية العمل، ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه، أو ذى مودته، أو شكوى ظلامه، أو قصد من قصوده، أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن^(٣).

٥- الملكة متغيرة، ومن عوامل تغيرها العوامل الخارجية: اجتماعية وتاريخية وغيرها. يضرب ابن خلدون مثالا على ذلك بالذي حصل للعرب بما القى إليها السمع من مخالقات المستعربين: « ففسدت بما القى إليها مما يغايروا لجنوحها إليه باعتقاد السمع »^(٤). حينما خالط العرب المعجم، حصلت لهم ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت لهم ومن الملكة الثانية للمعجم، « فعلى مقدار ما يسمعونه من المعجم، ويريون عليه، يمدون عن الملكة الأولى »^(٥).

٦- جعل تشومسكي الحدس مصدرا للمعلومات واستقاء القواعد والأداة الأهم في التمييز بين الجملة الصحيحة نحويا والجملة غير الصحيحة. وفي كلام ابن خلدون ما يثبت فطنته إلى دور الحدس في ذلك أيضاً، مثل قوله :

(١) لقطة ١/ ٥٥١

(٢) المرجع السابق ١/ ٥٦٢

(٣) المرجع نفسه ١/ ٥٦٠

(٤) المرجع نفسه ١/ ٥١٦

(٥) المرجع نفسه ١/ ٥٥٨

(١) ، فالتكلم بلسان العرب والبلغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ... وإن سمع تركيبتها غير جارٍ على ذلك المنحى مجبه، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر، بل ويغير فكره، إلا بما استفاد من حصول هذه الملصقة^(١).

(ب) أو قوله: «ولو رام صاحب هذه الملصقة حيداً عن هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه: لأنه لا يمتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عرض عليه الكلام حائلاً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذهن مارس كلامهم وربما يمجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبهانية، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء. وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم»^(٢).

٧- إذا كان بعض اللغويين قد أخذوا على تشومسكي إهماله الاعتبارات السباقية في تفسير التراكيب وإهماله التفاعل الذي يجب مراعاته بين الكفاية النحوية والكفاية التداولية، فإن فطنه ابن خلدون إلى حقيقة الواقعة اللغوية الاتصالية، قد هدته إلى وجوب توفر عوامل أخرى مع قدرته على إنتاج التراكيب وفهمها: مثل سلامة الطبع ومراعاة التطبيق. ومقتضيات الأحوال - أو أحوال المتخاطبين أو الفاعلين^(٣) من تمام الإفادة عند ابن خلدون، بل يراها مما يجعل الكلام من جنس كلام العرب: «فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة»^(٤). وينبغي عند ابن خلدون «التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام»^(٥). ومن ذلك مثلاً تؤكد الإسناد:

(١) المرجع السابق ١/ ٦٦

(٢) المرجع نفسه ١/ ٥٦٢ - ٥٦٣

(٣) المرجع السابق ١/ ٥٥٠

(٤) المرجع نفسه ١/ ٥٥٠

(٥) المرجع نفسه ١/ ٥٥١

المقال	حال الفعل اللساني	المقام (حال المتخاطبين)
زيد قائم	عار عن التوكيد	إفادة خالي الذهن
إن زيدا قائم	مؤكد بإن	إفادة المتردد
إن زيدا لقائم	مؤكد بإن واللام	إفادة المنكر

فهذه متغايرة كلها في الدلالة ، وإن استوت من طريق الإعراب^(١١).

الملكية اللسانية إذن معرفة المتكلم المكتسبة بلفته. هي صفة راسخة للمتكلم تحصل بتكرار الأفعال الكلامية وتحصل بالتعلم والممارسة. وليس تمام الملكية أو نقصانها بالنظر إلى المفردات ؛ فالملكة التامة في التركيب ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال - ولنا - والأمر على ما رأينا - أن نستنتج حقيقة مهمة؛ هي أن الملكية اللسانية عند ابن خلدون أوسع من أن تقتصر على الملكية النحوية؛ لأنها تتسع للإفادة والإبلاغ ، حتى تقارب الكفاية الاتصالية التي يراعى فيها مطابقة الكلام لمقتضى الحال وربما لا يجاوز الصواب إذا جعلنا مفهوم « الذوق » عند ابن خلدون مضاميا لمفهوم الكفاية الاتصالية عند المحدثين من رواد المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي، على نحو ما سنرى.

الذوق هو الملكية عندما ترسخ وتستقر^(١٢). والذوق حصول ملكة البلاغة للسان^(١٣). ولا يبلغ المتكلم الفاية من إفادة مقصوده إلا بتلك المطابقة التي تقتضيها ملكة البلاغة للسان. والمطابقة إنما تكون بين أفعال اللسان وسياقات الاتصال.

٣ - الكفاية الاتصالية ؛

الكفاية اللغوية - في موقعها من ساحة الخطاب - نموذج لمعرفة المتكلم بلفته، وليست نموذجا لمعرفة كيف يتم اتصالا لغويا حقيقيا مع الآخرين، بل لائم فيه بين اللغة التي يعرضها وبين الوظيفة والمقصد وسياق الاتصال. يعني هذا التسليم المبني بكون الكفاية اللغوية قاعدة الاتصال اللغوي بين الناس. المستمع الذي لا يعرف العربية مثلا ستظل المنطوقات عنده معطلة الوظيفة؛

(١١) المرجع نفسه ١/ ٥٥١.

(١٢) المرجع نفسه ١/ ٥٦٢.

(١٣) المرجع نفسه ١/ ٥٦٦.

لأنها محض رضاعة أو ضوضاء لا تعني شيئاً، مهما وفر لها المتكلم من قرائن تداولية. والمتكلم بالعربية الذي تميزه أوليات نظم الجملة بالكيفيات المقررة في نحوها سيظل عاجزاً عن أن ينشئ مع مستمعه اتصالاً نافعاً، مهما أظهر من قدرة على فقه السياق غير اللغوي، ومهما احتال على ذلك بوسائل غير لغوية. تبدو المشكلة هنا في كون مركز الكفاية عند تشومسكي البنية الشكلية للغة الطبيعية، على حين أن التأكيد في أثر القرائن الاتصالية التداولية مما ينبغي له أن يحتل مع تلك البنية ذلك المركز.

كان لابد من خفض درجة المثالية في كفاية تشومسكي لمصلحة متطلبات الموقف الاتصالي الاجتماعي المتغيرة. ينبغي في هذه الحال أن ينظر إلى الصحة النحوية في مواضعها تلك المتطلبات. صارت العقيدة الفكرية المهيمنة عند محلي الخطاب هي أن مفهوم الصحة النحوية ليس له مقابل مباشر، وهذا ما نجده مثلاً عند كالثاردCoulthard ومونتجمريMontgomery⁽¹⁾ كان لابد من عجز نموذج الكفاية اللغوية في النظرية التحليلية التوليدية عن الوفاء بتشخيص العملية الاتصالية الطبيعية، من حيث إنه جعل همه الفعل اللغوي المنزول عن سياقه. كان لابد من تغير التوجهات والمنظورات إلى سياق الاتصال. نرى شيئاً من ذلك في مثل قول فولمرt Volmert : « عندما تدخل العلامات اللغوية في استخدام لغوي طبيعي، تتكون قد دخلت في سياق اتصالي. وفي السياق تظهر الدلالات الممكنة، كما أن الوجود المحتمل لما يشار إليه من أشياء يجسم المراد. في الموقف الاتصالي، لا تستخدم العلامات اللغوية منزلة، ولكنها تتعلق بعلامات أخرى. يستطيع المرء أن يكشف في المعجم عن معاني الكلمات المفردة، ولا يمكنه ذلك في معرفة معاني العبارات والجملة والنصوص .

إن معنى الخطاب الحقيقي يتميز تميزاً جوهرياً عن المعنى المعجمي والمعنى النظامي للكلمة : ففي الخطاب تعين معاني الكلمات من خلال السياق الموقفى تبعاً لمؤكدا : أي بتعدد تنوعها الدلالي . إن مقصد المتكلم الاتصالي ، وقدرته اللغوية ، ومعرفته ونظرتة إلى العالم ، تؤثر في اختياره

(1) Coulthard-Montgomery. Op Cit., p. 82

اللفظي الذي هو دائما انتقاء من الإمكانيات التي يتيحها النظام اللغوي⁽¹⁾.
 إن وضع العلامات اللغوية في تفاعل اجتماعي، يعني استخدامها
 استخداما لغويا طبيعيا. في هذا التفاعل تعين المعاني الوظيفية للتمييزات
 اللغوية تعينا تاما، بما تراعى فيه وتتوفر له من قواعد تداولية؛ أي تلك
 القواعد الجماعية لاستخدام تلك التمييزات استخداما عمليا. في الإنجليزية،
 تعني الإجابة « Thank you » عن السؤال:

Would you like a cup of tea ?

تعني الإيجاب، ولكن المكس هو الصحيح في كل من الألمانية
 والمربية. Danke في الألمانية وه شكرا ، في المربية، تمنيان - في الإجابة عن
 عرض مماثل - النفي هذا هو المعنى الوظيفي التداولي الذي تكتسبه مثل
 تلك المفردات والمبارات في محيط التفاعلات اللغوية الاجتماعية اليومية
 العملية.

لقد ارتاب علماء علم اللغة الاجتماعي في أفكار مثل كفاية المتكلمين
 الأصليين Competence of native speakers وانتقاد أي قبول ضمنى لجماعة
 لغوية متجانسة⁽²⁾.

وكان لما استجد - منذ الستينيات - في فروع علم الاجتماع ، مثل علم
 الاجتماع النفسي، والأنثروبولوجيا، والإثنوجرافيا، ونحوها أثر مباشر في
 تطبيق المنهج الاجتماعي ومطباته المستمدة من تلك الفروع، في النظر إلى
 الاستعمال اللغوي على ضوء المواقف الاتصالية الاجتماعية الفعلية يقول
 فلن ديهك Van Dijk: « وجد علماء علم اللغة الاجتماعي تأييدا وحثا - في هذا
 المنهج الاجتماعي - على الاشتغال بالصورة الطبيعية لاستخدام اللغة. لقد
 وجدوا أن الحديث اليومي هو الاستعمال الأول والجوهري في السياق
 الاجتماعي⁽³⁾ ».

(1) Volmert, Johannes (Hrsg.): Grundkurs Sprachwissenschaft. Wilhelm Fink Ver-
 Muenchen (1995) S. 169.

(2) Van Dijk. Teun A.: Dialogue as Discourse and Interaction, in Van Dijk (ed.):
 Handbook of Discourse Analysis. Vol. 3 (Discourse and Dialogue) - Academic
 Press- London (1989) pp. 1-11. p. 7.

(3) المرجع السابق ص 7.

صارت دراسة اللغة في الموقف الاتصالي اقفا يجاوز بنية النظام إلى قيمه ووظائفه التداولية. صارت القوانين التي تحكم كلام الأفراد الاجتماعيين من ذوى الكفاية أعظم مما قيد به مذهب تشومسكى عن كفاية المتكلمين المثالية في معرفة قوانين النحو وتطبيقها.

(1) مفهوم الكفاية الاتصالية :

الكفاية الاتصالية Communicative Competence هي البديل المفهومي المنهجي للكفاية اللغوية في النظرية النحوية عند تشومسكى ومن نسج على منواله. بنى ديل هايمز Dell Hymes نظريته في الكفاية الاتصالية على أساس ما لاحظته من ضيق شديد في مفهوم الكفاية اللغوية عند تشومسكى. لا ينبغي - من وجهة نظر هايمز - أن يقف هدف النظرية اللغوية عند وصف كفاية المتكلم المثالية ووصف معرفته بالصحة النحوية. وجد هايمز أن علم اللغة ينبغي له أن يعنى نفسه بالكفاية الاتصالية. والكفاية الاتصالية عنده تعني مقدرة المتكلم على إنتاج منطوقات مناسبة لأنماط المواقف الاتصالية المختلفة، لا جمل نحوية⁽¹⁾.

صار هذا المفهوم شعارا على برنامج، بل على المنظور الاجتماعي الوظيفي إلى اللغة، وقاد إلى تحديدات مفهومية مختلفة ، وإن ظل جوهر النظرية. يمد فوندرليش Wunderlich من مؤسسي نظرية الفعل الاتصالي. المعنى المركزي في الكفاية الاتصالية هو الكفاية اللغوية الفردية. وتبدو الكفاية الاتصالية عنده قدرة فاعلة من الناحية اللغوية في نظام من التوقعات الاجتماعية والضبط الاجتماعي. ويعني هذا أداء المواقف الخطابية، والنطق بالاهتمامات، وإعادة تحديد العلاقات الاجتماعية⁽²⁾.

ويعرف بينتج Buenting الكفاية الاتصالية بالقدرة الإنسانية الشاملة على فهم الموقف الاتصالي بين أطراف الاتصال في إطار عوامل أخرى: كالزمان، والمكان، والعلاقات الاجتماعية، والعلاقات الخاصة بين أطراف

(1) Hymes, Dell: Sociolinguistics and the Ethnography of Speaking. In: Ardener, E. (ed.) : Social Anthropology and linguistics. Association of Social Anthropologists Monography 10, Tavistock-London (1971) pp 47-93, p. 48.

(2) Lewandowski, op. cit., S. 564.

الاتصال (أي الأدوار والأدوار المتوقعة)، ومقاصد هذه الأطراف، والقدرة على الفعل، وأداة الاتصال الموظفة لبلوغ الأهداف (الاستراتيجيات البلاغية die rhetorischen Strategien). يضرب بينتج على ذلك المثال التوضيحي التالي:

السيدة من ضيف في مطعم (الدور «سيدة» ينتج عن الإطار الاجتماعي. أما الدور «ضيف» ، فينتج عن إطار مؤسسي). هي تتوقع أن يأتي رجل لإزائها، يقوم على خدمتها في أدب (الدور المتوقع). وفقاً للأعراف العامة، ينبغي للنادل أن يبادر بالاعتذار. هذا يعني أنه يريد أن ينجز فعلاً اتصالها. وهدفه هو أن يطابق الدور المنتظر منه: أي أن يكون في الخدمة، مستعداً. أما وسائله، فهي:

♦ الانحناء (علامة على الطاعة، وافتتاحاً للفعل الاتصالي).

♦ إفصاحه اللغوي عما يطلب أكمله. وهو إفصاح يناسب الإطار المؤسسي (المطعم) وتوزيع الأدوار (نادل - ضيف).

في تأمل الكفاية الاتصالية هنا، ينبغي أن نعرف أن الاتصال طريق يقود إلى تغييرات وإلى علاقات بين أطراف الاتصال في جميع المراحل والمجالات المذكورة، كما يقود إلى تغييرات في الأوضاع التي يتحدث عنها الإنسان - من حيث المضمون - بمساعدة الوسائل الاتصالية، لاسيما الرموز اللغوية. من أجل ذلك، بحثت الكفاية الاتصالية على أنها القدرة على الفعل الرمزي بين الناس (القدرة على التفاعل الرمزي في إطار نظريات التفاعل)⁽¹⁾.

والكفاية الاتصالية عند باكيه Baacke هي القدرة على إنتاج أشكال متباينة من السلوك (اللغوي). ولا تستهدف هذه القدرة النقد والتغيير على نحو منطقي نزاعي فحسب، بل تستهدف أيضاً تأمين ما هو قائم موجود⁽²⁾.

ويبرز هابرماس Habermas فكرة صدور الأبنية اللغوية عن مواقف الخطاب الممكنة، وأن هذه الأبنية في خدمة الموقفية التداولية للتعبيرات اللغوية، وأن هذه الأبنية ترد إلى ما يسميه بالمعمومات أو الكلمات التداولية Pragmatische Universalien في كل موقف خطابي⁽³⁾.

(1) Baacke, op. cit., cit., SS. 236-238.

(2) Lewandowski, op. cit., S. 564.

(3) المرجع السابق ص 63.

ويعرف ديتمار Dittmar الكفاية الاتصالية بأنها قدرة الأفراد على أن يتصل أحدهم بالآخر في ظروف محددة موقفها ومعياريا: لغوية ونفسية واجتماعية وتداولية⁽¹⁾.

وتعني الكفاية الاتصالية عند سالزمان Salzman المعرفة بما يكون مناسباً أو غير مناسب لما يقال في سياق ثقلي اجتماعي بعينه⁽²⁾.

وتبدو المناسبة محور تعريف ليهانودوفسكي أيضا: فالكفاية الاتصالية عنده هي كفاية الاستخدام اللغوي، وهي القدرة على استخدام اللفظ. ولا تتضمن الكفاية الاتصالية المعرفة النحوية فحسب، بل تضم إليها أيضا معرفة المناسبة الاجتماعية والموقفية للأحداث اللغوية⁽³⁾.

ومهما يكن من أمر، فإن علاقة المواضع بين الرموز اللغوية ومرسباتها وبين سياق الاتصال هي جوهر التعريفات المختلفة للكفاية الاتصالية. وينبغي وضع هذا المفهوم في إطار مفهوم أوسع سكه هايمز هو «إثنوجرافيا الكلام Ethnography of Speaking» (١٩٦٢) من أجل وضع برنامج نظري لتحليل الواقعات الاتصالية في محيطها الثقلي تحليلا وظهفيا (أي مرتبطين بالسياق وديناميا (أي مرتبطين بالعملية الاتصالية)⁽⁴⁾. وكان هايمز قد جعل للوصف الإثنوجرافي مكونات اتصالية عدة، من أهمها: المشاركون في الاتصال، والموقف الاتصالي، وصيغة الاتصال، والحدث اللغوي، والموضوع، ووظيفة التفاعل. وتصلح هذه المكونات لأن تكون إطاراً وصفيا للبحوث في الكفاية الاتصالية للمتكلمين في إطار علم اللغة الاجتماعي⁽⁵⁾.

هذا، ويكتسب أفراد الجماعة الأصليون الكفاية الاتصالية اللغوية الاجتماعية في بطء وفي غير وعي. إنهم يكتسبون معرفة بالنظام اللغوي

(١) Dittmar, op. cit., p. 162.

(٢) Salzman, Zdenek: Language, Culture and Society: An Introduction to linguistic Anthropology, Westview Press-Oxford (1993) p. 271.

(٣) Lewandowski, op. cit., S. 563.

(٤) انظر لي تصل ذلك: محمد المهد (دكتور): المسألة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال، دار الفكر العربي (١٩٦٦م - ١٩٩٥م) ص ٥٥-٦٩.

(٥) رجع لي ذلك.

Arens, Hans et al.: Handbuch der linguistik: Allgemeine und angewandte Sprachwissenschaft, Nymphenburger Verlagshandlung (1987) S. 116.

المناسب، وإن لم يموا بالضرورة بالمعايير التي تقود سلوكهم اللغوي الاجتماعي. أما الواقدون إلى الجماعة: كالباحثين اللغويين الاجتماعيين، فإنهم أسرع في اكتشاف تلك المعايير وهم أقوى وعياً بها⁽¹⁾. ولا يجوز النظر إلى الكفاية الاتصالية على أنها تلقيح متأخر أو زرع في مزارع الطفل؛ فعلى العكس من ذلك، أظهرت معطيات متعلقة بالسنوات الأولى لاكتساب القواعد الإنجليزية أن الأولاد يطورون استعمال فوارق الشكل في شتى المواقف والمواضع. وفي الوقت الذي اكتشف فيه شاب أروكانى (Arawakan) من تشيلي قواعد الاستفهام في المنظومة اللغوية التي اكتسبها، اكتشف واقعة أن تكرار ملفوظ استهامي هو، من جانب المستمع، إهانة للمتكلم⁽²⁾.

(ب) الأسس النظرية للكفاية الاتصالية :

لم يأت تشومسكي بالكفاية اللغوية على وجهها من منظور المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي. بالكفاية اللغوية من منظور هذا المنهج أوسع من أن تقتصر على اختيار الأنماط وحسن سبك الجمل. الكفاية اللغوية من وجهة نظر أصحاب نظرية الكفاية الاتصالية في أن يناسب الاختيار الموقف الاتصالي والمقصد الاتصالي. هذا هو المقياس؛ ليتمت الأحكام عن حسن الصياغة الشكلية والدلالية أحكاماً ثابتة ومطلقة، ولكنها أحكام وليدة المواقف الاتصالية الاجتماعية المتغيرة.

وينطلق تحليل الأحداث اللغوية تحليلاً موقفاً من أسس نظرية عدة، لتوجز فيما يلي :

- 1- لا يمكن أن تحلّ بعض إشكاليات النحو الوصفية إلا بلم الدلالة، ولا يمكن أن تحلّ بعض إشكاليات علم الدلالة إلا بالتداولية.
- 2- يحول اختزال مجال اللغة في الوصف الشكلي الثابت دون عمل التصورات الإجرائية للاتصال برمته.

(1) Fishman, J. A: The sociology of language. in: pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context: Selected Readings, Penguin Books- England (1990) pp. 45-58, p. 49.

(2) غارمدي، حراييت: اللسانة الاجتماعية، عربيّة دكتور خليل أحمد خليل، دار الطلبة - بيروت ط (1990) ص 101.

- ٣- لا تفهم اللغة إلا في سياق السلوك الاجتماعي^(١).
- وكان غوندرليش (١٩٧٠) قد قيد إشكاليات سبعا تثيرها في النظرية اللغوية كصفاية المتكلم النحوية التي أغضت الاعتبارات التداولية :

 - ١- تثبت النتائج الراهنة للبحث اللغوي النفسي، أن ما يحدث في ذهن المتكلم عند صوغه منطوقاته، يفوق الصورة البسيطة التي رسمها الطراز النحوي التوليدي.
 - ٢- يتعلم الناس القوانين اللغوية مرتبطة بالمواقف والسياقات.
 - ٣- يكتسب المتكلمون القدرة على خلق مواقف لغوية تفاعلية جديدة كاملة.
 - ٤- لا يمكن أن تفسر مقولات الشخص والزمان والمكان التي هي من أطر الاتصال القائم على الحادثة في ظروف بعينها؛ لا يمكن أن تفسر تفسيراً ذا معنى إلا بالرجوع إلى ملازمات الموقف الكلامي.
 - ٥- عندما لا يطابق الكلام القواعد، فإن هذا لا ينال من حقيقة استقاء فهم الممانى من المواقف.
 - ٦- كثيراً ما لا يستتبع تفسير معنى المنطوق تفسيراً صحيحاً من بنيتة النحوية (كان تفسر الأحداث اللغوية بأنها التماسات أو تحضيضات .. أو غيرها عن طريق السياق).
 - ٧- من صفاية المتكلم التداولية أمثال منطوقاته لمقاصده الكامنة، وإدراك ما فيها من مخالقات، وطرحها إذا اقتضت الضرورة^(٢).

يكشف تتبع النظرية اللغوية الاجتماعية عن قيامها في جانب منها على النظرية اللغوية: الفونولوجية والنحوية، وقيامها في جانب آخر على نظرية اللغة في المواقف التي ترتبط فيها العناصر اللغوية بعوامل خارجة عن نطاق اللغة، وهي عوامل يفرضها السياق الموقفى.

(1) Dittmar, Norbert: Sociolinguistics: A Critical Survey of Theories and Applications. Athenäum Verlag GmbH, Frankfurt (1976) p. 161.

(2) Wunderlich, D.: Die Rolle der Pragmatik in der Linguistik, in: Der Deutschunterricht 22 (4) (1970) SS. 5-41, SS. 12-18.

في نظرية الكفاية الاتصالية عولجت المكونات اللغوية التي تعينها المواقف والأدوار. الحقيقة المقررة هنا أن كل كلام في تفاعل لغوي يحتل محيطه الفيزيائي، كما يحتل موقعه في سياق لغوي خاص، ويقيد بمحور بعينه، ويعتمد على الملابس النفسية المهمة (المقاصد و التوجهات) وعلى السمات الاجتماعية التي يتسم بها أولئك الذين يشغلون جانباً من المحاطبة (وضعهم في عملية الإنتاج، وأدوارهم). ويعني هذا وجود عوامل خارجة عن نطق اللفظ، تسهم في تنظيم عمليات التفاعل تنظيمياً لغوياً^(١١).

لأن الوجه في الكفاية الاتصالية أن الجانبين: النحوي والنفسي ليسا إلا بعض الجوانب التي ينبغي لهذا المفهوم أن يغطيها. يبين هذا المنظور أن حكم تشومسكي على المنطوقات بحسب الصحة النحوية أو المقبولية (وهما موازيان لكل من الكفاية والأداء) كان حكماً مبسطاً للغاية، وذلك أن المنطوقات لم تكن صحيحة نحويًا أو مقبولة فحسب، بل ينبغي لها أيضاً أن تقوم بمدى نجاحها ومناسبتها للسياق، وبالطريقة التي تكون بها مؤثرة بما هي أفعال، وهما تؤدي إليه من نتائج^(١٢).

من بين المكونات الضرورية في كل اتصال: الحديث اللغوي عند إرضين - قريه Ervin-Tripp والشفرة عند ديل هايمز. كل منهما مكون واحد فقط، ليربط وجوده وتعيين هيبته بمكونات العملية الاتصالية الأخرى، كالمشاركين، وقناة الاتصال، والواقعة الاتصالية ذاتها بأنواعها وملامحها المميزة على الجملة. إلخ^(١٣).

أخترت هذه المكونات الضرورية في المعرفة اللغوية الشكلية في قوانين التركيب الجملي من أجل ذلك، كان منظور هايمز وزملائه إلى الكفاية أوسع، لأنه ضم كفاية الشفرة وكفاية مستخدميهما. وهي ليست راسدة على منصوب بعينه، بل تتغير وتتوسع مع الأوضاع والمواقف التي يخوضها

(١١) انظر لي فصل ذلك: المرجع السابق ص ١٦٤

(١٢) المرجع نفسه ص ١٦٣.

(١٣) راجع لي ذلك:

المشاركون. الكفاية اللغوية عند الأشخاص مباشرة سلسلة من أنظمة المواجهات Encounters على مستويات نظر مختلفة. كذلك يراها هايمز⁽¹⁾. وكذلك تجعل إرفين - ترب تلك المكونات متغيرات تعدد تنوعات الأسلوب واختلافه عند المتكلم⁽²⁾.

وتستد الكفاية الاتصالية عند هايمز على ثلاثة مفاهيم جزئية

١- مفهوم المخزون اللغوي عند المتكلم (أي القدر من الكلام والأساليب المحددة تحديدا سياقيا).

٢- مفهوم المعاداة اللغوية أو الروتين اللغوي (أي تنظيم الحكي تنظيمًا يوميًا متصلًا، وتنظيم التفاعلات اللغوية - إلخ).

٣- المحيط الاجتماعي للسلوك اللغوي (أي استعمال التنوعات اللغوية استعمالًا محددًا تحديدا سياقيا) (كالتنوع أ في محيط الأسرة، والتنوع ب في بعض المؤسسات - إلخ).

تقاس الكفاية الاتصالية (والكفاية اللغوية الاجتماعية) - في ضوء هذه المفاهيم الثلاثة - بمقاس ذي مبدئين اثنين، حيث تدرج الأبعاد الأربعة (المفاهيم من ١ - ٣) على نحو رأسي وفقا لدرجات التحكم اللغوي الثلاث (التقيد، المرونة، التنوع). ويمكن - من هذا البعد - الإشارة إلى ثلاث درجات مختلفة للكفاية الاتصالية:

١- الكفاية الصغرى Minimal Competence: يعرف المتكلمون بمادة كلامية ما في محيط اجتماعي ما، من غير تغيير في المخزون أو الشفرة (مقيد restricted).

٢- الكفاية المتوسطة Average Competence: يتحكم المتكلمون في مجموعة من المعاداة الكلامية ليست واسعة ولا قليلة، وهم يتأدون هذه المعاداة في مجال محدد من مجالات المحيطات الاجتماعية المختلفة،

(1) Hymes, Dell: Models of the Interaction of Language and Social Life, in: John J. Gumperz and Dell: Hymes (eds.): Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication, Basil Blackwell, Oxford (1989) pp. 35 - 71, P. 53.

(2) انظر في تفصيل ذلك:

Ervin-Trapp, S.: Sociolinguistics, in: L. Berkowitz (ed.): Advances in Experimental Social Psychology 4, New York (1969) pp. 91- 165, pp. 121-139.

ويفيرون . تبع ذلك مخزونهم اللغوي (مرن Flexible).

٣- الكفاية الكبرى Maximal Competence: يغير المتكلمون عاداتهم اللغوية في محيطات اجتماعية عدة، ويفيرون مخزونهم اللغوي في سعة ويصر (متنوع Versatile)^(١).

في ضوء مفهوم « المخزون اللغوي » حاول فوندرليش الربط بين السلوك الكلامي وسلوك الدور، في نموذج الذي اطلق عليه اسم « الشفرة الكلامية » هي نظام لاستراتيجيات البلاغة والتأويل « The speech cods as a system of strategies of rhetoric and hermeneutic ». عرض في هذا النموذج لأبنية التنوع التي تقيد بشروط اجتماعية مادية وبالابنية العليا (كالمعايير الأيديولوجية، ونظم القيمة، وطرق تناول الأشياء...الخ). ويجعل فوندرليش البلاغة والتأويل من وظائف سلوك الدور. والتأويل عنده يعني الافتراضات التي يضعها المتكلمون في مجرى الاتصال^(٢).

(ج) الكفاية الاتصالية وتعلم اللغة :

عند اكتساب اللغة لا يتعلم الطفل الجمل فحسب، ولكنه يتعلم أيضا قواعد استعمالها في سياقات اجتماعية ثقافية. وقد نظر في حقل تعليم اللغات إلى الكفاية الاتصالية من حيث هي قدرة مركبة من القدرات الفرعية التي جعلها ليفاندوفسكي فيما يلي :

- ١- استنباط المعلومات وإعادة إنتاجها.
- ٢- فهم مواقف الكلام بحسب ما تتميز به من درجة العلانية والشكلية والبنية الحركية.
- ٣- الإسهام في الكلام ومعرفة إمكانات الأدوار الاجتماعية.
- ٤- تقويم تأثيرات الوسائل اللغوية والأحداث الكلامية.
- ٥- فهم متطلبات المشاركين في الاتصال ومشكلاتهم.
- ٦- التعبير الناجح سواء أكان تعبيراً لغوياً أم غير لغوي، وفقاً لمتطلبات المتكلم واهتماماته^(٣).

(١) Dittmar, Op. cit., pp. 163-164.

(٢) Wunderlich, op. cit., p. 319 . : تفصل تلك

(٣) Lewandowski, op. cit., S. 564.

٦- يتفاعل متعلمو اللغة مع متكلم اللغة المنشودة في الكشف عن نماذج اللغة في الأعراف الاجتماعية والثقافية والخطابية، التي تجعل الخطاب موائماً مواعمة تداولية Pragmatically appropriate. وإذا لم يستخدم المتعلم اللغة على نحو مناسب تداولياً، فإنه سيقع في خطر ظهوره في مظهر غير المتعاون، على الأقل^(١).

يعد المنهج الاتصالي أحدث مناهج تعليم اللغات. وقد استخدم هذا المنهج استخداماً واسعاً. ويعد في جانب واسع منه رد فعل على الاعتقاد بأن تعلم قواعد اللغة (نحو اللغة) يتيح القدرة على استعمالها. تنبئ التجارب الاتصالية هناك على أساس النظر إلى وظائف اللغة بوصفها واجبة التوكيد أكثر مما ينبغي أن تركز. صيغ اللغة (أي البنية النحوية الصحيحة والبنية الفونولوجية الصحيحة). يتميز هذا المنهج بالدروس الموجهة إلى مفاهيم مثل السؤال عن الأشياء، في سياقات اجتماعية مختلفة على نحو أقوى من تميزه بدروس عن صيغ الزمن الماضي، في جمل مختلفة. يرتبط هذا المنهج أيضاً بمحاولات عرض مواد أقوى مناسبة لتعليم اللغة غير الأم تعلمها إذا غاب عنها (مثل تعليم الإنجليزية للأغراض الطبية أو تعليم اليابانية لرجال الأعمال)^(٢).

ولا تكون كفاية متعلم اللغة الثانية بحال كفاية تامة. يذكر هنا بفطنة ابن خلدون إلى ما أسماه بـ «الملكة الناقصة المخدوشة». وهي كذلك عندنا إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل؛ كالملكة التي تحصل للعجمي بمدارسة اللسان العربي^(٣).

(د) المعايير النحوية والكفاية الاتصالية :

رأينا أن كفاية المتكلم/المستمع النحوية ليست إلا مكوناً واحداً فقط من المكونات التي تمكنه من الاتصال، وأن الكفاية الاتصالية أوسع من أن تقتصر على الكفاية اللغوية أو النحوية. إن الكفاية الاتصالية للمتكلم/المستمع في فعل وسبلته اللغوية وتوافق خطابه مع السلوك اللغوي المتزوج

(١) Harig, K.B. et al., : Developing Pragmatic Awareness, in : ELT Journal, Vol., 45/1 January (1991) Oxford Uni. Press, p 4

(٢) Yule, George: The Study of Language, An Introduction, Cambridge Uni Press (1996) p 154 .

والمطابق في ارتباطه بالمكونات الاجتماعية والموقفية والنفسية لمسياق اتصالي اجتماعي بعينه. من أجل ذلك، يتوقع نشوب صراع بين المعايير النحوية والمعايير الاتصالية. يمكن أن نجد ذلك مثلاً في متوالية السؤال/ الإجابة. تكون الإجابة عن السؤال صحيحة نحويًا ولكنها غير مالوفة، أو هي منحرفة عن حدود قواعد الخطاب المعتادة :

أ : ما هذا ؟

ب : هذا {
إنه كرسى

أ - أ : أين الآلة الكتابية ؟

ب : الآلة الكتابية في الدولاب.

من الأمور الملحوظة في وصف بنية التفاعل اللغوي أن حدوث المتكلمين بمتواليات الوحدات التفاعلية السائفة أضعف من حدوثهم بمتواليات الوحدات النحوية التي تسمح بها القواعد. يرجع كالكالارد Couthard ومونتجمري Montgomery ذلك إلى أن ما بذل من جهد في دراسة بنية التفاعل ضئيل نسبيًا⁽¹⁾. وعلى رغم صحة هذه المقولة في ذاتها، فهي ليست محددة سبب ذلك يرجع السبب الجوهرى - فيما نرى - إلى تشابه مكونات الكفافية الاتصالية وتعقد العلاقات فيما بينها. العوامل والاعتبارات التداولية التي تستلزم مما يتاح لجميع المتكلمين باللفة مجانًا. يعمم النحو قواعد اللفة مما يهضّم الحدس بالصحة أو المقبولية، ولكن قواعد الاتصال مما تحوج إلى ما أسماء ابن خلدون بالنوق، أو ما أسماء بولر بالتوافق الخطابي. ولا يتاح للمتكلم السليق شيء من ذلك إلا بطول التجربة والخبرة بمتطلبات العمليات الاتصالية المتوقعة.

كان من أخطر ما وجه إلى الكفافية اللغوية من انتقادات، أن يكون اللطوق متممًا بصحته النحوية، ولكنه يعجز في موقفه الاتصالي الاجتماعي عن أن يبلغ وظيفته. من ثم، أخذت الكفافية الاتصالية على عاتقها النظرة الوظيفية؛ أي كيفية تحقق الوظائف والمقاصد من خلال وضع العلامات

(1) Couthard L. Montgomery. op. cit. p. 82.

المفوية في سياقاتها الاتصالية الاجتماعية المناسبة. وقد مرّت العرب بشيء من هذا وشت روايته. من ذلك مثلا ما وقع في كلام بشر بن المنتمر: «والمنعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يثضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال. وما يجب لكل مقام من المقال»^(١١).

في حالات كثيرة يقع الصراع بين المعايير النحوية والمعايير الاتصالية، سواء في خطاب المواجهة أم غيره، وسواء في متواليات السؤال/الإجابة أم في غيرها. من ذلك مثلا ما رواه سيبويه (ت ١٨٠هـ) قال: «حدثنا من نثق به أن بعض العرب قبل له: أما بمكان كذا وكذا وجدأ؟ (والوجد موضع يمسك الماء) فقال: بلى وجدأ، أي أعرف بها وجدأ»^(١٢). عدّ النصب مقبولا لعلم المخاطب وقدرته على التقدير، وهو معيار اتصالي تداولي.

ويضاف علم السامع إلى الأثر الإنجازي ليكونا سببين للخروج عن الأصل التركيبي. ومن ذلك ما نراه في باب «الإضمار على شريطة التفسير». ومن أمثلة عبد القاهر الجرجاني (ت ١٧١هـ) على هذا قول الباحثي:

لو شئت لم تقصد سماحة حاتم ككرما، ولم تهتم مآثر خالد

قال: «الأصل لا معالة: لو شئت ألا تقصد سماحة حاتم لم تقصدها، ثم حذف ذلك من الأول استثناء بدلالته في الثاني عليه ... فلا يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله، فضلت: «لو شئت ألا تقصد سماحة حاتم لم تقصدها، صرت إلى كلام غث، وإلى شيء يمجس السمع، وتعافه النفس. وذلك أن في البيان، إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له، أبدا لطفًا ونبلًا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحركه».

وأنت إذا قلت «لو شئت» علم السامع أنك قد علقت هذه المشبهة في المعنى بشيء، فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئًا تقتضي مشيئته له أن يكون أو أن لا يكون. فإذا قلت: «لم تقصد سماحة حاتم»، عرف ذلك المرجع - فيما يبدو -

(١١) لاحظ (المؤلف عند ص ١٠٠) لهذا وتبين، لطيف عبد سلام محمد منور، مكتبة الخالفي مصر (١٩٩٥م) ١٣٦، ١٠٠.

(١٢) من نحو (الروائع ص ١٠٠) خصص، لطيف محمد علي لبحر، دار الكتب - الطبعة الثالثة بيروت (١٩٧٣هـ) ١٢٩ - (١٩٨٣م) ١٢٩.

إلى الكفاية الاتصالية في ذكر مفعول المشينة أو حذفه. إذا كان الأمر عظيماً الأحسن أن يذكر مفعول «المشينة» ولا يضم. يقول الرجل يخبر عن عزة: «لو شئت أن أرد على الأمير رددت» و«لو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم لقيته». فإذا لم يمكن الأمر مما يكبره السامع، فالحذف كقولك: «لو شئت خرجت» و«لو شئت قمت» ... إلخ^(١).

ومن آليات التأويل النحوي عند سيبويه مفهوم «سمة الكلام». وقد لجأ إليه سيبويه في كثير من الحالات. من هذه الحالات «القلب» في مثل أدخل فوه الحجر: قال سيبويه: «وأما قوله: أدخل فوه الحجر، فهذا جرى على سمة الكلام لوالجيد أدخل فاه الحجر، كما قال: أدخلت في رأسي القلنسوة، لوالجيد أدخلت في القلنسوة رأسي»^(٢). وليست سمة الكلام إلا معيار اتصالها تمكّل عليه كفاية المتكلم الاتصالية على علم منها بأن كفاية المستمع سوف تكشف بالاستدلال العقلي ما في العبارة من قلب.

يظهر عبد القاهر وعيا بالمعايير الاتصالية في كلامه عن متواليات السؤال/ الإجابة. يستقيم عنده أن يقال: «صالح» وفي الدار» في الإجابة عن السؤالين: «كيف زيد؟» و«أين هو؟». وينفي عبد القاهر أن يظن بأن لا صحة للإجابة حتى نقول: «إنه صالح»، و«إنه في الدار». ويرى أن ذلك مالا يقوله أحد^(٣).

ويقول ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ): «هذا هو القياس: ألا يجوز حذف الحروف ولا زيادتها. ومع ذلك فقد حذفت تارة، وزيّدت أخرى»^(٤). يمكن أن ينظر إلى هذه المقولة لابن جنّي في ضوء الصراع بين المعايير النحوية والمعايير الاتصالية الواقعية. كان رؤية معتادا - فيما نقل ابن جنّي - أن يقول إذا سئل: كيف أصبحت؟ «خير عافاك (أي بخير)». ونقل ابن جنّي أيضا عن سيبويه حكايته: الله لا أفضل، يريد والله^(٥). فسر أبو الفتح الحذف في مثل ذلك تفسيراً لغوياً

(١) المرجع السابق ص ١٦٥.

(٢) سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر): الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - دار الكتب العلمية، بيروت ومكتبة الخليلي بالعمرة، ط ٢ (١٠٨هـ - ١٩٨٨م) ١/١٨١.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٦.

(٤) المحلص ٢/ ٢٨٠.

(٥) المرجع السابق ١/ ٢٨٠ - ٢٨١.

تدويع . فقال : «أما عدد حروف هذه الحروف فلقوة المعرفة بالموضوع»^(١)
 «خروج عن الأصل فيما سبق مقاسر بمعايير اتصالية تداولية. ويظهر ذلك
 أن نحوية الكفافية الاتصالية تبدو للحنث النحوي العربي حبيبا جاء على
 فاقته . وأنها مما ينبغي له أن يعرض عليه بالتواجد حتى لا يذهب في السمهي !
 (هـ) الكفافية الاتصالية والفشل اللغوي التداولي :

تقاس قوة الكفافية الاتصالية بالوعي التداولي الذي يتميز به المتكلم
 والذي يجعل منطوقه ناجعا في سياقه الاتصالي. من مظاهر هذه القوة أن يمي
 المتكلم أن إعلامه الشيء بفتة ليس مثل إعلامه له بعد التبييه عليه والتقدمة
 له. قال عبد القاهر الذي اعتمدنا كلامه هنا مثلا على ما نريد : «.....لأن
 ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام . في التأكيد والإحكام»^(٢) . في الوعد
 والضمان يحسن أن يقال: «أنا أعطيك، أنا أكثيك، أنا أقوم بهذا الأمر»
 وذلك . كما يقول عبد القاهر . أن من شأن من تعدد وتضمن له أن يمترضه
 الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به فهو من أحوج شيء إلى التوكيد»^(٣) .

ومن مظاهر هذه القوة أيضا نوع الربط الذي يختاره المتكلم لمنطوقاته في
 سياقاتها الاتصالية الخاصة. يمي المتكلم هنا بكيفية استقبال المخاطب
 للمنطوقات ، حتى يختار للربط فيما بينها الربط المنطقي مثلا. من ذلك أن
 يدعى المتكلم على المخاطب ظنا لم يظنه ، ولكن يراد التهكم به. يمكن
 أن نضرب مثلا على ذلك قول حجل بن نضلة :

جاء شقيق عارضنا رمعه إن بني عمك فيهم رمأح
 قال عبد القاهر في تأويل البيت: يقول : إن مجيئه هكذا مُدلا بنفسه
 وشجاعته قد وضع رمعه عَرَضًا ، دليل على إعجاب شديد ، وعلى اعتقاد
 منه أنه لا يقوم له أحد . حتى كان ليس مع أحد منا رمع يدفمه به ، وكاننا
 كلنا عزل . وإذا كان كذلك ، يجب إذا قيل إنها جواب سائل ، أن يشترط فيه
 أن يكون للسائل ظن في المسئول عنه على خلاف ما أنت تجيبه به . فاما أن
 يجعل مجرد الجواب أصلا فيه فلا»^(٤) .

(١) ترجع ص ٢٨٤ .

(٢) دلائل الإحصار ص ١٠٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٤) ترجع السابق ص ١٣٦ .

في ضوء مبادئ نظرية الكفافية الاتصالية (التداولية) نهضت محاولات عدة لاستشراف آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. نحل من أهمها أفق اختيار المناسبة الوظيفية والموقفية للمنطوقات الصحيحة نحويًا. لوحظ أن المنطوق يتمتع بحسن السبك، ومع هذا يبدو ملتبسًا وظليفيًا أو نافرًا سياقياً. وقف باحثون على هذا المشكل، من أبرزهم رون وايت Ron White أجرى وايت دراسة تطبيقية للكشف عن هذا المشكل في علاقته باستخدام «من فضلك» عند الناطقين بالإنجليزية من اليابانيين. كان من أهدافه الكبرى تحديد قوانين الأحداث الكلامية التي تطبق في الاتصال بين الثقافات. يمكن لنا أن نعرض الأفكار الجوهرية والنتائج المهمة لدراسته فيما يلي :

1- تم ظاهرة التادب جميع الثقافات واللغات؛ ولكن التعبير عنها يتخذ طرقًا شتى؛ مما أوحى إلى بعضهم أن تعلم التادب وثيق العرى باكتساب اللغة الأم.

2- من مشكلات الاتصال بين الثقافات، أن تحوّل أعراف التادب في لغة إلى لغة أخرى. ولا يتعلق هذا المشكل بأسباب لغوية، إنما يتعلق بالأخرى بأسباب لغوية تداولية؛ وكان يستعمل المتكلم صيغة لغوية لا توافق مقصده، فيضطلع الأمر على المستمع. فإن كان الاختلاط وقتها خف الضرر، وإن تكرر وطال أمده فكانت نتائجه أخطر. ويبدو الأمر مختلفًا مع الاتصال بين الثقافات؛ فما القوانين التي تطبق في التفسير عندما يقترب مستخدم الإنجليزية غير الأصلي - عن غير عمد - خطأ لغويًا تداوليًا؟⁽¹⁾

3- يبدو استعمال «من فضلك» علامة على التادب أكثر خداعًا مما يتصور المرء. لوحظ أن محاولة الظهور بمظهر أكثر تادبًا، تقوم المتكلم (غير الأصلي) إلى إقحام «من فضلك» في خطابه أناسًا أرفع منه اجتماعيًا. ترتبط علة المشكل - في نظر وايت - بإقحام «من فضلك» على ما قصد به أن يكون عرضًا Offer. بمباراة أخرى يحول المتكلمون غير الأصليين - دون قصد - المرض (وهو حاصل ما يكون عادة لمصلحة المستمع) إلى التماس (وهو حاصل ما يكون عادة لمصلحة المتكلم).

(1) White, Ron Saying Please Pragmalinguistic Failure in English Interaction, EL T Journal, Vol 47/3-July (1993), Oxford Uni Press (1993) pp. 193-202.

وهذا من انتهاك قوانين الحدث اللغوي⁽¹¹⁾

١- العلامة المميزة بين ما يمكن أن يفسر بأنه حدث توجيهي وما يفهم على أنه التماس، هي استعمال «من فضلك». المعلم الذي يحاول أن يمارس عمله في غرفة المعلمين، سوف يوجه زملاءه إلى أن يهدوا إذا قال :

♦ اخفضوا أصواتكم !

أما إذا استخدم أسلوب الاستفهام، وكان منطوقه أدنى إلى أن يفسر بأنه التماس من أن يفسر بأنه توجيه (وإن كان طلبه إلى زملائه أن يخفضوا أصواتهم يناسب الحالين كليهما) :

♦ هل يمكنكم أن تخفضوا أصواتكم ؟

فيذا أضيفت «من فضلك» زال اللبس عن وظيفة الاتماس في المنطوق المتكلم:

♦ هل يمكنكم أن تخفضوا أصواتكم من فضلكم ؟

ومثل ذلك أن تضاف «من فضلك» إلى حدث أمري، فتجعل المنطوق التماساً لا توجيهياً :

♦ اخفضوا أصواتكم من فضلكم !

تستخدم «من فضلك» - كما تبين هذه الأمثلة - لتلطيف قوة المنطوق.

ويتفق وايت مع ستوبس Stubbs في أن الوظيفة الوحيدة لـ «من فضلك» هي أنها علامة على التأديب أو التلطف، وأنها تتعامل بالضرورة⁽¹²⁾.

يضع وايت قيماً على الحدث اللغوي الذي يمكن أن تقع معه «من

(11) حدد جون سيرل (1975) شروطاً خمسة لجعل الحدث اللغوي التماساً :

- (أ) لغير المستمع على أداء الفعل .
 - (ب) إرادة المتكلم في أن يؤدي المستمع الفعل .
 - (ج) تلبية المستمع للفعل .
 - (د) رغبة في الفعل .
 - (هـ) أسباب تلبية الفعل .
- راجع وايت ص 191

(12) يقول ستوبس «بعض منزهة وضعية» ، وذلك لأن وظيفتها الوحيدة هي أنها علامة على التأديب أو التلطف وليست

في أي حصة مرصومة . «ممن نسبت من أي شيء» ما ، ولذا كانت طبيعة خالفة المنطوق إلى حد بعيد »
 Stubbs, Michael Discourse Analysis, The Sociolinguistic Analysis Of Natural Language, Basil Blackwell, Oxford (1989) p. 72

فضلك. هي تقع مع جملة ثقيل أن تفسر بانها التماس، و لا تقع مع منطوقات تقبل أن تفسر بانها تليغات أو وعود أو عروض أو دعوات أو تهديدات^(١).

٥- يظهر الفشل اللغوي التداولي فيما انتهى إليه وايت، في دراسته التطبيقية في أشكال عدة، هي :

(١) أن يستخدم المتكلم من فضلك، التي للالتماس في منطوقات يعطى فيها توجيهات إلى المستمع، نحو :

من فضلك، خذ المنفذ الغربي ثم در يمينا. من فضلك انزل أسفل كويري السكة الحديدية في وصف كيفية الوصول إلى مطعم بعينه). هنا لا يلتصق المتكلم من المستمع أن يتخذ المنفذ الغربي ولا أن ينزل أسفل الكويري، بل يعطي توجيهاته إلى المستمع، حتى يفعل هذا. الإبلاغ هنا لمنفعة المستمع لا المتكلم. وهنا تحدد قدرة المستمع على أداء الفعل باستقبال المستمع توجيهات المتكلم.

المتكلم	
صيغة المنطوق	الوظيفة المقصودة
التماس: من فضلك خذ المخرج الغربي	إعطاء توجيهات
المستمع	
الصيغة المتوقعة	الوظيفة المفترضة
أمر: اخذ المخرج الغربي	إعطاء توجيهات

الوظائف المقصودة والوظائف المفترضة

يلحظ وايت - ونشاركه ملحوظته - أن المتكلم باستعماله من فضلك، يوقع المستمع في حيص بيص؛ وذلك أن صيغة المنطوق السطحية هي صيغة الالتماس، ولكن الوظيفة المفترضة هي إعطاء توجيهات. من هنا يستقبل المستمع رسالة محرقة Garbled Message.

(١) White, op. cit., p. 195.

يعر المستمع بالطبع أن المتكلم مؤدب، ولكن هذا الوعي ذاته لن يمنع الاستماع من الشعور - سوجا ما - بعدم الراحة؛ لأن ورود «من فضلك» مع الأمر، يستحضر أحد الشروط التي تحكم الالتماس، وهو رغبة المتكلم في أن يؤدي المستمع الفعل، ولأن المتكلم - في هذه الحالة - يقود المستمع. من أجل ذلك، يبدو التوتر الناتج عن استعمال «من فضلك» أبلغ أهمية. وبناء على ذلك، يعد المتكلم فاشلاً فشلاً لغوياً تداولياً؛ لأنه خلق توتراً فيما كان مقصوداً به أن يكون حدثاً ودياً friendly act؛ وهو تقديم توجيهات إلى كيفية الوصول إلى مطعم قريب من منزل المستمع. وقد نتج التوتر عن الفشل في تحقيق المطابقة بين الصيغة والوظيفة، مما أدى إلى مشكلة اتصالية.

أما متكلم اللغة الأصلي native، فسوف يستعمل الأمر مستقنياً عن «من فضلك».

(ب) وقد ينشأ الفشل اللغوي التداولي من وضع «من فضلك» في منطوق لا يقبل أن يفسر بأنه توصية أو التماس، كقول المتكلم :

♦ تقعد عملية التخزين في المقار الجديد ، من فضلك !

ونرى هذا في موقف اتصالى يتساوى فيه المتكلم والمستمع في المكانة من ناحية ويظهر فيه المستمع من ناحية أخرى رغبته في أن يؤدي هذا الفعل ألفياً. يجد المستمع آنذاك في التماس المتكلم هجوماً زائداً؛ لأن أداء الفعل كان من برنامجه، ولم يكن جزءاً من رغبة متضمنة في التماس المتكلم. في هذه الحال، ينشأ توتر عن سوء استعمال «من فضلك»، ويؤدي إلى مشكلة اتصالية وإلى فشل لغوي تداولي.

في مثل هذا الموقف يقول ابن اللغة شيئاً نحو :

♦ إذن ، لا تنس أن تقعد عملية التخزين.

(ج) وفي موقف اتصالى آخر، كان المتكلم أقل منزلة من المستمع، وكانا غادرا المكتب إلى السوق يشتري بعض الأغراض المنزلية. وفي العودة إلى المكتب، فسر المتكلم في أن يشتري بعض الأشياء لمكتبه . فقال للمستمع :

♦ ساشترى بعض الأشياء من هنا. من فضلك عد أنت إلى المكتب !
يجعل رون وايت منطوق المتكلم ملحوظة خاطئة؛ وذلك أن المتكلم افترض أن المستمع يرغب (أو يختار) أن يؤدي الفعل المطلوب. أسن هنا مراعاة الوضع Status الذي يفصل بين المستمع والمتكلم؛ فالمتكلم ليس من مكانة توهله لأن يعبر عن رغبته، أو أن يفرض هذه الرغبة على المستمع في أداء فعل بعينه. إنه في مكانة عرض اقتراح بأن يكون الإذن للمستمع أن يعود إلى مكتبه، وأن يشتري هو بعض الأشياء. يتوقع هنا أن يكون نهج المتكلم السليقي بالإنجليزية هو استعمال الأمر مستفنيا عن «من فضلك» :

♦ لا تقعد نفسك بي !

♦ لا تزعج نفسك بانتظاري !

يضع هذا الأمر المستمع - لا المتكلم - في وضع المستفيد. أما الالتماس، فهو - كما علمنا - لمصلحة المتكلم من حيث إنه حقا المستفيد.

وإذا كان قصد المتكلم بأداء الفعل إلى مصلحة المستمع أعظم من قصده إلى مصلحته، وأن يكون متعاوناً معه، فإن إبانته عن مقصده لم تبلغ الوضوح. من ثم كانت هذه الحالة من حالات الفشل اللغوي التداولي.

(د) في هذه الحالة يُعرض المتكلم الموقف الاتصالي للبس؛ وذلك بأن يلتبس من المستمع أداء فعل أعرب المستمع عن رغبته في أن يؤديه من قبل :

المستمع إلى المتكلم : يمكنني أن آخذ هذه الآلة إلى الدور الأرضي

المتكلم إلى المستمع : بلى. من فضلك خذها إلى الدور الأرضي

يعطي التماس المتكلم انطباعاً بأنه أساء التحكم على معرفة المستمع بالعالم وعلى ذكائه. يرى وايت أن ما رغب المتكلم في أدائه، كان من أجل إثبات قدرة المستمع على أن يأخذ الآلة إلى الدور الأرضي. ويتوقع هنا أن يقول المتكلم الأصلي :

♦ بلى، يمكنكك أن تأخذها إلى الدور الأرضي.

♦ بلى، هذه الآلة تنزل إلى الدور الأرضي.

♦ بلى، يمكنكك.

إن استعمال المتكلم الأمر في صيغة «من فضلك» قد عرض الموقف للبس لا الإيضاح. من ثم عُدَّت هذه الحالة من حالات الفشل اللغوي التداولي^(١١).

(هـ) لم يكن الموقف الاتصالي السابق موقفاً علنياً؛ لأنه ضم شخصين اثنين فقط ولم تكن هناك أطراف أخرى. في هذا الموقف يبدو الفشل اللغوي التداولي في هيئة ارتباك. يقدم المتكلم - وهو رئيس الجلسة - ضيفه في مؤتمر أو في حلقة بحث قائلاً:

♦ الأستاذ س، من فضلك ابدأ كلامك!

يبدو الفشل اللغوي التداولي هنا في التماس المقدم من ضيفه أن يبدأ كلامه في الوقت الذي لا يصلح فيه مع مثل هذا الحدث اللغوي أن يكون التماساً أو إصدار تعليمات. إنه حدث دعوة؛ لأن المتكلم يدعو ضيفه - على نحو رسمي - إلى أن يأخذ دوره ليس الالتماس ولا إصدار تعليم الحدث اللغوي المناسب لأداء هذه الوظيفة. هذا نوع من فقدان المناسبة Inappropriateness. يرجع هذا إلى استعمال «من فضلك» في حدث دعوة؛ أي استعمالها في حدث لا يمكن أن تستعمل فيه. يتوقع في مثل هذا الموقف، أن يقول المتكلم المقدم شيئاً نحو:

♦ الآن أود أن أدعو الأستاذ س ليعتدنا عن ...

♦ والأبن عظيم السرور أدعو الأستاذ س إلى أن يبدأ كلامه عن ...

♦ الأستاذ س، يسمحني سمادة بالفة أن نستهل حلقة البحث ببحثكم عن أساء المتكلم المقدم استعمال «من فضلك»؛ لأنه لم يحقق الموامة بين مقصده وتأثير كلماته. وإذا كان يرى في استعماله «من فضلك» نوع نادب، فإن المستمعين يرون في ذلك نوع تكلف أو مصانعة^(١٢).

لم يكن استعمال «من فضلك» فيما سبق موائماً أنواع الأحداث اللغوية في تلك المواقف الاتصالية.

(١١) يرجع لستون ص ١٩٨

(١٢) يرجع لستون ص ١٩٩

لم يحقق المتكلم الموازنة بين مقصده وصوغ منطوقه. وكان أداء الفعل المشار إليه في منطوق المتكلم لمصلحة المستمع لا المتكلم، على رغم أن المنطوق الذي يأخذ صيغة الالتماس، تعود الصلحة فيه إلى المتكلم. وإذا كان المستمع قادراً - في تلك المواقف - على تفسير مقصد المتكلم وأنه قصد أداء فعل بعينه، فإنه لا يمكن تجاهل أثر فقدان الموازنة في خلق شعور التوتر والاضطراب في نفس المستمع، وربما أدى إلى سخطة وتكدير صفو علاقته الخطابية بالمتكلم.

ينبغي ما تقدم إلى حقيقة جوهرية: هي وجوب العناية بالاستعمال الاتصالي للصفة اللغوية، لا الوقوف عند الصيغة في ذاتها. لا يكفي هنا مثلاً أن نعلم المتعلمين أن من فضلكه علامة تادب، أو أن أفعلًا مثل ميممكن، وميقدره ونحوها مما يستخدم لتخفيف المعنى، أو أن هناك عبارات موروثة ليسط العلاقات الاجتماعية في مناسبات خاصة. ليست لهذه المعرفة اللغوية في ذاتها أهمية، وإنما ينبغي أن تختبر من خلال المقام. ويتضمن الأخذ بالمقام Contextualization إدراك الشروط التي تستخدم فيها مثل تلك التلمييزات لبناء التفاعل وتنظيمه وتوجيهه.

(و) الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية في موقف الإنشاد :

رأينا أن الكفاية الاتصالية هي القدرة على استعمال اللغة في تفاعل اجتماعي يوائم فيه بين المنطوقات والمقاصد وسياق الاتصال. ولا تبني الكفاية الاتصالية على أساس مكونات المعرفة النحوية فحسب، ولكنها تبني أيضاً على أساس معرفة وجوه التناسب الاجتماعي والموقفي للأحداث اللغوية. ويكتسب الناس آليات تمكن من تحقيق قوانين الخطاب، ويجرون على منحنى أعراف تصنع خلفيات سلوكهم اللغوي. من ثم، عد الخروج على ذلك كله فشلاً لغوياً تداولياً.

من أعراف الخطاب في المجتمع العربي مثلاً، ألا تخاطب الملوك بأسمائها أعظماً لها؛ يقول ابن جنّي: «وذلك أن أصغر الناس قدراً قد يخاطب أكبر الملوك محلاً بالكفاف من غير احتشام منه، ولا إنكار عليه. وذلك نحو قول التابع الصغير للسيد الخطير: قد خاطبت ذلك الرجل، واشترت تينك

الفرسيين، ونطرت إلى ذينك الغلامين، فيخطب صاحب الأكبر بالكاف، وليس الكلام شعرا فتحتمل له جراءة الخطاب فيه، كقوليه: لقينا بك الأسد، وسألنا منك البحر، وأنت السيد القادر، ونحو ذلك وعلّة جواز ذلك عندي أنه إنما لم يخاطب الملوك بأسمائها إعظاما لها؛ إذ كان الاسم دليل المعنى، وجاريا في أكثر الاستعمال مجراه، حتى دعا ذلك قوما إلى أن زعموا أن الاسم هو المسمى، فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تجاهوا وتجانفوا عن ابتدال أسمائهم التي هي شواهدهم، وأدلة عليهم، إلى الكناية بلفظ القبيّة، فقالوا: إن رأى الملك آدم الله علوه، ونسأله حرس الله ملكه، ونحو ذلك، وتحاموا؛ إن رأيت، ونحن نسألك، لما ذكرناه^(١).

تشهد مصادر نقد الشعر العربي على أن نقاد الشعر العربي، قد فطنوا إلى اعتبارات ومعايير اتصالية تداولية مهمة، ينبني للخطاب الشعري - لاسيما في مواقف الإنشاد العلنية - أن يراعيها، وإلا سقط الشاعر ضحية فشله اللغوي الاتصالي الاجتماعي مهما كانت كفايته اللغوية الخالصة. من علل حسن الشعر وقبول الفهم إيابه عند ابن طباطبا (ت ٢٢٢هـ): «موافقته للعال التي يمد معناه لها؛ كالمدح في حال المفاخرة، وحضور من يكتب بإنشاده من الأعداء، ومن يسرّ به من الأولياء»^(٢). ويبدو مبحث (مفتح الشعر) عنده مثلا دالا على سبق النقاد العرب المتقدمين إلى الوعي بدور المعايير الاتصالية التداولية في تقويم الوظائف الاجتماعية والجمالية للخطاب الشعري وما قاله ابن طباطبا ترك صدهاء بين النقاد ومؤرخي الأدب بعده، فنقلوا عنه، وجملوا ملحوظاته من محددات التمايز في صناعة الشعر. من هؤلاء مثلا أبو عبد الله المرزباني (ت ٤٨٤هـ)^(٣) وأبو هلال المسكوري (ت بعد عام ٤٠٠هـ)^(٤). يذكر هؤلاء الثلاثة: ابن طباطبا والمرزباني وأبو هلال المسكوري طائفة

(١) الخصاص، بتحقيق محمد علي النصار ١٨٨/٢.

(٢) ابن طباطبا (أبو الحسن محمد أحمد): «مفتاح الشعر»، شرح وتعليق عباس عبد الستار، مراجعة نعيم زرزور، طبع المكتبة العلمية - بيروت ١٩٠٢هـ - ١٩٨٢م) ص ٢٢.

(٣) نظير: المرزباني (أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى) المرشح، تحقيق علي محمد الحياوي، دار الفكر العربي - القاهرة، د ٢٠١٢ وما بعدها.

(٤) انظر: المسكوري (أبو هلال الحسن بن عبد الملك): كتاب الصناعين، تحقيق علي محمد الحياوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - بيروت (١٤٠٠هـ - ١٩٨٦) ص ٢٣١ وما بعدها.

من مطالع قصائد الدح ونحوها. هذه المطالع التي لم يحتز فيها أصحابها مما يستجنى من الكلام والمخاطبات. ويمكن أن نعيد تصنيف تلك المطالع في إطار ما ترتبط به من عوامل الموقف الاتصالي، على النحو التالي :

١- مراعاة مكان الاتصال :

والمكان هنا بمعنى الاجتماع لا الإقليمي. نغنى هنا الأماكن الاجتماعية: كالمكتب؛ والشارع، والبلاط الملكي، ونحوها. ينبغي لنا هنا أن نعرف إن كان المكان اختير اختياراً عشوائياً أو اختياراً عن قصد، وإن كان محايداً أم خاصاً، وما قد يرتبط بذلك من أهميته الاجتماعية عند أطراف الموقف الاتصالي وعلاقته بموضوع الكلام.

من ذلك مثلاً ما بروى أن المتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسية، جلس فيه، وجمع الناس من أهله وأصحابه. وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج، وجعل سريريه في الإيوان المنقوش بالفسيفساء الذي كان في صدره صورة النقاء، فجلس على سرير مرصع بأنواع الجواهر، وجعل على رأسه التاج الذي فيه الدرة اليتيمة. وفي الإيوان أسرة ابنوس عن يمينه وعن يساره، من عند السرير الذي عليه المتصم إلى باب الإيوان، فكلما دخل رجل رثبه هو بنفسه في الموضع الذي يراه، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم^(١).

في مثل هذا المكان وملابساته يقبل أن تطرح موضوعات بعينها في كينفيات خاصة، كما ينبغي تجنب الكلام في موضوعات أخرى مهما أوتى المتكلم من علم بالملل. في هذه الحال لا يليق أن يجمل إسحاق بن إبراهيم مطلع قصيدته هكذا :

يا دار غمرك الهلس فمحاك يا لهيت شمري ما الذي أهلاك؟

عندما ينشد مثل هذا المطلع في مكان هذه صفته، لن يكون تقاعل الحضور معه إلا أن تطير المتصم، وتفاخر الناس، وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك^(٢). قال أبو محمد أحد من شهد

(١) المرجع السابق ١٣٢

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٦

اليوم: «ما قمنا يوماً هذا» وانصرفنا. فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس،
 وخرج المتعمص إلى سر من رأى. وخرب القصر^(١)
 وكذلك كانت وجوه التفاعل مع مبادئ قصائد أخرى: كتابتداء قول
 الأعمش:

ما بكاء الكبير بالأطلال وموالي وهل تردّ سوالي
 دمنة قفزة تماورها الصب ف بريحين من صبا وشمال
 وقول أبي نواس:
 أرى البلى إن الخشوع لبادى عليك وإنسى لم أخلك وداى
 فقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي قوله. وتطهر منه. فلما انتهى أبو
 نواس إلى قوله:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتُم بنى برمك من رائحين وغداى
 استحكمت تطيره. يقال إنه لم ينقض إلا أسبوع حتى نزلت به النازلة^(٢).

٢- مراعاة حال المخاطب:

وذلك في كل ما له بالخطاب علاقة: ككاسمه أو اسم أحد من أهله،
 وعمره وخلقه وخلقته وعمله، والوضع الذي يكون عليه المخاطب: جسمانيا
 كان أم نفسيا أم عقليا. من الأمثلة على ذلك ما روى أن أوطاة بن سُهوية المرى
 دخل على عبد الملك بن مروان، وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة وقال بعضهم
 ثلاثون ومائة سنة، فقال له عبد الملك: ما بقى من شعرك يا ابن سهية؟ فقال:
 والله ما أشرب، ولا أطرب، ولا أغضب، ولا يجن الشعر إلا على مثل هذه
 الحال. وقال بعضهم: إلا مع إحدى هذه الخلال - وإنى على ذلك للذي أقول:

رايت المرء تأكله اللهيالي كما كسل الأرض مساقطة
 وما تبغى المنية حين تأتي على نفس ابن آدم من مزيد
 وأعلم أنها مستكفّر حتى توهى نذرها بابي الوليد

وسكان أوطاة يكفى أبا الوليد، فارتاع عبد الملك، وسكان أيضا يكفى
 بابي الوليد، واشتد عليه، وتغير وجهه، وظن أنه يمنيه. فقال: لا ترع يا أمير
 المؤمنين! إنى لم أعنك وإنما عنيت نفسي: أنا أبو الوليد. فقال عبد الملك:

(١) المرجع السابق ص ١٣١

(٢) مجلة قشور ص ١٢٦-١٢٧ وغلون نصائح ص ١٣١

وإياي والله لتوفين بي بذرها^(١). وفي عيار الشعر : «فقال له عبد الملك: ما تقول لشكلتك أمك؟ فقال: أنا أبو الوليد يا أمير المؤمنين. وكان عبد الملك يسكنى أبا الوليد أيضا، فلم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبد الملك إلى أن مات^(٢). ودخل المصور العنزي على زياد، فقال له زياد: أنشدنا. فقال: من ش. مر من؟ قال: من شعر الأعشى. فأرتج عليه إلا قوله:

رحلت سمية غدوة أجمالها غضبي عليك فما تقول بدالها ؟

قال المصور العنزي: فقطب زياد، وعرفت ما وقعت فيه^(٣). وما وقع فيه المنزى أنه أنشد زيادا بيتا كان فيه اسم أمه «سمية»، على رغم أنه من شعر غيره (وعن أبي نصر أحمد بن حاتم، قال: بلغني أن الفرزدق دخل على عبد الملك ابن مروان، فقال له: من أشعر أهل زماننا؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين. قال: ثم من؟ قال: غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة. قال: ثم دخل عليه جرير بمد ذلك، فقال له: من أشعر أهل زماننا؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين. قال: ثم من؟ قال: غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة. فأحب عبد الملك أن يراء لقولهما، فوجه إليه، فجن به. فقال: أنشدني أجود شعرك، فأنشده:

ما بال عينك منها الماء كأنه من كللى مضربة سريب

قال: وكانت عينها عبد الملك تسيلان ماء. قال: ففضب عليه ونفاه فقيل له: ويحك إنما دهالك عنده قولك :

ما بال عينك منها الماء ينمسكب

فألقب بكلامك. قال: فصبر حتى دخل الثانية. فقيل له: أنشده، فأنشد:

ما بال عيني منها الماء ينمسكب

حتى أتى على آخرها، فأجازته وأكرمه^(٤).

وأحسب أن الكلام - على رغم قلبه - مازال يلح في موقف اتصالي إنشادي علني إلى علة المندوح. وربما كانت الزيادة عن قلب الكلام من وضع الرواة. وعن محمد بن يزيد النحوي قال: حدثت في إسناد متصل أن أبا النجم المجلي أنشد هشاما :

(١) الموضع من ٢٠٥

(٢) غير قسمر من ١٢٨ .

(٣) الموضع من ٣٠٢

(٤) الموضع لسفر من ٣٠٢-٣٠٣

والشمس قد صارت ككفم الأحول

وذهب عنه الروي في الففكر في عين ففصاح . فافغضبه فافمر به ففطرد^(١).

٣- الفلاقة بين اطراف الففصاح :

وهي ففضم عناصر عدة مثل فففة الففصاح و ففوزفج الأوفار أو الأوفار الففوففة. الفهنة والففكانة من أهم الففصاحات الففصاحة للفمفشفركفم في عملفة الففنفافج الففوفف. ففمفم هففة الففصاحات ففقفقهم وواففباتهم وافتفازاتهم وفرى فففماف Dittmar أن ففصاحات ففصاحة مثل الففصاحافم ، أو الألفة ، أو الففكراهفة ، أو فففرها مما ففشفص الفلاقة بين الففكفلمفم ، ففم ففوامل ففصاحة في ففصاف الففلوك الففوفف (فصفج الففادب ، وافتفماف الففة الففعارفة في ففقابل الفلهجة)^(٢). ومن ففرفف ما ففذكرفه فالزفمان Salzmann أن الففوق الففوفف عففد الففواففم ففمفل الفمفلة الفواحدة ففمفم في ستة ففستوفيات ففكلامفة ففمفلفة وققا للفلاقة الففصاحة بين الففكفلمفم وققا ففوامل أفرفى ففرففط فمفم فاففد ففانبا في الففوار^(٣). لم ففراع ففوانب هففة الفلاقة في فمفص ففالات ففنشاد الففمراء فمفوففهم؛ من ففلك ما ففروفه أبو عبفد الله إفرافهم بن ففمفم بن عرفة الففوفف. قال: لما ففنشفد ففرفر عبفد الففلك :

الففصاحو فبل ففوافك فففر ففصاح

قال: فبل ففوافك فف ابن الففصاح^(٤). فمفوم أن ففوافف الففنشاد ففمفم ففوافف الففصاحة ففقففة على الففصاح الففف ففمفم ففمفم ففمفم الففوافف الففوافف وعلف ففم ففلك وقق الففصاح في ففطر فففلته عفف ففرفف ما ففلزم الففصاح فف في ففوافف ففنشادف علفف؛ لأن ففصاحه ففمفصرف إلى فمفدوفه وإن ففكان في أسله من ففصاح الففصاح ففمفه. هفذا ما فففده في الففالات الففصاحات ، ففكما فففده في فمفل ففنشاد الأففطل عبفد الففلك :

فف الففطلفن ففرافوا فمفك أو ففكفروا

(١) الفرفم ففصاح ص ٢٠١

(٢) Dittmar, op. cit., p 165.

(٣) Salzmann, op. cit. p 181

(٤) الفرفم ففصاح ص ٢٠١

قال عبد الملك: بل منك. لا أم لك. وتطير عبد الملك من قوله. عماد فقال:
..فراحوا اليوم أو بكروا⁽¹⁾.

ومن ذلك أيضا إنشاد البحري أبا سعيد محمد بن يوسف الثعري
قصيدته التي أولها :

لك الوهل من لهل تطاول آخره ووشك نوى حيّ تزّم أباعره
فقال له أبو سعيد: الوهل لك والحرب⁽²⁾.

ينبغي للوضع فيما سبق أن يبدو هكذا: شاعر (مادح/ملك) (ممدوح).
ويبدو الدور هكذا: (شاعر) ضيف / (ملك) مضيف. الشاعر هو الذي يؤمر به
أن يأتي إلى بلاط الملك، ينشده ويمدحه. ووفقا للأعراف المتبعة، ينبغي
للشاعر أن يتحلّى بالكياسة والأدب. وينبغي أن يحقق لهدفه مزية أن يطابق
سلوكه اللغوي الدور المنتظر منه. أما الوسائل، فربما كانت الانحناءة، أو
الاستئذان في الإنشاد، أو هما معا علامات على افتتاح مثل هذا الموقف
الاتصالي الإنشادي. ويعقب هذا التعبير اللغوي الذي يناسب الإطار الموسمي
(بلاط الملك) ويناسب توزيع الأدوار (شاعر - ملك).

ومن القوانين اللغوية الاجتماعية التي صارت نمطية في المناهج
الأنثروبولوجية، ما يسمى بقوانين التناوب Alternation rules التي تضم - مع
أشياء أخرى - مشخصات العلاقة بين المتكلم والمخاطب؛ كعلاقات الدور
والعمر والقرابة. ومن خواص الموقف أن يكون وديا أو رسميا أو غير رسمي
ولا تسمح نظم الخطاب اللغوية الاجتماعية مثلا، بأن يوجه المتكلم الشاعر
إلى المستمع الملك سؤالا، على نحو ما رأينا في مطلعي ذي الرمة وجريير؛ وذلك
أن السؤال - كما يلحظ لابوف Labov - يفتر على أنه التماس للإخبار،
الذي يمكن هو الآخر أن يفتر على أنه مطالبة أو مناهضة Challenge⁽³⁾.

تتخذ المواقف الاتصالية الإنشادية السابقة صورة شاعر يمدح وملك
يستجيد فهجيز، أو لا يستجيد فلا يجيز. بيد أنها لا تخلو من دلالة على أن

(1) المرجع السابق ص ٢٠٢

(2) عبار الشعر ص ١٢٧

(3) Labov, W.: The Study of Language in its Social Context, Studium Generale 23

(1) (19970) pp. 30-38, p.83

الشراء أصحاب المطالع المعبية اتصالها . لم براعوا عند إنشادها - على رغم تقديمهم في الطبقة - الفرق الجوهرى بين جماليات فعل النظم التي تحكمها الكفاية اللغوية وجماليات فعل تحول المنظوم إلى خطاب، تلك التي ينبغي للكفاية الاتصالية أن تكون المسئولة الحقيقية عنها. تعامل هؤلاء الشراء فيما أنشدهم من مطالع بين أيدي الملوك ومن في الحضرة، مع اللغة المحكومة بنظامها، ولم يتعاملوا مع اللغة في وظيفتها الاجتماعية المحكومة بسلتراتيجيات التفاعل من ثم، ظهورا جميعا وقد ذهبت عنهم كفايتهم الاتصالية على رغم ما عرضوا جميعا من كفاية لغوية.

لقد فات الشراء المذكورين المعرفة بأعراف الاتصال والعرف أملاك، كما يقول عبد القادر البفداي (ت ١٠٩٢هـ)^(١١). والأعراف متغيرة موقتها وتاريخها، وهذه فرصة لعمل النوق. وأحسب أن بيتا في المدح كقول الشاعر :

أنت كالكلمة في حفاظك للمهـ
مد وكالتهمس في قراع الخطوب

مما لا يرضاه لنفسه في عصرنا ملك يذوق الكلام، مهما كانت الغاية فيه والمقصدا هكذا يظهر المنهج اللغوي الاجتماعي الوظيفي تحولا من النظر إلى اللغة بالمنهج العقلاني الذي انحاز إلى وضع نظريات في الكليات اللغوية المجردة التي تحكمها البنية العقلية الموروثة عند الإنسان، مهملا تفسير اللغة في ضوء حقائق أخرى غير لغوية، إلى النظر إليها في وضعها الواقعي الاستعمالي الذي تتكيف فيه المنطوقات مع وظائفها السياقية الاجتماعية الثقافية الطبيعية. إنه - بالأحرى - تحول منهجي يعكس - فيما نحسب - تحولا أعمق في النظر إلى وظيفة اللسانيات ذاتها على النحو الذي نراه في مثل إشارة دو بوجراند إلى أنه ينبغي للسانيات إذا لم تتلاش بسبب عزلتها من حيث هي حقل للبحث ... أن تصبح علما محوريا للخطاب والاتصال^(١٢).

إذا كانت الكفاية اللغوية باللغة، فإن الكفاية الاتصالية طرف منها بالغة وطرفها الآخر - في الوقت نفسه - بسياق الاتصال الذي تستعمل فيه.



(١١) محمد بن أحمد الفراء بن مصر (حرارة أول . لخص وشرح عد السلام ملرون . مقر الكلاب العربي .
الطبعة: ١٣٨٩م - ١٩٧٣م) ٣١ / ٣

(١٢) لخص وخطب والإجراء . ص ٧١

الفصل الثاني
حيك النص
منظورات من التراث العربي

١ - توطئة :

يميز هارتمان Hartmann - في نشأة علم لغة النص - بين سبع مراحل من التطور وضعت معالمه، هي: علم البلاغة وعلم الأسلوب والتأويل والسيميائية. وتحليل المضمون، ونظرية أفعال الكلام، والبلاغة الجديدة. أما علم البلاغة - من بينها - فقد تجلت أهميته في تعامله مع اللغة من حيث هي خطاب فكري، وفي تشكيله أنماط الاتصال المؤثر ومعايره^(١).

في علم البلاغة العربي، تقع مناطق شاسعة للعناية بطرق الإبلاغ المؤثر، فضلاً عن العناية بمعايير البنية المثلى للنص وصناعته. ولكن نظل بين العلمين وجوه للمفارقة. بينما علم البلاغة الغربي كان أول العلوم التي أسهمت في تأسيس هذا العلم اللغوي النصي، لم يطور علم البلاغة العربي علماً جديداً.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن تبصرات القدماء ومنظوراتهم إلى خاصية الحكيم Coherence. وتسمى من وراء ذلك إلى استصفا المبادئ والتصورات التي يمكن لها أن تتخذ مرتكزات لتحليل النص العربي تحليلاً مناسباً، لا يفتل عن خواصه ومعايره البنائية والاتصالية، من حيث إن النص - في المقام الأول - إنتاج بيئته الاجتماعية والحضارية، وهو - في الوقت نفسه - يدل عليها ويمارس فيها وظائفه.

وأحسب أن علم لغة النص وتحليل الخطاب هما أفضل نقطة يلتقي عندها علم البلاغة وعلم اللغة أحدهما بالآخر. من ثم، تأمل هذه الدراسة أن تكون خطوة على طريق توثيق الصلات بين علم البلاغة وعلم اللغة توثيقاً يفيد منه كلا العلمين؛ وذلك بأن يدفع علم البلاغة علم اللغة إلى تجاوز حدوده التقليدية التي تتعق بوصف الأنماط البنائية المفردة الصغرى للغة وتحليلها، إلى علم الاتصال والتداولية ونحوها، وبأن يدفع علم اللغة علم البلاغة إلى تجاوز إطاره التقليدي نظاماً من القواعد والمعايير عما يجب في الكلام وما لا يجب، إلى معالجة إشكاليات نصية مهمة من منظور لغوي، مثل: تخطيط النص، واستراتيجيات الإنتاج، واستراتيجيات تشكيل النصوص الكبرى، واختلاف

(١) Hartmann, R. R. K.: Contrastive Textology: Comparative Discourse. Julius Groos Verlag Heidelberg (1980), pp. 10 - 13

في النصوص اختلاف معانيها ومعرفه ككيفية تدرج المصنوع النصي. ومعرفه في النص الكلية وغيرها. لهذه المحاولة في البلاغة العربية الآن نظائر في البلاغة الأوربية. أضرب مثالا على ذلك محاولة رولان بارت ROLAND BARTHE في كتابه "قراءة جديدة للبلاغة القديمة" الذي بناه على أساس مصطلحات بنوية وسيميائية⁽¹⁾.

وتتخذ هذه الدراسة من فحص مفهوم الحكيم ومرادفاته في تبصرات التراث العربي وسيلة لبلورة المفاهيم والمنظورات اللغوية والبلاغية وتوثيق الصلات بينها في تحليل الخطاب، بعد أن ثبت أن قضايا البلاغة بفرعها المختلفة قضايا لغوية الطابع في مجملها، وأنها - كما يقول دكتور تمام حسان - لا تقرب من الطابع النقدي إلا في مواضع محددة⁽²⁾.

في هذه التوطئة، ينبغي لنا - قبل الكشف عن تبصرات القدماء ومنظوراتهم في الحكيم وتحليلها - أن نعرف: ما الحكيم؟ وما موقعه بين معايير النصية؟ وما أهم المفاهيم الأخرى التي ترتبط به عند تحليل بنيته؟

كان من أهم ما تمخضت عنه النظرية اللغوية المعاصرة علم لغة النص. وكان من إسهامات علم لغة النص المهمة تحليل ما عرف بمعايير النصية NORMS of Textuality. ومعايير النصية هي المكونات التي تجعل النص كلاماً موحداً متماسكاً دالاً، لا محض سلسلة من الكلمات والجمل غير المترابطة. هذه المكونات هي: السبك Cohesion والحكيم Coherence والقصد Intentionality والقبول Acceptability ورعاية الموقف Situationality، والتناص Intertextuality والإعلامية Informativity

تتكامل المكونات السبعة السابقة في تحقيق الطبيعة النصية للنص. وكانت هذه المكونات المفكرة المركزية في عمل رائد في مجال علم لغة النص: وهو عمل دويوجراند De Beaugrande ودرسلر Dressler المسمى: (مدخل إلى علم لغة النص (An Introduction to text linguistics).

في علم اللغة المعاصر جعل الشرط الجوهري للنص أن يكون كلاماً

(1) ترجمة كتابه معناه في "بوشة" - معهد الشرق 1991

(2) ت. حسان، معجم تلاميذ فخر الدين - جامعة خلدون، حماة، ص 198، 199، ص 200

موحداً منتظماً في وحدة دلالية. لا تجميعاً محضاً بين جمل يعوزها الترابط الدلالي. سواء في ذلك أن يكون نصاً منطوقاً أم مكتوباً، قصيراً أم طويلاً. من أجل ذلك نظر إلى النص بوصفه تصميماً للمعاني على مستوى أعلى⁽¹⁾. وفي ضوء ذلك أيضاً عرف النص عند هاليداى ورفقيه حسن بأنه وحدة من التنظيم الدلالي الموقفي: أي أنه استمرارية معنوية أو انتظام للمعاني في السياق، تشبده علاقة الحيك الدلالية⁽²⁾.

يكون السبك والحيك - من بين المعايير السبعة بوجه خاص - ثنائية مفهومية في حقل علم لغة النص وتحليل الخطاب. يربط السبك بين عناصر سطح النص، ويحكم الحيك بين عالمه النصي: أي أنهما يشيران إلى كيفية تكيف العناصر التي تتكون النص بعضها مع بعض وصنع المعنى. السبك والحيك - كما يقرر دويجوراند ودرسلر - أوضح معايير النصية، وإن كانا لا يمكن لهما أن يقدموا فواصل مطلقة بين النصوص وغير النصوص في الاتصال الفعلي⁽³⁾. يجعل علماء لغة النص للحيك أهمية خاصة. الحيك عند كلاوس برنكر Klaus Brinker هو المفهوم النواة في تعريف النص، وهو يقع عنده في مركز علم لغة النص الموجه إلى النظام اللغوي⁽⁴⁾.

ويري كل من هاينمن Heinemann وفيهيجر Viehweger أن وحدة النص Texteinheitlichkeit لا تقاس بظواهر سطحية؛ ولكنها تقاس بالبحث عنها في البنية الدلالية الأسب Semantische Basisstruktur التي تكشف عنها المسائل الدلالية الكبرى للأبنية المركبة والحيك النصي⁽⁵⁾.

يرجع المفهوم Coherence في الإنجليزية أو Kohärenz في الألمانية إلى

(1) Halliday, M. A. K. Language as Social Semiotic. Edward Arnold London (1993) p.137

(2) Halliday, M. A. K. - Hasan Ruqaily: Cohesion in English. Longman, London - New York (1983) p. 25

(3) De Beaugrande, R. - A. / Dressler, W. U. Introduction to Text - Linguistics. Longman, London - Now York, (1983) p. 113.

(4) Brinker, Klaus Textbegriff in der heutigen Linguistik in: Studien zur Texttheorie und zur deutschen Grammatik. Dueseldorf (1973) SS 9-41, S.13

(5) Heinemann, W. - Viehweger, D: Textlinguistik. Eine Einführung Max Niemeyer Verlag (1991) S. 49

العمل اللاتيني Gohaerentia. وهو مستعار من علم الحكيمياء. عرف هذا اليوم في علم اللغة النصي وتحليل الخطاب حدوداً عدة. يحدده سوفنوسكي Sowiński بقوله: "يقضى للجمل والمنطوقات بأنها محبوسة، إذا اتصلت بمضامين لغوية فيها ببعض، في إطار نصي أو موقف اتصالي، اتصالاً لا يشعر معه القارئ أو القراء بثغرات أو انقطاعات في المعلومات"⁽¹⁾ ويحدده ليفاندو Lewandowski بقوله: "ليس الحبيك محض خاصية من خواص النص، ولكنه أيضاً حصيلة اعتبارات معرفية (بنائية) عند المستمعين أو القراء".

الحبيك حصيلة تفعيل دلالي Bedeutungsaktualisierung، ينهض على ترابط ضروري بين التصورات والمعارف، من حيث هي مركب من المفاهيم وما بينها من علاقات، علي معني أنها شبكة دلالية مختزنة، يتناولها النص غالباً على مستوى الشكل: فالمستمع أو القارئ هو الذي يصمم الحبيك الضروري أو يتفهمه"⁽²⁾

ويخلص ليفاندوسكي زوايا النظر إلى الحبيك في علم اللغة النصي فيما يلي:

- 1- الحبيك من حيث هو الشرط اللغوي لفهم السبك فيما أعمق.
- الحبيك من حيث هو إحدى خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، وهو ما يسمى بالارتباط المرجعي أو الإشاري Referentiell.
- 2- الحبيك من حيث هو إحدى خصائص الإطار الاتصالي الاجتماعي.
- 3- الحبيك من حيث هو إجراء ومن حيث هو حصيلة التلقي الابتكاري البنائي"⁽³⁾

تدل الحدود السابقة مع غيرها علي أن الحبيك في جوهره تنظيم مضمون للنص تنظيمياً دلالياً منطقياً. تسلسل المعاني والمفاهيم والقضايا علي نحو منطقي مترابط هو أس حبيك النص. والنص الذي يوصف بأنه لا معني له، هو

(1) Sowiński, Bernhard: Textlinguistik, Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart - Berlin - Koeln - Mainz (1983) S. 83.

(2) Lewandowski, Theodor: Linguistisches Woerterbuch, Quelle u. Meuer, 6 Auflage, Heidelberg - Wiesbaden (1994) S. 546.

(3) Lewandowski, op. cit, SS. 546-47

النص الذي لا يستطيع مستقبلوه أن يمشروا فيه علي مثل هذا التسلسل. إذا كانت وسائل السبك هي الإحالة Reference، والاستبدال Substitution والحذف Ellipsis، والوصل Conjunction، والسبك المعجمي Lexical Cohesion فإن وسائل الحيك - فيما ذكره دويجراند - تشتمل علي ما يلي :

العناصر المنطقية: كالسببية، والمعموم، والخصوص class inclusion.

١- معلومات عن تنظيم الأحداث، والأعمال، والموضوعات، والمواقف.

٢- السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية. ويدعم الحيك (عند المترجم الالتحام) بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالمالم^(١).

تحيط بالحيك في نظرية النص شبكة من المفاهيم النظرية التي تمكن من تحليل بنيته تحليلًا متكاملًا. من أهم هذه المفاهيم :

- ١- مفهوم "الحيك الطولي أو المترج Linear or Sequential Coherence" في مقابل مفهوم "الحيك الشامل أو الكلي Global or Overall Coherence". ينتج الحيك الطولي بين ما تمبر عنه الجمل ومتواليات الجمل من قضايا. هذا النوع من القضايا Propositions هو الذي ينتج عنه ما يسمي ببني النص الصغرى. أما البني الدالية الأشمل والتي لا تشخص تشخيصاً مباشراً عن طريق العلاقات بين قضايا مفردة ، بل تشخص في حدود ما نجريه علي تلك المجموعات والمتواليات من إجراءات، فهي البني التي تنتج هذا النوع من القضايا والمتواليات الكلية التي تكون ما يسمي ببني النص الكبرى^(٢).
- ٢- مفهوم "علاقات الحيك Coherence Relations"، ونذكر لها الأنواع

التالية:

(١) وحدة المرجع Referential Identity، وهو يمثل إحدى علاقات الحيك بين النوات. وخلاصته أن الموضوعات وحدات في قضايا مختلفة، يمكن أن يكون لها الذات نفسها، والقيمة ذاتها. ويمكن أن يشار إلى الذات الواحدة

(١) دويجراند، روبرت: النص والحطاب والإجراء، ترجمة د. ليام حسان، عالم الكتب - القاهرة: (١٩٩٨) ط ١ ص ١٠٣

(٢) Van Dijk, Teun, A: Text and Context, Longman - London - New York (1980) p.95.

باسم العلم، أو الصمير، أو بمفردات مثل "أحر"، أو تعبيرات مثل "ذلك الولد" أو "الطالب الذي فقد كتابه"^(١)

(ب) علاقة الاختلاف وتتميز بـ *Relation of difference and change* وضوحها أننا لا ندوم في الخطاب علي ذكر الشيء نفسه عن الذوات أنفسها، بل ندخل إلى عالم الخطاب ذواتا جديدة، أو نعين جديدا من الخصائص والملاقات لذوات أدخلناها من قبل.

كذلك، فإن التغير في العالم النصي أو في الموقف، تحدده بعض الملاقات المقبولة بهذا العالم أو الموقف الذي أنشأناه من قبل. المهم أنه ينبغي للتغيرات أن تكون متجانسة *Homogeneous*، وأن يكون وقوعها في حدود مستوى أعلى من مستويات مبدأ يحدد الذوات الممكنة والخصائص الممكنة لعالم نصي بعينه.

يرتبط تغير الذوات والخصائص بما ذكر من قبل من نظائرها. ويوجب تسلسل الخطاب أو استمراريته، أن تعبر شكل جملة - من حيث المبدأ - عن هذه العلاقة بين مذكور وجديد من المعلومات، أو بين ما يسمى المحور *Topic* والتفسير *Comment* على النحو التالي:

> < أ ، ب > ، < ب ، ج > ، < ج ، د > ، ... < أو >> < أ ، ب > ، < أ ، ج > ، < أ ، د > ، ... <"^(٢)

(ج) علاقة التبعية *Subordination*: وذلك أن الأفعال تحبك أيضا حبكما منطقتها عن طريق التبعية (الملة *Cause*، الشرط *Condition*، المقارنة *Comparison*، التخصيص *Specification* .. الخ)، أو عن طريق تدرج الأجزاء وعلاقة الجزء بالكل^(٣).

٢- مفهوم "الحلقات المفقودة *Missing Links*": ويقصد بها عند "هان فايلد" القضايا التي نسلم بها علي أنها تتشأن الحنك النظري للنص والتي لا يصبر عنها في الخطاب. ويمكن أن يمداد تركيب هذه الحلقات المفقودة

(١) *Text and Context* . op. cit, p. 1193

(٢) *Text and Context* . ibid . p. 94

(٣) (Grabe, William: *Written Discourse Analysis* Kaplan R. H (ed) *Annual Review of Applied Linguistics* 5: 101 - 123

بواسطة ما يسمى بقوانين الاستدلال Rules of Inference، أو القوانين والإجراءات التي تحدد على مستوى التداولية، أو أن تحدد بواسطة النظرية المرفعية^(١).

ويرتبط مفهوم "الحلقات المفقودة" عند فان دايك بمفهومين آخرين عند "ودوسون Widdowson": أحدهما "أعراف الحيك Conventions of Coherence" والآخر ما يسميه بالرابطة الإنجازية Illocutionary Link. خلاصة المفهوم الأول أننا نربط ما يقال بما نعرف، وأن قدرنا من المقدرة على الاستدلال يزول إلى تقاليد وأعراف مرتبطة بنوع الخطاب. نحن نتعلم مثلا أن المكاتبات الإدارية ذات صيغة بعينها، وأن المعلمين يكتبون تقاريرهم على نحو بعينه، وهكذا يكون الخطاب محبوبا على قدر إدراكنا إياه من حيث هو تمثيل لاستعمال لغوي عادي، وهو محبوبك على قدر قبولنا الأحداث الإنجازية بوصفها خاضعة للأعراف السائدة في هذا النوع أو ذاك من أنواع الخطاب. يخلص "ودوسون" إلى القول "بأن الحيك يقاس بمدى خضوع حالة بعينها من حالات الاستعمال اللغوي للمعرفة المشتركة بالأعراف وبكيفية ارتباط الأحداث الإنجازية لتكوين وحدات أكبر من الخطاب، من أنواع مختلفة. إذا قابلتنا قطعة من اللغة، أمكننا الحكم بكيفية حبكها وصفا، أو تقريراً تقنيا، أو مذكرة قانونية... الخ"^(٢).

أما المفهوم الثاني، فهو ما يسميه ودوسون باسم "الرابطة الإنجازية" Illocutionary Link في بيان هذا المفهوم يضرب مثلا بالمبادلة الكلامية التالية:

أ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : جئت لتوى !

نجعل لما سبق معني بتركيز انتباهنا على الأفعال الإنجازية التي استخدمت القضايا الإنجازية. نحن نضع موقفا في عقولنا، يزودنا برابطة إنجازية بين المنطوقين. وينبغي لنا أن نتخيل موقفا يشهد - على سبيل المثال - نوع شغب أحاط برجال الشرطة، وشد انتباه المارة. إنه جمع متزاحم، يسأل

(١) Text and Context, op. cit., p. 9

(٢) Widdowson, H. G. Teaching Language as Communication. Oxford Uni Press (1994) p. 44

فيه انشاهد (أ) انشاهد الآخر (ب) عما حدث بمسّر منطوق (ب) الآن على أنه ككشف عن محزّه عن الإجابة عن سؤال (أ) إنه لا يقدر على أن يعدنا بالمعلومة المطلوبة: لأنه حضر لتوه. يمكننا - إذ ذاك - أن نأتي بالرابطة القضيةية المفقودة على النحو التالي :

١ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : (لا أعرف ما فعله رجال الشرطة لأنني) جئت لتوي (١).

يريد ودوسون أن يوصل من هذا إلى الأمرين التاليين :

١ - يوجد السبب حينما توجد علاقة قضيةية Propositional Relationship

بين الجمل- السبب إذن علاقة صريحة بين قضايا تمر عنها الجمل.

٢ - يوجد الحيك حينما توجد علاقة بين الأفعال الإنجازية التي تجزها للقضايا (والتي لا يرتبط بعضها ببعض دائماً ارتباطاً صريحاً).

في ضوء ما سبق، نرى تلك المبادلة مبادلة مبهوكة غير مبهوكة. أما المبادلتان التاليتان - في مقابل ذلك - فهما مبهوكتان مبهوكتان :

١ / ١ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : القوا القبض على المتظاهرين.

١ / ٢ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : ألقى الظالمون القبض على المتظاهرين

ولكن المبادلة رقم ١ أقوى تماسكاً من رقم ٢؛ وذلك لتطابق المرجع بين

أ و ب. في الوقت الذي قوبل فيه "رجال الشرطة" في رقم ٢ بـ "الظالمون" في الإجابة. "الظالمون" في الإجابة [حالة إلى متقدم، مما يسمح بتأسيس رابطة دلالية بين "رجال الشرطة" و "الظالمون".

على أي حال، نرى في المبادلتين الأخيرتين علامات شكلية تساعد على اكتشاف الرابطة القضيةية بين أ . ب في كل منهما. بينما الصلات واقعة عبر الجمل في المبادلتين الأخيرتين. لا نرى صلة بين أ و ب في المبادلة الأولى.

بناء على ما سبق، يمكن القول بأننا نستطيع الاستدلال على الأفعال الإنجازية من الروابط القضيةية التي أشير إليها إشارة صريحة. وفي حال الحيك

سنطبع الاستدلال على الروابط القصوية الضمنية من خلال تفسير الأفعال الإنجازية⁽¹⁾.

تدور المفاهيم الثلاثة الأخيرة "الحلقات المفقودة" و "أعراف الحيك" و "الرابعة الإنجازية" حول أثر الاعتبارات التداولية في وسم الخطاب بالحيك وإن غاب عنه السبك. تبدو الاعتبارات التداولية في "الاستدلال" على نحو ما رأينا تبدو أيضا في العلاقة بين المنطوق ووظيفته في سياق بعينه، فكان يخرج المنطوق "هناك شخص بالباب" عن وظيفة الإخبار إلى التحذير أو طلب فتح الباب، في مبادلة مثل :

أ : هناك شخص بالباب.

ب : أنا مشغول }

أ : طيب }

تكون المنطوقات الثلاثة خطاباً محبوبكاً، إذا نظرنا إليها من حيث هي أفعال إنجازية. يساعد هذا الفهم للعلاقات بين المنطوقات على تزويد المبادلة السابقة بالروابط القصوية المفقودة والتي تعيد إليها خاصية السبك :

أ : هناك شخص بالباب (هل يمكن أن تفتحه ؟).

ب : (لا، لا يمكنني أن أفتحه، ف) أنا مشغول }

أ : طيب (سأفتحه أنا).

قدم علماء اللغة الاجتماعيون - في عنايتهم بمظهر التفاعل الاجتماعي من استعمال اللغة - وصفا مفيدا في هذا المجال للكيفية التي تترايط بها المنطوقات. يرهن Labov على أن هناك ما يسمى بـ "قوانين التفسير" التي تربط ما يقال بما يفعله على أساس هذه القوانين الاجتماعية - لا اللغوية - تقسر بعض السلاسل الحوارية بأنها محبوبكة. معرفة الحيك أو عدم الحيك في السلاسل الحوارية لا يمتد - عند Labov - على العلاقة بين المنطوقات، ولكنه يمتد على العلاقة بين الأفعال Actions التي تؤديها المنطوقات⁽²⁾.

(1) Teaching Language . op cit pp 2F - 29

(2) Brown, Gillian - Yul. George Discourse Analysis, Cambridge U'n. - press (1984) p. 226

يخص من المفاهيم الثلاثة الأخيرة إلى المسائل المهمة التالية
الحلقات المنقودة فصافيا ثم يصرح بها الخطاب، وتكون حتم بها
لدورها في توفير الحيك للخطاب. ونحن نصل إلى تلك الحلقات عن طريق
الاستدلال أو معرفتنا بالعالم.

يخضع معيار الحيك للمعرفة المشتركة بكيفية ارتباط الأعمال الإنجارية
بعضها ببعض والأعراف السائدة في جنس بعينه من أجناس الخطاب :
كان يكون تقريرا أو مذكرة أو محادثة إدارية . . الخ.
ينتهي للخطاب أن يكون مسبوكا مسبوكا. ولكنه قد يكون
مسبوكا غير مسبوك. إذا وجدت علاقة قسوية بين الجمل كان
الخطاب مسبوكا، وإذا وجدت علاقة بين الأعمال الإنجارية كان
مسبوكا.

- الحيك عند أصحاب نظرية أعمال الكلام وعلماء اللغة الاجتماعيين
علاقة بين الأعمال وليس علاقة بين المنطوقات وهذا ما يستتبع حقا من
المبادلات الكلامية الطبيعية.

- الحيك عند القدماء : (إشارات عامة :

دل القدماء على " النص " بأشكاله التي يتبدى فيها تحققه؛ كالقسيده
والخطبة والرسالة ونحوها، ولم يألوا - في تطيراتهم - جمع تلك التحققات
مفهوم " النص " البنائي. بيد أن القدماء من اللسانيين البلاغيين قد أتبع
هم - على رغم ذلك - أن يلاحظوا لتلك التحققات مقومات " نصية " جوهرية
المشتركة، فضلا عما لاحظوه لكل منها من مقومات نصية بنائية جوهرية
خاصة؛ مثل تلك التي تترق بين قصيدة ورسالة، أو بين رسالة وخطبة . . الخ.
كان الحيك من أهم تلك المقومات النصية المشتركة التي وقف عليها
اللسانيون البلاغيون منذ القرن الثالث الهجري. فضلا عن مفهوم الحيك نرى
في مصادر التراث البلاغي مفاهيم أخرى ارتبطت بسياقاتها اللغوية في الدلالة
على ما يدل عليه الحيك أو على شيء، مما يدل عليه؛ كالاتصال، والامتزاج،
والالتحام، والاتحام، والتلاحم، والاتساق، والاتلاف، والافتراق، والارتباط،
والملازمة، والمناسبة، والتناسب وغيرها لعل الالتحام أقرب هذه المفاهيم إلى
معنى الحيك المجمع؛ فالحيك شد وإحكام، وعلل الالتحام والتناسب
الاتساق أدس إلى مجال اختصاص الحيك المعنوي وأنها عن الالتباس

والانفعال بالتدليل على خواص أخرى لفظية. ومهما يكن من أمر، فقد أثرت الحبكة على غيره مما دار مداره في التراث. كما أثرته مقابلاً عربياً مناسباً لـ Coherence في الإنجليزية أو Kobaerenz في الألمانية وما مثلهما في لغات أجنبية أخرى، بدلاً من هذا الحشد الحاشد المتخالف من المقابلات العربية التي تكاد تختلف باختلاف الباحثين في ترجمة هذين الاصطلاحين. وأجمل فيما يلي - مرة أخرى - الأسباب التي دعمتنا إلى إيراد الحبكة على غيره، سواء من نظائره في التراث العربي نفسه، أو إثارته على غيره من المقابلات العربية التي قول بها المصطلح الأجنبي في الدراسات العربية والمترجمات الحديثة - أجمل تلك الأسباب فيما يلي:

- ١- أن الحبكة يصنع مع السبك ثنائية مفهومية متجانسة، مما يرسخ مدلوله الاصطلاحي ترسيخاً أقوى مقارنة بنظائره.
 - ٢- أن الجمع بينه وبين قرينة السبك، سوف يساعد في اختصاص معناه بمجرد إطلاقه، وهو ما لا يتوفر لمفاهيم أخرى كالملازمة والاتلاف ونحوهما. الملازمة مثلاً تأتي في سياق تدل فيه على معنى الحبكة، ولكنها تأتي في سياق آخر تدل فيه على الملازمة بين اللفظ والمعنى؛ كأن يكون اللفظ رقيقاً مثلاً في موضع الوعد والبشارة.
 - ٣- نظراً لمعنى الحبكة في اللغة، فإنه يبدو أدل من غيره على ما يكون من صانع النص، من توزيع علاقات الحبكة وربطها بين وحدات النص الجزئية، من أجل تشييد وحدته النصية الكلية.
- أما أهم الإشارات العامة التي تثبت - في مجملها - وعى القدماء بخاصية الحبكة اللغوي للكلام أو النص فيمكن لنا أن نعرضها موجزين على النحو التالي:

(١) روى أبو عثمان الجاحظ (ن ٢٥٥هـ) عن عمر بن لجا أنه قال لأحد الشعراء: "أنا أشمر منك" قال: "لأنني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه"^(١).

الأخوة والمعمومة في كلام ابن لجا إشارة إلى درجة قوة الترابط الدلالي بين سلاسل المنطوقات المتواليات، مما يصير به النص كلاماً موحداً دالاً. وهذه

(١) الخطب (أبو عثمان عمرو بن بحر) - لبنان - تحقيق عبد السلام محمد مازون، مكتبة الخفافي - القاهرة ط ١٩٥٦ - ١٩٥٧ - ١٩٥٨

الإشارة: لوجيزة في كلام ابن نحا تمكس وعمر مستجر النصوص أنفسهم بأن إنتاج النص قدرة على القصد. يظهرها المنكلم تجاه الملابس والظروف التي يشج فيها نسا، والتي يحاول فيها أن يجعل هذا النص مفهوماً، من خلال التخطيط وتسلسل المعلومات على نحو منطقي.

(ب) وقد ذم ابن قتيبة (ت ٢٦٧هـ) التكلف في الشعر. وجعل من التكلف في الشعر عنده أن ترى البهت مقرونا بغير جاره، ومضموماً إلى غير لافته^(١).

تخصيص الكلام عن الشعر هنا راجع إلى الجنس الذي يقوم عليه عمل ابن قتيبة فحسبه. وما ذكره هنا عن الشعر يسرى على شتى أجناس القول بالطبع؛ إذ لا تتصور مجاورة حقيقية بين المنطوقات من غير أن تتحقق بينها علاقة دلالية ما.

(ج) وقال ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ): "وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبضه، فيلائم بينها لتتنظم له معانيها ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدا وصفه وبين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه، ... ويتقصد كل مصراع: هل يشاكل ما قبله؛ فريما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر، فلا يتبه على ذلك إلا من دق نظره ولطف فهمه"^(٢).

انتظام المعاني واتصال الكلام في إشارة ابن طباطبا السابقة أمور ينبغي لها أن تنهم في ضوء مبدأ الاستمرارية المنوية التي توفر للخطاب حبسكا طوليا هو نواة أبيته الصغرى، كما توفر له حبسكا كلياً هو نواة بنيته الكبرى. اتصال الكلام وانتظام المعاني يؤديان بالضرورة إلى المشاكسة بين أجزاء القول. لما كانت المشاكسة مما يحوج إلى دقة نظر ولطف فهم، فقد غاب عن نواة الكلام ما لم ينب عن أصحابه. في ضوء مبدأ الانتظام المنوي والاتصال الكلامي يمكن أن ننظر إلى ما وقع فيه الخلل من الشعر بين الرواة نظرة مشابهة بين "نص الشاعر" و"نص الراوي". ربما كان الكلام في "نص الراوي" متشاكلا، ولكنه في "نص الشاعر" أشكل وأدخل في استواء

(١) نص قتيبة (أبو محمد الدهري) شعر ولشعر ٥٥، بيروت (١٩٦١ م) ١١٤، ١١٥.

(٢) ابن طباطبا (أبو حسن محمد بن أحمد) عم الشعر، تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر نجح، مكتبة حاصي القاهرة، ١٣٥٩.

نسخ. يذكر ابن طباطبا أن البيتين التاليين قد روي لأمريء القيس هكذا :

كأنني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كعابها ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل لخليتي كعري كعرة بمد إجمال

هكذا الرواية . قال ابن طباطبا : ^{١١٠} وهما بيتان حسنان . ولو وضع
مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر ، كان أشكل وأدخل في استواء
النسخ ، فكان يروى :

كأنني لم أركب جواداً ، ولم أقل لخليتي كعري كعرة بمد إجمال

ولم أسبأ الزق الروي للذة ولم أتبطن كعابها ذات خلخال^{١١١}

يقضي مبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام أن يكون نص الشاعر هو
المتنوع بالمشاكلة؛ وذلك أن ركوب جواده في المصراع الأول يشاكله أمر
خيله بالكر في المصراع الثاني. الكلام هكذا متصل، والمعاني هكذا
منتظمة. وهذا مادي ولطف على الراوي، فلم يفتن إليه في نص روايته. نص
الشاعر ونص الراوي مقابلة بين نص مسبوك محبوبك ونص مسبوك فحسب
ويذكر ابن طباطبا آياتاً أخرى رويت وقد خلت من المشاكلة ، من ذلك
قول طرفة :

ولمست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

قال ابن طباطبا: ^{١١٢} فالمصراع الثاني غير مشاكل للأول ^{١١٣} . ينبغي
للكلام بمد الاستدراك ب (لكن) أن يأخذ بسبب بما قبله. الأخرى - في
التعليق - أن يقابل المثبت بمد (لكن) المنفي قبلها ، لم يقع هذا في البيت في
مثل هذه الرواية فسد السبك والحبك جميعاً ، ومن ثم خلت من المشاكلة.

(د) وقال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) : ^{١١٤} ينبغي أن تجعل كلامك
مشتبهاً أوله بآخره ، ومطابقاً هاديه لمجزئه ، ولا تتخالف أطرافه ، ولا تتناثر
أطرافه ، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها ، ومقرونة بلفظها . ومثال

^{١١٠} غير نسخ من ١٠٩ - ١٠٠

^{١١١} غير نسخ من ١٠٩

فكملت الشمس بالنهار، والليل بالليل وقالت: مضيتا مفيدا، ثم فسرت
قالت: نفوسا ومالا^{١١١}.

فانقسم بها عمرو لو نهبهاك	إذا نهبها منك داء عضناها
إذا نهبها لبيت عريضة	مضيتا مفيدا نفوسا ومالا
وخرق تجاوزت مجهولة	بوجناء حرف تشكك الحلالا
فكنت النهار به شمس	وكنت دجى الليل فيه الهلالا

فكملت الشمس بالنهار، والليل بالليل وقالت: مضيتا مفيدا، ثم فسرت
قالت: نفوسا ومالا^{١١١}.

في كلام أبي هلال ما يفيد وعيه بتناسق حقول الدلالة بين أجزاء
الكلام، كما يفيد وعيه بإحدى العلاقات الدلالية التي توفر للخطاب
مبكراً، وهي علاقة التفسير، تفسير المجلد ومازلنا نرى في إشارته إلى اشتباه
الكل الكلام بآخره، ومطابقة هواده لأعجازه ما يحتملها بمبدأ انتظام انماني
اتصال الكلام عند ابن طباطبا.

حمل أبو هلال - في نصه السابق - الاشتباه والمطابقة وتلازم الأجزاء
مهوراً واجبة في صنعة الكلام. في موضع آخر، أوجب أبو هلال في صنعة
الكلام شروطاً تجعلها في:

❖ تخير الألفاظ على ما يوجب التمام الكلام.

❖ أن يكون موقع الكلام في الإطناب والإيجاز البين بموقعه، وأحق
بالمقام والحال^{١١٢}.

الشرط الأول من أحسن نموت الكلام.

والثاني يجعل الكلام جامعاً للحسن.

أما الشرط الثالث، فهو:

(١١١) العسكري (أو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل) كتاب التصانيف، تحقيق طه محمد الحارثي ومحمد تقي
تفصيل برهيم، دور إحياء الكتب العربية، ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م، ص ١٢١ - ١٢٢، ولغرية سنوي
الأمم والناس وغيرهم، حرف أرض لعبد وتماماً لواسطة الوحدة، نسخة تصحيح وحرف من
إلى نسخة تصحيح
(١١٢) كتاب حاشية من ١٤١

﴿...﴾ من أصوله يضطرب قناعه أحرى.
وهو هذا الشرط بأن يتطوع الصلوات - من وجهة نظر أبي هلال - قد
جمع بهبه الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام^(١١).

إنباء موارد الصلوات عن مصادره وكشف أوله قناع آخره مظاهر دالة
على توهج خاصية الحبلد بين أجزائه. ولعل في إشارة أبي هلال إلى واقعات
الإحارة ما يتم عن وعي بمفهوم الحبلد الطولي أو المتدرج الذي تتم معه القضية
المعبر عنها في الحملة. يقول أبو هلال: أخبرني أبو أحمد، قال: كنت أنا
وجماعة من أحداث بغداد ممن يتماطل الأدب نختلف إلى مدرك، نتعلم منه
علم الشعر، فقال لنا يوماً: إذا وضعت الكلمة مع لفقها كنتم شعراء، ثم
قال: أجزئوا هذا البيت:

الا إنما الدنيا متاع غرور

فأجازه كل واحد من الجماعة بشيء، فلم يرضه، فقلت: وإن عظمت
في أنف وسدور^{١٢} فقال: هذا هو الجيد المختار.

وأخبرنا أبو أحمد الشطني، قال: حدثنا أبو العباس بن عريبي، قال:
حدثنا حماد بن يزيد بن جبلة، قال: دفن مسلمة رجلاً من أهله، وقال:

نروح ونغدو بكل يوم وليلة

ثم قال لبعضهم: أجز، فقال: فحسب متى هذا الرواح مع الغدو، فقال
مسلمة: لم تصنع شيئاً. فقال آخر: فهالك مغدى مرة ورواحاً، فقال: لم تصنع
شيئاً. فقال لآخر: أجز أنت، فقال:

وعما قليل لا نروح ولا نغدو

فقال: الآن تم البيت^(١٣).

تمام البيت والجيد المختار فيه بما يتم قضية، يأتي الجزء فيها مع لفقه.
هذا ما ينتهي إليه الحد في صنعة الكلام عند أبي هلال، وهذا ما يجعل
الصلوات يبلغ عنده أعلى مراتب التمام.

(١١) المرجع السابق ص ١٤١

(١٢) كتاب - ص ١٤٣

عبد الحسين بن وهب (ت ٣٣٧ هـ) قد أضاف "حسن النظام" إلى حد البلاغة: قال: "وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها، وذكر الجاحظ كثيراً مما وصفت به، وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدها، وحدها عندنا: القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان... وزدنا حسن النظام: لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الأتى على المعنى ولا يحسن ترتيب ألفاظه، وتصيير كل واحدة مع ما يشاكلها، فلا يقع ذلك موقمه"^(١١).

ويضرب ابن وهب على المشاكلة مثلاً في قوله: "أين من سمي واجتهد، وجمع وعدد، وزخرف ونجد، وبني وشهد"؟ - فأتبع كل حرف بما هو من جنسه، وما يحسن معه نظمه، ولم يقل: "أين من سمي ونجد، وزخرف وشهد، وبني وعدد". ولو قال ذلك لكان كلاماً مفهوماً، ومن قائله مستقيماً، وكان مع ذلك فاسد النظم، قبيح التأليف"^(١٢).

لعل كلام ابن وهب في علاقة المشاكلة المنوية يؤكد مقولة ليمانوفسكى أن الحبك شرط لفوي يسهم في فهم السبك فهما أعمق. إذا كانت العلاقة بين "بني وشهد" علاقة المشاكلة بين عنصري عبارة، فلا وجود لمثل هذه المشاكلة إذا دخل في العبارة نفسها أحد هذين العنصرين مع آخر من عبارة أخرى. سوف يفهم السبك - على معنى جودة التأليف - إذا تقاب الارتباط الدلالي بين المطوف والمطوف عليه. والتميز في هذه الحال لا يتكون بين كلام مفهم وآخر غير مفهم، ولكنه سيكون بين كلام مفهم وآخر مفهم مسبولك محبوبك.

وكان ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) قد أطلق على مثال ابن وهب السابق اسم "المتناسب". وفسره بإتباع كل لفظة ما يشاكلها، وقرنها بما يشبهها"^(١٣).

(هـ) ويقول أسامة بن منقذ (ت حوالي ٥٢٠ هـ): "وأما السبك فهو أن يتعلق بكلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى آخره، كقول زهير:

(١١) ابن وهب (ت ٣٣٧ هـ) حسن إسحاق بن إبراهيم بن سنيان بن وهب الكاتب (ت ٤٠٠ هـ) في الجزء الثاني، تحقيق د. أحمد مطبوع، دار صانعة خديجة، ساعدت جامعة بغداد، ط ١ (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م)، ص ١٦٣.

(١٢) المرجع السابق، ص ١٦٤.
(١٣) ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) في الجزء الثاني، ص ١٦٤، تحقيق محمد عبد الحليم، دار صانعة خديجة، ط ١ (١٩٦٧ م)، ص ٢٤٨.

بطعنهم ما ارتعوا، حتى إذا طمنوا ضارب، حتى إذا ما ضاربوا عتقا
ولهذا قال: خير الكلام المحبوك المسبوك الذي يأخذ بعضه برقاب
بعض^{١٦٦}.

هذا النص من النصوص المهمة في تعريف السبك ولعل في كلام أسامة
وفي شاهده ما يرجح استنباط اشتغال السبك عنده على التعلق النحوي
والمعجمي معا. والسبك المعجمي هو - كما نعرف - النوع الأخير من أنواع
السبك عند هالهداي. ولعل في قوله خير الكلام المحبوك المسبوك ما ينبه
إلى وعيه بأثر معيارى الحبك والسبك بخاصة في صناعة الكلام أو النص،
فضلا عما يمكن أن يلمح إليه تقديم الحبك من عناية واهتمام.

وتذكر ثنائية السبك والحبك عند أسامة بثنائية الجسم والروح عند ابن
طباطبا. إذا كان السبك جسم الكلام فالحبك روحه. الجسم اللفظ والروح
المعنى. اللفظ إتيان والمعنى إبداع. وواجب على صانع الكلام تحسين الجسم
وتحقيق الروح. يقول ابن طباطبا: "فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة
متقنة لطيفة مقبولة مستحسنة مجتلية لمحبة السامع له والنظر بمقله إليه...
فيحسنه جسما ويحققه روحا؛ أي يتقنه لفظا ويبدعه معنى"^{١٦٧}.

(و) ويمبر ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ) عن فمكرة المشاكلة عند أبي
هلال أو التماسب عند ابن رشيق، باسم "المواخاة بين المعاني". ولا شك أن
المشاكلة والتماسب والمواخاة عند هؤلاء جميعا، إنما هي مظاهر للحبك في
مصطلح أسامة. ما معنى المواخاة بين المعاني عند ابن الأثير؟ يقول ابن الأثير:
"أما المواخاة بين المعاني، فهو أن يذكر المعنى مع أخيه، لا مع الأجنبي. مثاله
أن تذكر وصفا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به. فإن ذكرته مع
ما يبعد منه كان ذلك قدحا في الصناعة، وإن كان جائزا. فمن ذلك قول
الكميت:

أم هل ظمائن بالعلاء راقعة وإن تكامل فيها الدل والشنب

^{١٦٦} من بعد أسامة (الدمع في غن الشعر، لطف بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم مصطفى

وزارة اللغة والإرشاد لغوي، ج ١، ص ١٦٦

^{١٦٧} ابن الأثير، معجم ص ١٠٣

عبد الله يذكر مع المعج وما تشبه والنسب يذكر مع النفس وما تشبه وهذا موضع يلمح فيه أرباب النظم والنثر كثيرا وهو مطن الغلط: لأنه يحتاج إلى ناقد ففكرة وحدق. بحيث توضع المعاني مع أخواتها لا مع الأجنبي منها^{١١١}.

وقد عاب ابن الأثير على بعض الشعراء تباعدهم في القول وأنهم لا يراعون المواخاة بين المعاني. لاحظ ابن الأثير أن أبا نواس "يقع في ذلك كثيرا"^{١١٢} من ذلك مثلا قول أبي نواس في وصف الديك:

له اعتدال وانتصاب قد وجسده يشبه وشى الجرد

كانه الهداب في الفرند محدودب الظهر ككريم الجد

قال ابن الأثير: "فإنه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجد، وهذا لا يناسب هذا: لأن الظهر من جملة الخلق، والجد من النسب. وكان ينبغي أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويؤاخره"^{١١٣}. لم تطرد لأبي نواس القضية المذكورة في البيت، ولم يحسن أن يربط بين عناصرها؛ فافسد مبدأ انتظام المعنى الذي هو قوام الحبكة في نظرية النص المعاصرة والذي سبق إليه ابن طباطبا في عياره.

وقد نظر ابن الأثير - في موضع آخر - إلى ما أسماه بـ "الملازمة" و"المناسبة" من منظور مقابلة الجملة بالجملة، والمقابلة فن بديهي يقوم على علاقة دلالية بين المنطوقات هي علاقة "التقابل". ضرب ابن الأثير على ذلك مثلا من الشعر قول أبي الطيب:

وقفت وما في الموت شك لواقف ككأنك في جفن الردى وهو نائم

تصربك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وضاح وثفرك باسم

قال ابن الأثير: "وقد أخذ على ذلك، وقيل: لو جعل آخر البيت الأول آخرًا للبيت الثاني وآخر البيت الثاني آخرًا للبيت الأول لسكان أولى."

(١١١) ابن الأثير (صحة المعنى) مثل الشاعر نفسه وعقل منه د عبد الحوي ود. حوي طينة، دار حصة مصر للطبع والنشر - القاهرة ١٩٤٣. نشب برود وعذوبة في الأسب والفلس ميوات مستحسن في اللغة

(١١٢) المرجع السابق ١٩٤٣

(١١٣) المرجع نفسه ١٩٤٣. قد توضع أحسن من هذه المواخاة بين عناصر في شعر أبي نواس ١٩٤٣ - ١٩٤٦

ولذلك حكاية، وهي أنه لما استشهد سيف الدولة يوماً قصيدته التي أولها: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم". فلما بلغ إلى هذين البيتين قال: قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرئ القيس قوله:

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كعابياً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أفل لخيلى كبرى ككرة بعد إجمال
فبيتك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتى امرئ القيس،
وكان ينبغي لك أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثفرك باسم
تمر بك الأبطال كلهم هزيمة كأنك في جفن الردى وهو

فقال المتبى: إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا. ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك؛ لأن البزاز يعرف جملة والحائك يعرف تفاصيله، وإنما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن الساحة بسبأ الخمر للأضياف الشجاعة في منازلة الأعداء. وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره؛ ليكون أحسن تلازماً. ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوساً وعينه باكية، قلت: ووجهك وضاح وثفرك باسم؛ لأجمع بين الأضداد¹¹.

والحق أن تأمل شعر أبي الطيب يدلنا على أن أحداً من الشعراء لم يبلغ في الجمع بين الأضداد مبلغه على الإطلاق. ولعله فنه الأول الذي يتودع مع فنون أخرى - إلى القول بتميزه بإحساس عال في رعاية الموقف. على أن الذي يعيننا هنا أن الحكاية السابقة تبرهن على أن ملاحظة الموامة المنوية بين المنطوقات والمفاهيم تحوج إلى تأمل وإرهاق فكري. وقد بلغ أمر الموامة في إطار تقابل المعاني عند ابن الأثير مبلغاً حداً به إلى أن يقول: "وهذا الباب ليس في علم البيان أكثر منه تقماً ولا أعظم فائدة"¹².

فضلاً عما سبق، فإن أكثر ما استبطه البلاغيون من كلام العرب من

¹¹ نيل لسان ١٦٥٣، ١٦٦٠.

¹² المرجع السابق ١٦٤٣.

مفهوم "البدعي" المتعلقة بالمعنى. إنما تظهر علاقات دلالية مختلفة بين المنطوقات والمفاهيم، يتحقق عن طريقها الحيك، يدل التفریق وجمع المولف والمختلف على علاقة المقارنة، ويدل الرجوع والمقابلة والمكسك والتبدیل على علاقة التقابل ويدل التفسير والتقسيم واللف والنشر على علاقة التسمية في هيئة: الإجمال - التفصیل، ويدل الاستشهاد والاحتجاج على علاقة منطقية في هيئة: الشرط - الجواب... الخ. سبق دكتور جميل عبد المجید إلى محاولة ربط الفنون البديعية المنوية بالملاقات الدلالية التي تناسبها عند يوجين نايدا Eugene Nida في بحثه: "العلاقات الدلالية بين الأبنية النووية Semantic Relations between Nuclear Structures"⁽¹⁾.

ولكن فانه عدد غير قليل من تلك الفنون البديعية المنوية التي نرى لها اثرا مباشرا في تحقيق الحيك بين منطوقين أو أكثر: كالسلب والإيجاب، والاستشهاد والاحتجاج.

السلب والإيجاب أن تبنى الكلام على نفس الشيء من جهة وإثباته من جهة أخرى أو الأمر به في جهة والنهي عنه في جهة، وما يجري مجرى ذلك: كقوله تعالى: "فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا" (الإسراء: ٢٢) ومثاله من النثر قول الشعبي للحجاج: "لا تعجب من المخطيء كيف أخطأ، واعجب من المصيب كيف أصاب"⁽²⁾.

يظهر السلب والإيجاب علاقة دلالية ثنائية تقابلية. أما الاستشهاد والاحتجاج، فإن تأتي بمعنى ثم تؤكد به معنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته. من شواهده الشعرية عند أبي هلال قول الشاعر:

إنما يمشق المنايا من الأف حوام من كان عاشقا للمعال
وكذاك الرماح أول ما يك سره منهن في الحروب الموال⁽³⁾

(1) راجع حين عبد المجيد (دكتور) السبع بين اللغة العربية واللسانيات العبية، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٤م ص ١٤٣ ود حسنا

(2) كتاب الحجاج ص ١٠٤

(3) راجع شعر ص ١

وقد سبقت الإشارة إلى أن الاستشهاد والاحتجاج ينبغي له أن يكشف عن علاقة دلالية رابطة ثنائية قائمة على المقارنة.

حصول ما سبق أن القدماء - في إطار مبحث صناعة الكلام ونحوه - قد برهنوا على إمكانية خاصيتي السبك والحبك اللغويين. خير الكلام عندهم المسبوك المحبوك. تجاوزت هذه المقولة حد النظر إلى التطبيق. أسوق مثالا على ذلك ما انتهى إليه الأمدي (ت ٢٧٠هـ) في إطار وقوفه على خطاب شاعري موازنه أبي تمام (ت ٣٣١هـ) والبحثري (ت ٢٨٤هـ). يقول الأمدي: "وإذا جاء لطيف المعاني في غير ملامعة ولا سبك جيد ولا لفظ حسن، كان ذلك مثل الطراز الجديد على الثوب الخلق، أو نقت المبير على خد الجارية القبيحة الوجه"^(١).

دل القدماء على خاصية الحبك اختصارا ، ولكنهم أفاضوا - إلى حد ما - فيما يمد من مظاهره. أحص بالذکر هنا مظهر التجانس ومظهر انتظام المعاني عبروا عن التجانس بين عناصر المنطوق الواحد أو بين المنطوقين المتواليين بمفاهيم عدة كالمشاكلة والموامة والتناسب والمواخاة وغيرها. وأما المظهر الآخر فقد عبروا عنه بانتظام المعاني واتصال الكلام على نحو ما رأينا عند ابن طباطبا.

يمكن أن نجد لمبدأ انتظام المعاني صدي في تحليل الخطاب الشمري عند الأمدي أيضا. أضرب مثلا على ذلك بما قاله عن هذا المطلع للبحثري :

هب الدار ردت رجع ما أنت سائله

وأبدي الجواب الربيع عما تسألته

قال الأمدي: " وهذا بيت غير جيد؛ لأن عجز البيت مثل صدره سواء في المعنى، وسكانته بني الأمر على أن الدار غير الربيع، وأن السؤال إن وقع وقع في محلين اثنين"^(٢). لم ينظم المعنى فيما سبق، ولم يتصل الكلام في العجز والصدر اتصالا يدفع إلى توالي المعلومات وتسلسلها والانتقال من مذكور إلى جديد، إنما سكن المعنى على المصراع الأول.

(١) الأمدي - حيدرآباد - ص ١٠٠ - حاشية على قوله "والبحثري". نضج ونعقد محمد هي نعت محمد بن أحمد.

(٢) ابن طوطم - ص ١٠٠ - حاشية على قوله "وأن السؤال إن وقع وقع في محلين اثنين".

١٠٠ - حاشية على قوله "وأن السؤال إن وقع وقع في محلين اثنين".

جميعة الأمر هما ينبغي لها أن تكون استقلال البيت عن غيره من حيث هو وحدة تركيبية ومعموية. لها كيانها الخاص، ولكنه الكيان الخاص الذي يتصل بما قبله وما بعده - داخل وحدة النص العامة أو وحدة المقطع من النص على الأقل - اتصال الجزء بالكل يؤكد ذلك على مستوي النظر رؤية ابن خلدون نفسه القصيدة سلسلة متصلة تبني فيها المقاصد والمناهي على التناصب: "ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود، بأن يوطئه المقصود الأول ومنايه إلى أن تناسب المقصود الثاني، ويبدأ الكلام عن الناهر"¹¹.

في تحليل بنية النص من منظور الحيك (أو التناصب) وقف القدماء على الابتداء والتخلص والانتهاى من حيث هي مؤشرات بثانية خاصة في نسيج النص الشمري والنثري جميعاً.

وقد زادوا على ذلك اختبار مدى رعاية التناصب بين وحدات النص المختلفة في هيئة المقاطع أو ما سمي بالفواصل، فضلاً عن رعاية التناصب بين أبيات الفصل الواحد.

وقد رأيت أن أفرد لمعيار التناصب عند حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) منظوراً إليه من خلال بنية النص الشمري الكامل - جزءاً خاصاً من هذه الدراسة؛ وذلك أن آراءه ومنظوراته إلى ذلك المعيار يرتبط بعضها ببعض ويكمل بعضها بعضاً، لاسيما أن الأمر عنده قد تجاوز الملاحظة والوصف العاجلين إلى التقنين والتأصيل النظري المتأني.

(١) بنية النص من منظور الحيك قبل حازم :

بمنها هنا أمران اثنان: أحدهما معرفة الشروط التي أوجب القدماء توفرها في شكل من الابتداء والتخلص والانتهاى، لاسيما ما يتصل منها بالنثري. والأمر الآخر هو محاولة استخلاص المبادئ الجوهرية التي وجهت علاقة شكل من الابتداء والتخلص والانتهاى، بسائر أجزاء النص تحقيقاً للترايب المنسجم، فيما ينب وإحدى العلاقات شطبية التي تنس وحدتها الدلالية.

١ - الابتداء :

هو 'الابتداء' والابتداء والفتحة والافتتاح والمفتتح والاستفتاح والمقدمة والتصدير والمطلع والاستهلال. لعل أقدم الإشارات إلى بلاغة الابتداء ما أورده الجاحظ عن عبد الله بن المقفع (ت ١٤٢هـ) وشيبه بن شيبه. جعل ابن المقفع البلاغة اسماً جامعاً لمعان تجري في وجوه كثيرة وذكر من هذه الوجوه ما يكون في الابتداء^(١). وروى الجاحظ عن شيبه قوله: 'الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء، ويمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة المطلع ويمدح صاحبه'^(٢). ولعل إشارة الجاحظ إلى العلاقة بين 'دقة المدخل' و'إظهار المعنى'^(٣) أولى بأن تتصرف إلى الابتداء.

الابتداء هو الوحدة البنائية الأولى من النص. وهي وحدة سمعية ومعنوية تتح للخطاب قناة الاتصال. إذا كان الشعر قفل، فأوله - كما يقول ابن رشيق - مفتاحه. وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره؛ فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة^(٤). عرف هذه الحقيقة منتجو النصوص ومطلوها جميعاً. وليس كلام ابن شيبه السابق مما يحمل على مقصد إضماض شأن الابتداء، لكنه ميل خاص به إلى مؤشر بنائي آخر من الكلام يري له شأنًا أخطر. لقد عرف ابن شيبه نفسه - كما أخبرنا الجاحظ - بحلاوة الابتداء ورشاقته وسهولته وعذوبته^(٥).

كان حسن الابتداء من معايير تحليل النص الأدبي عند القدماء. بحسن الابتداء يتمايز الشعراء. شهر شعراء كثيرون به، من طليعتهم أبو الطيب وأبو تمام وأبو نواس والبحتري. يرى ابن رشيق أن جودة الابتداء من أجل معاسن أبي الطيب وأشرف مآثر شعره^(٦). ويطلب القاضي الجرجاني أن يفتخر لأبي الطيب ما عيب من ابتداءاته؛ لما له من ابتداءات كثيرة حسنة^(٧).

(١) البهيد والنهي ١ - ١١٤ - ١١٤

(٢) المرجع السابق ١ - ١١٢

(٣) المرجع نفسه ١ - ٧٤

(٤) الحماسة ١ - ٢١٤

(٥) من وبتبيين ١ - ١١٢

(٦) الحماسة ١ - ٢١٢

(٧) جرجاني ١ - تقديمه وهو جرجاني ١ - ١١٤ - ١١٤

١١٤ - ١١٤ - ١١٤

١١٤ - ١١٤ - ١١٤

السؤال الآن : ما شروط المبدأ المستحسن عند القدماء ؟ أشير إلى أن ما قرره القدماء نصاً لا يأتي على جميع الشروط التي رغبوا في توفيرها في المبدأ . إذا كانت تلك الشروط ملفوظة ، فهناك شروط أخرى ملحوظة مما ضربوه من أمثلة وشواهد ينبغي لها أن تؤخذ في الحسبان . يتيح لنا الأمر أن نصنف تلك الشروط جميعها على النحو التالي :

(الشروط الأول) شرط الصياغة : ويقصد به حسن اختيار اللفظ وصحة السبك جميعاً . وينبغي أن يضاف إلى شرط الصياغة اعتبارات أسلوبية أخرى : مثل تجنب الحشو ، وتجنب المعاطلة ونحوهما .

(الشروط الثاني) الشرط المعنوي : ويقصد به وضوح المعنى ، وارتباط المبدأ بما بعده ودلالته عليه في الوقت نفسه . وسوف نفصل ذلك .

(الشروط الثالث) الشرط المقامي : ويقصد به - من خلال ملاحظاتهم المتفرقة - أمور عدة ، نوجزها فيما يلي :

(أولاً) رعاية حال المخاطب : فإذا خرج المبدأ عن ذلك المعيار كان معيباً . من أجل ذلك عيب مثلاً مطلع قصيدة للبحرني في مدح أبي الحسن عبد الملك بن صالح الهاشمي . وهو قوله :

فواد ملاء الحزن حتي تصدعا

وعينان قال الشوقي ، جوداً ممأ ممأ ممأ

قال ضياء الدين بن الأثير :^١ وكذلك استقبح قول البحرني " فواد ملاء . . . البيت " . فإن ابتداء المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها السمع . وهو أجدر بأن يكون ابتداء مرثية لا مديح^٢ .

لا شك أن المخاطب كان قد هيا نفسه في هذا الوقت أن يسمعه البحرني ما يروقه وما تسر به نفسه ، فلم يراع البحرني حاله ، وهاجأ بما يناسب الرثاء من كلام عن فواد حزين وعينين تجردان بالدمع . وكان ابن رشيق قد التفت إلى زمن الخطاب وحال المخاطب وجمل رعاية الأمرين من الفطنة والحذق ، يقول :^٣ " والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها ، وينظر في أحوال المخاطبين ، فيقصد معابهم ، ويميل إلي شهواتهم وإن خالفت شهوته ،

(١) لسان المستتر ١١٠٣

يبتعد ما يحكمهون سماعه . فبهتت ذكوره

(ثانيا) رعاية الدور الاجتماعي للمحاضِب: وقد عبر ابن طباطبا عن هذا التمييز ناشطراؤه أن يعد المتكلم " لكل طبقا ما يشاكلها. حتى تكون الاستفادة من عقله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداع نظمه"^{١١}.

(ثالثا) رعاية الموقف الخارجي: فإذا كانت القصيدة في حادثة من الحوادث، كفتح معقل أو هزيمة جيش ونحو ذلك، فإنه لا ينبغي للشاعر أن يبدأ فيها بنزل. وقد أصاب ابن الأثير حين ربط بين بدء الشاعر - في مثل هذه الحال - بالنزل وبين جهله بوضع الكلام في مواضعه"^{١٢}. ينصرف ذلك إلي معنى جهله بتقدير الموقف الاتصالي الخارجي وما يناسبه من كلام .

السؤال الأهم الآن: ما المبادئ الجوهرية التي تستخلص من كلامهم عن علاقة المبدأ بما بعده والتي تتصل بخاصية الحبكة التنصي اتصالا مباشرا ؟

يمكن القول بأن القانون الدلالي الجوهرية الذي يحكم علاقة المبدأ بما بعده هو ما عبر عنه ابن رشيق بقوله: " أن يكون دالا علي ما بعده"^{١٣}. أجمل ابن رشيق القانون السابق إجمالا. وفي كلام ابن الأثير - في صدر فصله عن " المبادئ والافتتاحات " - ما نراه تفصيلا لذلك أنجمل يقول ابن الأثير: " وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من هذا الكلام: إن كان فتحا ففتح، وإن كان هناه فهناه، أو عزاء فعزاء. وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني. وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به، ولم هذا النوع"^{١٤}.

دلالة المبدأ علي ما بعده ثماني بالضرورة تحقق المناسبة المعنوية بينهما. وقد أبو القاسم الكلاعي (ت ٥٥٠هـ) علي ملاحظة هذه المناسبة بين الرسائل ومصدرها. عرض الكلاعي طائفة من صدور الرسائل التي شدها

١١ - قصيدة ١٠٠٣

١٢ - ص ٩٠

١٣ - ص ٩٠ - ٩١

١٤ - ص ٩١

ص ٩١

انتاسب إلى الإنباء عن المضمون وطبقة المحاطبه نلحظ ذلك من تأمل الصدور التالية :

- اطال الله بقاء أمير المؤمنين (مخاطبة الأمراء).
- أما بعد، أحسن توفيقك، ونهج إلي الرشد طريقك (يكتب به عن الأمراء إلي من مرق عن الطاعة).
- سلام علي من اتبع الهدى وتجنب سبل الضلالة والهوى (يستفتح به عنهم إلي زعماء الروم).
- أمدك الله أيها الولي الأخص والخليل الأخص بالتقوى (يكتب به عنهم إلي القضاة والفقهاء).

- كتابنا، أمدك الله بتقواه (يكتب به عنهم إلي سائر العمال).

- يابنى، ومن سلمه الله وأبقاه (يكتب به الأب إلي ولده).

- يا مولاي وجمال دنياي (يكتب به الولد إلي والده) ^{١١}.

ويري أبو الفتح عثمان بن جنس (ت ٣٩٢هـ) أن من الحقن أن يشير المرسل إلي تحميده إلى الغرض من الرسالة: " وإذا كان المرسل حاذقا أشار إلي تحميده إلي ما جاء بالرسالة من أجله " ^{١٢}. والكلاعي علي رأي أبي الفتح ^{١٣}. وقد جرى مجراهما ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ). يرى ابن الأثير أن " المناسبة المعنوية " من أوسد أركان الكتابة. وقد أخذ علي أبي إسحق الصابي إخلاله كثيرا بهذا الركن: وذلك أنه يأتي بتحميده إلي الكتاب من المكتب السلطانية، لا تكون مناسبة لمعني ذلك الكتاب.

من أمثلة ابن الأثير علي ذلك ما كتبه أبو إسحق إلي ابتداء كتاب عن فتح بغداد وهزيمة الأتراك عنها، وكان فتحا عظيما: " الحمد لله رب العالمين، الملك الحق المبين، الوحيد الفريد، العلي المجيد، الذي لا يوصف إلا بسلب الصفات ولا ينمت إلا برفع النعوت، الأزلي بلا انتهاء... الخ " قال ابن الأثير مقبلا: " وهذه التحميده لا تناسب الكتاب الذي افتتح بها. ولكنها

١١ الكلاعي (الترجمة محمد بن عبد لغوي) بحكمه صفة الكلام حنفة وفدولة د. محمد رشيد رضا لعدة طواف
تكتب: ط ١١٠٥١٩ عدد ١١٠٥١٩ - ١٩٩٢ ص ٦٩

١٢ يرجع لسائق ص ٧٥

١٣ يرجع عنه ص ٧٦

سجح - يوسع به تسمير مصنف من مصنفات أقوال تدين - وإما - يوسع به صدر صفات فتح فلا

وقوف ابن الأثير علي مثال النموذج السابق دليل علي ندرة وقوعه. كان اعتماد بين كبار المشنقين رعاية المناسبة المعنوية بين الابتداء ومضمون لرسالة وعلي ككل حال. فإن عناية أبي القاسم الكلاعي وابن الأثير بالنظر في إنشاء الرسائل من منظور المناسبة المعنوية، دليل عملي بين علي وعيهما بخصوصية العبك النصي. في مقابل نموذج أبي إسحق الصابي نرى نماذج عدة عند الكلاعي وابن الأثير روعيت فيها المناسبة. من نماذج الكلاعي ابتداء رسالة نحمد بن عبد الله أبي جعفر المشهور بابن عبد كان (ت ٢٧٠هـ) جمع فيها ذكر استقامة الحال بين أبي الحسن خمارويه (ت ٢٨٢هـ) وبين المتضد أحمد بن طلحة الخليفة العباسي (ت ٢٨٩هـ)، وهو قوله: "الحمد لله مقلب القلوب، وعلام الثيوب، الجاعل بعد عسر يسرا، وبعد تحارب اجتماعاً".

٢ - التخلص :

هو التخلص والخروج والتوسل. قال ابن رشيق: "ومن الناس من يسمي الخروج تخلصاً وتوسلاً".

لعل التخلص أسبق من غيره استخداماً. ولعل أقدم إشارة إلى التخلص ما جاء في كلام شامة بن أشرس (ت ٢١٢هـ): "ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتوقف، ولا يتلجلج ولا يتحنح، ولا يرتقب لفظاً قد استدعاء من بعد، ولا يلمس التخلص إلى معني قد تمس عليه طلبه، أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً، من جعفر بن يحيى".^(١) وجعفر بن يحيى هذا، هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، من كبار البرامكة الذين قتلهم الرشيد. ويستنتج من ربط التخلص بالمتحدث عنه عموم التخلص في ككل كلام. وأنه ليس وفقاً على الشعر. وإن عالجه أكثر القدماء من خلال نماذج شعرية.

أما اصطلاح "الخروج" فلعل أقدم إشارة ترجع إلى أبي العباس ثعلب

^(١) ابن جرير ١٠٠٠

^(٢) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ١٠٠٠

^(٣) ابن جرير ١٠٠٠

رب " هـ في صفاته هم عبد الشعر وقد نعه في استخدام الخروج " عبد
لنه " نعتن (ت: ٢٩٦هـ) الذي جعل حسن الخروج " من أنواع الالتفات. ومن
شاهد حسن الخروج عند ابن المعتز قول أبي العتاهية :

وأحببت من حبها الباخلين حتى ومقت ابن سلم سميداً

إذا سئل عرفاً فكما وجهه ثاباً من المنع صفراً وسوداً^(١).

رادف الخروج التخلص عند غير واحد من القدماء. ومنهم ابن طباطبا
والقاضي الجرجاني. ولكن يحيى بن حمزة يستخدم التخلص، كما
يستخدم أبو هلال وابن رشيق الخروج غالباً.

عرف التخلص في غير الشعر. وقع التخلص في النص القرآني. ممن عنوا
بالتخلص في القرآن يحيى بن حمزة الملوي (ت ٧٤٥هـ). التخلص عنده " عبارة
عن الخروج إلى المقصد المطلوب عقيب ما ذكره من قبل. ومثاله قوله تعالى
من سورة المدثر: " يا أيها المدثر قم فأنذر "، ثم تخلص بعد ذلك إلى ما هو
المقصود بقوله: " ذرني ومن خلقت وحيداً "؛ فلما انقطع الرسول بالأمر
بالإنذار. عقبه بالوعيد الشديد للوليد بن المغيرة بقوله: " ذرني ومن خلقت
وحيداً " إلى آخر الآيات. وهكذا في كل سورة تجده يتخلص إلى المقصود
بأعجب خلاص^(٢).

عنى أبو القاسم الكلاعي ببيان التخلص في الرسائل. أفرد الكلاعي
بإحكامه فصلاً بعنوان " في التخلص من الصدور إلى الفرض المذكور ".
الرسالة - في رأيه - ابتداء خطاب أو رد جواب. مما توصلوا به من الألفاظ في
ابتداء الخطاب إلى غرض الكتاب :

❖ قولهم " كتبت "، مثل: كتبت وقد هبت ريح النصر من مهبها،
والأرض مشرقة بنور ربها^(٣).

❖ أو " كتابي "، مثل: كتابي أطال الله بقاء الأمير، ويودى أن أكونه
فأسعد به دونه^(٤).

(١) ابن المعتز (ت: ٢٩٦هـ) كتاب الفصح، ص ١٠٠، مثل هذه الصيغة في تشيعي دار الحديث - بيروت - ط ١٩٦٣.

(٢) ابن المعتز (ت: ٢٩٦هـ) كتاب الفصح، ص ١٠٠.

(٣) ابن المعتز (ت: ٢٩٦هـ) كتاب الفصح، ص ١٠٠.

ومما توصلوا به من الألفاظ في رد الجواب إلى غرض الكتاب :

- ♦ قولهم " ألقى " . مثل : " إنه ألقى كتاب ككريم " عنوانه جسيم ... "
- ♦ " أو وصل " . مثل : " وصل - وصل الله سمده ، وأمل مجده - " كتابه الككريم " .^(١)

ارتبط التخلص في الشعر بطراز القصيدة المركبة ، وهو الطراز الذي ألقه الذوق العربي ، ومن ثم كانت هيمنته في الشعر العربي القديم . وكان القدماء على صوت واحد في استحسان التوزيع في الأغراض في النص الشعري الواحد ، منذ أن قال الجاحظ " متي لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع " .^(٢)

أضرت القصيدة المركبة في الجاهلية قوالب لقوية للتخلص من غرض إلى غرض ؛ نحو : " دع ذا " و " عد عن ذا " . وربما تركوا المني الأول ، وقالوا " وعيس " أو " وهوجاء " وما أشبه ذلك . وإذا أرادوا ذكر المندوح قالوا : " إلى فلان " وأخذوا في مديحه . وربما تركوا المني الأول وأخذوا في الثاني من غير أن يستعملوا مثل تلك القوالب ؛ وهو ما عرف باسم " الطفر " أو " الانقطاع " ، وهو ما ظل عند بعض العباسيين كالمبصري^(٣) . غير أن الموازنة بين الشعر العباسي وما قبله ، من حيث استعمال الخروج ، تكشف عن صحة ما انتهى إليه ابن طباطبا وأبو هلال المسكوكي . لاحظ ابن طباطبا أن العباسيين قد لطفوا القول في معنى التخلص إلى المعاني التي أرادوها^(٤) . وكذلك لاحظ أبو هلال أن الخروج المتصل بما قبله كان قليلاً قبل شعراء العصر العباسي ، ولكن العباسيين قد أكثروا من الخروج المتصل^(٥) .

السؤال المهم الآن ؛ ما القانون الدلالي الذي يحكم التخلص تحقيقاً

لخاصية الهيكل النحوي ؟

لعل ابن طباطبا خبير من وضع يده على هذا القانون من القدماء قبل حازم .

(١) إحصاء صفة الكلام ص ٧٨ - ٧٩

(٢) البيان والتنوير / ١ - ٢٠٦

(٣) راجع المندوح / ١ - ٢٣٩

(٤) صغر الشعر ص ١٨٧

(٥) كتاب الصائغين ص ١٤٣ - ١٤٤

ويمكن اختصاره فيما يلي

- أن يصل المتكلم كلامه صلة لطيفة . ويبان ذلك عند ابن طباطبا في موضعين من عبارات يقول ابن طباطبا في الموضع الأول، وهو من باب بناء القصيدة: " ويسلك (بمعنى الشاعر) منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم في مكاتباتهم: فإن للشعر فصولا كفنصول الرسائل، فيحتاج الشاعر أن يصل كلامه - على تصرفه في فنونه - صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المدح، ومن المدح إلى الشكوى، ومن الشكوى إلى الاستماعة، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفهيلة والنوق... بالكطف تخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متصلا به ومتمزجا معه"^(١).

أما الموضع الثاني، فيقول فيه: " ويكون خروج الشاعر من كل معنى يضيفه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً؛ حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراساً... لا تناقض في معانيها، ولا وهي في مبانيتها، ولا تكلف في نسجها، تتضمي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقاً بها مفتقراً إليها"^(٢).

من كلام ابن طباطبا في الموضعين السابقين يمكن أن نلاحظ ما يلي:

١- أن قياس فنون الشعر على فنون الرسائل، يعني النظر إلى تعدد الأغراض بالقصيدة المركبة كتعدد محاور الخطاب بالرسالة. ولكن الذي يبدو لنا أن تعدد محاور الخطاب بالرسالة من تحميد إلى دعاء إلى أمر بفعل شيء... الخ، ليس كتعدد في القصيدة المركبة، التماسق بين المقاصد في الرسالة أشد قوة منه بين الأغراض في القصيدة المركبة. ولعل تقاليد النظم قد جعلت تعدد الأغراض على النحو الذي نعرفه أمراً مألوفاً بين المرسلين والمستقبلين جميعاً. من ناحية أخرى، جعلت تلك التقاليد لتوالي الأغراض - في الوقت نفسه - نظاماً لا يخرج عنه الشاعر عادة^(٣)، وهو نظام نرى له وجهاً

(١) مبر الشعر ص ٩

(٢) المرجع السابق ص ١١٢

(٣) ما لا يخفى من وثيق من خروج أي قام في قصيدته وسطه حسب إلى مدح، ثم عزت إلى ما كان فيه من حسب، ثم رجعت إلى المدح، مع من الخروج حسب - لأنهم، فذكر من مدح فخرجت لشعوره. أ. راسخ

(المجلد ١/ ٢٢٨ - ٢٢٩)

من المندسة حينما يوضئ الشعر لندوة في ظروف العادية - حول رقيق تشط به النفس لسماعه، أو حينما يخرج من مدحه إلى استماحتة عدرا هيم وشى به الواشون ... الخ. هذه وجوه للمناسبة، أفضحت لها تقاليد النظم عند العرب مجالا للقبول. نرى كثيراً من الشعراء يخرجون في قصائدهم المركبة من الافتخار إلى اقتصاص مآثر الأسلاف. ولكننا لم نسمع بشاعر خرج مثلاً من الافتخار إلى وصف الجنادب والحرايب. مازال هناك نظام يجعل بين توالي الأغراض وجوهاً للمناسبة.

ومهما يكن من أمر، فإن قياس الشعر على الرسائل، يعني أن التخلص غير مرتبط بجنس أدبي دون غيره؛ هو عام في كل كلام، مادامت الحاجة فيه إلى أكثر من فصل: شعراً أو رسالة أو غيرهما. القصيدة في كلام ابن طباطبا إذا نموذج على كل نص. المهم حسن التصرف ولطف الصلة بين أجزائه، حتى لا تؤدي إلى خطاب مفكك الأوصال مبني ومعني.

٢- يفهم محمد خطابي كلمة "المعني" في كلام ابن طباطبا على أنها تعني "الفرض" أو "الغن": يقول: "على أن المعني هنا ينبغي أن يفهم في سياقه، إذ المقصود به، في نظرنا، الفرض أو الغن، مادام الحديث متمركزاً هنا على اتصال فصول القصيدة"^{١١١}.

والحق أن ابن طباطبا نفسه قد ذكر - في نصح الأول - كلمة "غن" صراحة. وسياق كلامه كاملاً يجعل "المعني" عنده مقصوداً به الفرض أو الفرع من فروعه؛ وذلك أن التخلص من غزل إلى مديح تخلص من غرض إلى غرض، ولكن التخلص من وصف الديار والآثار إلى وصف الفهالة والتوق هو تخلص من فرع لفرض الوصف إلى فرع آخر.

٣ - إذا كانت وظيفة التخلص الأولية وظيفية ممنوية؛ هي حبك معني بمعنى أو غرض بفرض، فقد لمح ابن طباطبا للتخلص وظيفية بنائية؛ هي أن يصل منطوق التخلص بين بيت وبيت. في ضوء ذلك نفهم كلامه عن دور التخلص في الحصول على قصيدة (وبالتالي أي نص) مفرغة إفراعاً، خال نسخها من التكلف، من ناحية أخرى، غاب كلامه عن قصيدة خال نسخها من التكلف، تقتضي كل كلمة منها ما بعدها، وتتعلق ما بعدها بها؛ إنما

١١١ محمد حنفي، رسائل النضر، الفرق: جمال العربي، ج ١ - دار البيضاء، ١٩٩١، ص ١١١.

قد كثر ما غلبه من أخص التحصن لحقيقي ليس في لطفه في ذاته
محسباً، إنما يسمي للشاعر (وبالتالي لكل متكلم) أن يتلطف في حمل ما
قبل التحصن مناسب مموياً بما بعده بوجه من الوجوه.

وربما ناسب الشاعر بين ما قبل التحصن وما بعده، ولكن التحصن ذاته
يبدو معيباً، من ذلك التخلص التالي في قول أبي الطيب :

ها ها نظري أو فظني بي ترى حرقاً من لم يذق طرفاً منها فقد وآلا
عل الأمير يري ذلي فوشفع لي إلى التي تركتني في الهوى مثلاً^(١١)
قال ابن رشيق: " فقد تمنى أن يكون له الأمير قواداً^(١٢) ". قال أبو الملاء
المري (ت ١١١٩هـ) في شرحه: " وجه تشغفه إليها أن يصل جناحه بما يصل به
إلى المراد بها، ويحظى عندها لمكانه منها^(١٣) ". وفي تآويل أبي الملاء تلطيف
لا يستطيع ردا لإساءة أبي الطيب خطاب ممدوحه. وكان أبو الطيب زمن نظم
هذه القصيدة صبياً^(١٤)

وكذلك جمل القاضي الجرجاني من تخلصات أبي الطيب المستكرهة
قوله :

لو استطلعت ركبت الناس كلهم إلى سميد بن عبد الله بمرانا^(١٥)
التخلص في الموضعين السابقين معيب في ذاته، وهو معيب في ذاته مقامياً؛
لأنه خرج عما يليق بخطاب المدوحين. وإذا كان التخلص في الموضعين وصل
ما قبله بما بعده على سبيل الحيلك بين معنيين أو غرضين انتقل الشاعر من
أحدهما إلى الآخر، فلم تكن - لليلة الماضية - صلة لطيفة.
٣ - الانتهاء :

أوجب أبو هلال المسكوري في الانتهاء أو بيت الخاتمة أن يكون أجود
بيت في القصيدة؛ يقول: " فينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت
فيها، وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها؛ كما فعل ابن الزيمري في

(١١) المري (ال) شرح ديوان أبي الطيب لغزوة - الشاعر أحمد الحظي ودراسة دكتور عبد الحميد ديب. دار
الكتاب العربي - بيروت - ١٩٧٢ - ص ١١٠ - ١١١ - وقوله " وأصل العمل وإن بل لا بما

(١٢) المصدر: ١٢٤

(١٣) شرح ديوان أبي الطيب - ص ١١٠

(١٤) رسالة من ١١١٩ - ١١٢٠ - وأيضاً شرح ديوان أبي الطيب - ص ١١٠

التي هي تلك التي هي من صنع... سنة ثبوت الثانية
 (الأولى) القوة على تصور شكلها الشعري، والتفحص في وضعها،
 معانيها الواقعة في هذه المقاصد. وذلك حتى يتوصل الشاعر إلى اختيار ما
 يحسن من القوالب ويضاهي فصول القصائد على ما يجب
 (الثانية) القوة على تصور صورة القصيدة تكون بها أحسن ما يمكن.
 وكيف يكون إنشاؤها أفضل من جهة وضع بعض المعاني والأبيات والفصول
 من بعض، بالنظر إلى صدر القصيدة ومعطفا من نسبي إلى مدح، والنظر
 إلى ما يجعل خاتمتها في حاجة إلى شيء من ذلك.
 (الثالثة) القوة على ملاحظة الوجوه التي بها يقع التماس بين المعاني
 وإيقاع تلك النسب بينها.

(الرابعة) القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض، ووصل الأبيات
 بعضها ببعض، وإصاق بعض الكلام ببعض على الوجوه التي لا تتبو عنها
 النفس

يكشف تصنيف حازم المقامد الشعرية إلى أحسن عليها وفروع سمة
 أعنه التصوري. ولا شك أن المعرفة النظرية الأولية بتلك الأجناس والفروع
 سوف تعد أداة لاختبار مدى ضبط العلاقات بين المعاني والأغراض عند
 ممارسة القول الشعري. وسوف تترك هذه المعرفة آثارها في بناء النص وتنظيم
 العلاقات والنسب بين أجزائه. وليست جهات التعليق أو علاقات الاقتراض عنده
 إلا علاقات حيك بين المنطوقات. تصلح للخروج عن ذلك إلى أن تصير ضروريا
 لعلاقات حيك فصول النص الشعري الكامل، لا سيما في النصوص الشعرية
 غير المركبة والتي تبني معنويا على أنواع الأجناس الأولى عنده: كالرثاء
 والفضى، والخوف والرجاء ونحوها.

أما كلام حازم عن القوى الثلاث التي يكمل بها القول للشاعر (وبصفة
 أعم لكل متكلم)، فهو أدنى شيء إلى ثلاثية الكفاءة في النظرية اللغوية
 المعاصرة: القوة الحافظة عنده تضاهي الكفاءة اللغوية التي تعني ما يعرفه
 متكلم اللغة الأصلي عن لغته وما يخترنه في عقله منها وقدرته على
 استعمال اللغة لثأرة عنده تضاهي الكفاءة التداولية التي تعني قدرة صانع

من خصائصه: "أنه لا يكتفى بالبيان على ما هو عليه بل يعمد على جعله مطوقاً منتهياً
 نحو: "على حد نفعه بأواقف والسموات، وقدرته على جعل مطوقاته ممتدة
 لقد صدر الحكامة أي جعل مطوقاته مناسبة وطنياً وموقفياً لسياق الاتصال
 والقوة الصانعة عمده نضاهي الكفاءة الموضوعية التي تمنى قدرة صانع النص
 على تعيين ما يريد أن يصل إليه عند تلقيه، وقدرته على تنسيق أجزاء النص
 والربط بينها".^{١١} وليست القوى الفكرية الأربع التي اصطفتها من جملة
 القوى الفكرية العشر عنده إلا تبياناً وتفصيلاً للقوة الصانعة أو الكفاءة
 الموضوعية.

سبق حازماً إلى الكلام عن آلات الكتابة والنظم آخرون^{١٢}، ولكن
 حازماً وضع يده على تصنيف جامع لما تفرق عند سابقه مميّزاً بالوصف
 وتعيين الوظيفة بين قوة وأخرى من قوى القول، حتى يصير تصنيفه الثلاثي
 هذا من الأسس الإجرائية النظرية التي نرى لها صلاحية لأن تتخذ في وصف
 إنتاج النصوص وتخطيطها.

ومهما يمكن من أمر، فقد استفرغ حازم جهده في منهاجه لتحليل بنية
 النص وشروط الإبداع في صناعته. وفيما يلي التصيل :

١ - قوانين الابتداء والتخلص والانتهاه :

١ / ١ - الابتداء :

ينبغي الإشارة إلى أن ما أسماه حازم بـ "شروط الإبداع في المبادئ" لا
 يكاد يزيد عما اشترطه سابقوه، سواء ما يرجع إلى اللفظ أو المعنى أو النظم
 أو الأسلوب^{١٣}. على أن الذي ينبغي لنا ملاحظته في مبحث الابتداء أن الشرط
 المقامي عنده قد اتخذ هيئة المناسبة بين اللفة المستخدمة ومقصد المتكلم،
 ولم يمرض للملابسات الخطاب وأحوال المخاطبين. يقول حازم: "ملك الأمر في
 جميع ذلك أن يكون المفتوح مناسباً لمقصد المتكلم من جميع جهاته: إذا
 كان مقصده الفخر، كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني
 والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتخييم. وإذا كان المقصد النسب، كان

^{١١} طر في فصل الجزء الخامسة ثلاثة فصل الأول ص: ٢٠ ما عدا

^{١٢} انظر مثلا كتاب نصحتي ص: ١٣٣، ود ص: ٤٤، ص: ١٠٠، ص: ١٠١، ص: ١٠٢، ص: ١٠٣، ص: ١٠٤، ص: ١٠٥، ص: ١٠٦، ص: ١٠٧، ص: ١٠٨، ص: ١٠٩، ص: ١١٠، ص: ١١١، ص: ١١٢، ص: ١١٣، ص: ١١٤، ص: ١١٥، ص: ١١٦، ص: ١١٧، ص: ١١٨، ص: ١١٩، ص: ١٢٠، ص: ١٢١، ص: ١٢٢، ص: ١٢٣، ص: ١٢٤، ص: ١٢٥، ص: ١٢٦، ص: ١٢٧، ص: ١٢٨، ص: ١٢٩، ص: ١٣٠، ص: ١٣١، ص: ١٣٢، ص: ١٣٣، ص: ١٣٤، ص: ١٣٥، ص: ١٣٦، ص: ١٣٧، ص: ١٣٨، ص: ١٣٩، ص: ١٤٠، ص: ١٤١، ص: ١٤٢، ص: ١٤٣، ص: ١٤٤، ص: ١٤٥، ص: ١٤٦، ص: ١٤٧، ص: ١٤٨، ص: ١٤٩، ص: ١٥٠، ص: ١٥١، ص: ١٥٢، ص: ١٥٣، ص: ١٥٤، ص: ١٥٥، ص: ١٥٦، ص: ١٥٧، ص: ١٥٨، ص: ١٥٩، ص: ١٦٠، ص: ١٦١، ص: ١٦٢، ص: ١٦٣، ص: ١٦٤، ص: ١٦٥، ص: ١٦٦، ص: ١٦٧، ص: ١٦٨، ص: ١٦٩، ص: ١٧٠، ص: ١٧١، ص: ١٧٢، ص: ١٧٣، ص: ١٧٤، ص: ١٧٥، ص: ١٧٦، ص: ١٧٧، ص: ١٧٨، ص: ١٧٩، ص: ١٨٠، ص: ١٨١، ص: ١٨٢، ص: ١٨٣، ص: ١٨٤، ص: ١٨٥، ص: ١٨٦، ص: ١٨٧، ص: ١٨٨، ص: ١٨٩، ص: ١٩٠، ص: ١٩١، ص: ١٩٢، ص: ١٩٣، ص: ١٩٤، ص: ١٩٥، ص: ١٩٦، ص: ١٩٧، ص: ١٩٨، ص: ١٩٩، ص: ٢٠٠، ص: ٢٠١، ص: ٢٠٢، ص: ٢٠٣، ص: ٢٠٤، ص: ٢٠٥، ص: ٢٠٦، ص: ٢٠٧، ص: ٢٠٨، ص: ٢٠٩، ص: ٢١٠، ص: ٢١١، ص: ٢١٢، ص: ٢١٣، ص: ٢١٤، ص: ٢١٥، ص: ٢١٦، ص: ٢١٧، ص: ٢١٨، ص: ٢١٩، ص: ٢٢٠، ص: ٢٢١، ص: ٢٢٢، ص: ٢٢٣، ص: ٢٢٤، ص: ٢٢٥، ص: ٢٢٦، ص: ٢٢٧، ص: ٢٢٨، ص: ٢٢٩، ص: ٢٣٠، ص: ٢٣١، ص: ٢٣٢، ص: ٢٣٣، ص: ٢٣٤، ص: ٢٣٥، ص: ٢٣٦، ص: ٢٣٧، ص: ٢٣٨، ص: ٢٣٩، ص: ٢٤٠، ص: ٢٤١، ص: ٢٤٢، ص: ٢٤٣، ص: ٢٤٤، ص: ٢٤٥، ص: ٢٤٦، ص: ٢٤٧، ص: ٢٤٨، ص: ٢٤٩، ص: ٢٥٠، ص: ٢٥١، ص: ٢٥٢، ص: ٢٥٣، ص: ٢٥٤، ص: ٢٥٥، ص: ٢٥٦، ص: ٢٥٧، ص: ٢٥٨، ص: ٢٥٩، ص: ٢٦٠، ص: ٢٦١، ص: ٢٦٢، ص: ٢٦٣، ص: ٢٦٤، ص: ٢٦٥، ص: ٢٦٦، ص: ٢٦٧، ص: ٢٦٨، ص: ٢٦٩، ص: ٢٧٠، ص: ٢٧١، ص: ٢٧٢، ص: ٢٧٣، ص: ٢٧٤، ص: ٢٧٥، ص: ٢٧٦، ص: ٢٧٧، ص: ٢٧٨، ص: ٢٧٩، ص: ٢٨٠، ص: ٢٨١، ص: ٢٨٢، ص: ٢٨٣، ص: ٢٨٤، ص: ٢٨٥، ص: ٢٨٦، ص: ٢٨٧، ص: ٢٨٨، ص: ٢٨٩، ص: ٢٩٠، ص: ٢٩١، ص: ٢٩٢، ص: ٢٩٣، ص: ٢٩٤، ص: ٢٩٥، ص: ٢٩٦، ص: ٢٩٧، ص: ٢٩٨، ص: ٢٩٩، ص: ٣٠٠، ص: ٣٠١، ص: ٣٠٢، ص: ٣٠٣، ص: ٣٠٤، ص: ٣٠٥، ص: ٣٠٦، ص: ٣٠٧، ص: ٣٠٨، ص: ٣٠٩، ص: ٣١٠، ص: ٣١١، ص: ٣١٢، ص: ٣١٣، ص: ٣١٤، ص: ٣١٥، ص: ٣١٦، ص: ٣١٧، ص: ٣١٨، ص: ٣١٩، ص: ٣٢٠، ص: ٣٢١، ص: ٣٢٢، ص: ٣٢٣، ص: ٣٢٤، ص: ٣٢٥، ص: ٣٢٦، ص: ٣٢٧، ص: ٣٢٨، ص: ٣٢٩، ص: ٣٣٠، ص: ٣٣١، ص: ٣٣٢، ص: ٣٣٣، ص: ٣٣٤، ص: ٣٣٥، ص: ٣٣٦، ص: ٣٣٧، ص: ٣٣٨، ص: ٣٣٩، ص: ٣٤٠، ص: ٣٤١، ص: ٣٤٢، ص: ٣٤٣، ص: ٣٤٤، ص: ٣٤٥، ص: ٣٤٦، ص: ٣٤٧، ص: ٣٤٨، ص: ٣٤٩، ص: ٣٥٠، ص: ٣٥١، ص: ٣٥٢، ص: ٣٥٣، ص: ٣٥٤، ص: ٣٥٥، ص: ٣٥٦، ص: ٣٥٧، ص: ٣٥٨، ص: ٣٥٩، ص: ٣٦٠، ص: ٣٦١، ص: ٣٦٢، ص: ٣٦٣، ص: ٣٦٤، ص: ٣٦٥، ص: ٣٦٦، ص: ٣٦٧، ص: ٣٦٨، ص: ٣٦٩، ص: ٣٧٠، ص: ٣٧١، ص: ٣٧٢، ص: ٣٧٣، ص: ٣٧٤، ص: ٣٧٥، ص: ٣٧٦، ص: ٣٧٧، ص: ٣٧٨، ص: ٣٧٩، ص: ٣٨٠، ص: ٣٨١، ص: ٣٨٢، ص: ٣٨٣، ص: ٣٨٤، ص: ٣٨٥، ص: ٣٨٦، ص: ٣٨٧، ص: ٣٨٨، ص: ٣٨٩، ص: ٣٩٠، ص: ٣٩١، ص: ٣٩٢، ص: ٣٩٣، ص: ٣٩٤، ص: ٣٩٥، ص: ٣٩٦، ص: ٣٩٧، ص: ٣٩٨، ص: ٣٩٩، ص: ٤٠٠، ص: ٤٠١، ص: ٤٠٢، ص: ٤٠٣، ص: ٤٠٤، ص: ٤٠٥، ص: ٤٠٦، ص: ٤٠٧، ص: ٤٠٨، ص: ٤٠٩، ص: ٤١٠، ص: ٤١١، ص: ٤١٢، ص: ٤١٣، ص: ٤١٤، ص: ٤١٥، ص: ٤١٦، ص: ٤١٧، ص: ٤١٨، ص: ٤١٩، ص: ٤٢٠، ص: ٤٢١، ص: ٤٢٢، ص: ٤٢٣، ص: ٤٢٤، ص: ٤٢٥، ص: ٤٢٦، ص: ٤٢٧، ص: ٤٢٨، ص: ٤٢٩، ص: ٤٣٠، ص: ٤٣١، ص: ٤٣٢، ص: ٤٣٣، ص: ٤٣٤، ص: ٤٣٥، ص: ٤٣٦، ص: ٤٣٧، ص: ٤٣٨، ص: ٤٣٩، ص: ٤٤٠، ص: ٤٤١، ص: ٤٤٢، ص: ٤٤٣، ص: ٤٤٤، ص: ٤٤٥، ص: ٤٤٦، ص: ٤٤٧، ص: ٤٤٨، ص: ٤٤٩، ص: ٤٥٠، ص: ٤٥١، ص: ٤٥٢، ص: ٤٥٣، ص: ٤٥٤، ص: ٤٥٥، ص: ٤٥٦، ص: ٤٥٧، ص: ٤٥٨، ص: ٤٥٩، ص: ٤٦٠، ص: ٤٦١، ص: ٤٦٢، ص: ٤٦٣، ص: ٤٦٤، ص: ٤٦٥، ص: ٤٦٦، ص: ٤٦٧، ص: ٤٦٨، ص: ٤٦٩، ص: ٤٧٠، ص: ٤٧١، ص: ٤٧٢، ص: ٤٧٣، ص: ٤٧٤، ص: ٤٧٥، ص: ٤٧٦، ص: ٤٧٧، ص: ٤٧٨، ص: ٤٧٩، ص: ٤٨٠، ص: ٤٨١، ص: ٤٨٢، ص: ٤٨٣، ص: ٤٨٤، ص: ٤٨٥، ص: ٤٨٦، ص: ٤٨٧، ص: ٤٨٨، ص: ٤٨٩، ص: ٤٩٠، ص: ٤٩١، ص: ٤٩٢، ص: ٤٩٣، ص: ٤٩٤، ص: ٤٩٥، ص: ٤٩٦، ص: ٤٩٧، ص: ٤٩٨، ص: ٤٩٩، ص: ٥٠٠، ص: ٥٠١، ص: ٥٠٢، ص: ٥٠٣، ص: ٥٠٤، ص: ٥٠٥، ص: ٥٠٦، ص: ٥٠٧، ص: ٥٠٨، ص: ٥٠٩، ص: ٥١٠، ص: ٥١١، ص: ٥١٢، ص: ٥١٣، ص: ٥١٤، ص: ٥١٥، ص: ٥١٦، ص: ٥١٧، ص: ٥١٨، ص: ٥١٩، ص: ٥٢٠، ص: ٥٢١، ص: ٥٢٢، ص: ٥٢٣، ص: ٥٢٤، ص: ٥٢٥، ص: ٥٢٦، ص: ٥٢٧، ص: ٥٢٨، ص: ٥٢٩، ص: ٥٣٠، ص: ٥٣١، ص: ٥٣٢، ص: ٥٣٣، ص: ٥٣٤، ص: ٥٣٥، ص: ٥٣٦، ص: ٥٣٧، ص: ٥٣٨، ص: ٥٣٩، ص: ٥٤٠، ص: ٥٤١، ص: ٥٤٢، ص: ٥٤٣، ص: ٥٤٤، ص: ٥٤٥، ص: ٥٤٦، ص: ٥٤٧، ص: ٥٤٨، ص: ٥٤٩، ص: ٥٥٠، ص: ٥٥١، ص: ٥٥٢، ص: ٥٥٣، ص: ٥٥٤، ص: ٥٥٥، ص: ٥٥٦، ص: ٥٥٧، ص: ٥٥٨، ص: ٥٥٩، ص: ٥٦٠، ص: ٥٦١، ص: ٥٦٢، ص: ٥٦٣، ص: ٥٦٤، ص: ٥٦٥، ص: ٥٦٦، ص: ٥٦٧، ص: ٥٦٨، ص: ٥٦٩، ص: ٥٧٠، ص: ٥٧١، ص: ٥٧٢، ص: ٥٧٣، ص: ٥٧٤، ص: ٥٧٥، ص: ٥٧٦، ص: ٥٧٧، ص: ٥٧٨، ص: ٥٧٩، ص: ٥٨٠، ص: ٥٨١، ص: ٥٨٢، ص: ٥٨٣، ص: ٥٨٤، ص: ٥٨٥، ص: ٥٨٦، ص: ٥٨٧، ص: ٥٨٨، ص: ٥٨٩، ص: ٥٩٠، ص: ٥٩١، ص: ٥٩٢، ص: ٥٩٣، ص: ٥٩٤، ص: ٥٩٥، ص: ٥٩٦، ص: ٥٩٧، ص: ٥٩٨، ص: ٥٩٩، ص: ٦٠٠، ص: ٦٠١، ص: ٦٠٢، ص: ٦٠٣، ص: ٦٠٤، ص: ٦٠٥، ص: ٦٠٦، ص: ٦٠٧، ص: ٦٠٨، ص: ٦٠٩، ص: ٦١٠، ص: ٦١١، ص: ٦١٢، ص: ٦١٣، ص: ٦١٤، ص: ٦١٥، ص: ٦١٦، ص: ٦١٧، ص: ٦١٨، ص: ٦١٩، ص: ٦٢٠، ص: ٦٢١، ص: ٦٢٢، ص: ٦٢٣، ص: ٦٢٤، ص: ٦٢٥، ص: ٦٢٦، ص: ٦٢٧، ص: ٦٢٨، ص: ٦٢٩، ص: ٦٣٠، ص: ٦٣١، ص: ٦٣٢، ص: ٦٣٣، ص: ٦٣٤، ص: ٦٣٥، ص: ٦٣٦، ص: ٦٣٧، ص: ٦٣٨، ص: ٦٣٩، ص: ٦٤٠، ص: ٦٤١، ص: ٦٤٢، ص: ٦٤٣، ص: ٦٤٤، ص: ٦٤٥، ص: ٦٤٦، ص: ٦٤٧، ص: ٦٤٨، ص: ٦٤٩، ص: ٦٥٠، ص: ٦٥١، ص: ٦٥٢، ص: ٦٥٣، ص: ٦٥٤، ص: ٦٥٥، ص: ٦٥٦، ص: ٦٥٧، ص: ٦٥٨، ص: ٦٥٩، ص: ٦٦٠، ص: ٦٦١، ص: ٦٦٢، ص: ٦٦٣، ص: ٦٦٤، ص: ٦٦٥، ص: ٦٦٦، ص: ٦٦٧، ص: ٦٦٨، ص: ٦٦٩، ص: ٦٧٠، ص: ٦٧١، ص: ٦٧٢، ص: ٦٧٣، ص: ٦٧٤، ص: ٦٧٥، ص: ٦٧٦، ص: ٦٧٧، ص: ٦٧٨، ص: ٦٧٩، ص: ٦٨٠، ص: ٦٨١، ص: ٦٨٢، ص: ٦٨٣، ص: ٦٨٤، ص: ٦٨٥، ص: ٦٨٦، ص: ٦٨٧، ص: ٦٨٨، ص: ٦٨٩، ص: ٦٩٠، ص: ٦٩١، ص: ٦٩٢، ص: ٦٩٣، ص: ٦٩٤، ص: ٦٩٥، ص: ٦٩٦، ص: ٦٩٧، ص: ٦٩٨، ص: ٦٩٩، ص: ٧٠٠، ص: ٧٠١، ص: ٧٠٢، ص: ٧٠٣، ص: ٧٠٤، ص: ٧٠٥، ص: ٧٠٦، ص: ٧٠٧، ص: ٧٠٨، ص: ٧٠٩، ص: ٧١٠، ص: ٧١١، ص: ٧١٢، ص: ٧١٣، ص: ٧١٤، ص: ٧١٥، ص: ٧١٦، ص: ٧١٧، ص: ٧١٨، ص: ٧١٩، ص: ٧٢٠، ص: ٧٢١، ص: ٧٢٢، ص: ٧٢٣، ص: ٧٢٤، ص: ٧٢٥، ص: ٧٢٦، ص: ٧٢٧، ص: ٧٢٨، ص: ٧٢٩، ص: ٧٣٠، ص: ٧٣١، ص: ٧٣٢، ص: ٧٣٣، ص: ٧٣٤، ص: ٧٣٥، ص: ٧٣٦، ص: ٧٣٧، ص: ٧٣٨، ص: ٧٣٩، ص: ٧٤٠، ص: ٧٤١، ص: ٧٤٢، ص: ٧٤٣، ص: ٧٤٤، ص: ٧٤٥، ص: ٧٤٦، ص: ٧٤٧، ص: ٧٤٨، ص: ٧٤٩، ص: ٧٥٠، ص: ٧٥١، ص: ٧٥٢، ص: ٧٥٣، ص: ٧٥٤، ص: ٧٥٥، ص: ٧٥٦، ص: ٧٥٧، ص: ٧٥٨، ص: ٧٥٩، ص: ٧٦٠، ص: ٧٦١، ص: ٧٦٢، ص: ٧٦٣، ص: ٧٦٤، ص: ٧٦٥، ص: ٧٦٦، ص: ٧٦٧، ص: ٧٦٨، ص: ٧٦٩، ص: ٧٧٠، ص: ٧٧١، ص: ٧٧٢، ص: ٧٧٣، ص: ٧٧٤، ص: ٧٧٥، ص: ٧٧٦، ص: ٧٧٧، ص: ٧٧٨، ص: ٧٧٩، ص: ٧٨٠، ص: ٧٨١، ص: ٧٨٢، ص: ٧٨٣، ص: ٧٨٤، ص: ٧٨٥، ص: ٧٨٦، ص: ٧٨٧، ص: ٧٨٨، ص: ٧٨٩، ص: ٧٩٠، ص: ٧٩١، ص: ٧٩٢، ص: ٧٩٣، ص: ٧٩٤، ص: ٧٩٥، ص: ٧٩٦، ص: ٧٩٧، ص: ٧٩٨، ص: ٧٩٩، ص: ٨٠٠، ص: ٨٠١، ص: ٨٠٢، ص: ٨٠٣، ص: ٨٠٤، ص: ٨٠٥، ص: ٨٠٦، ص: ٨٠٧، ص: ٨٠٨، ص: ٨٠٩، ص: ٨١٠، ص: ٨١١، ص: ٨١٢، ص: ٨١٣، ص: ٨١٤، ص: ٨١٥، ص: ٨١٦، ص: ٨١٧، ص: ٨١٨، ص: ٨١٩، ص: ٨٢٠، ص: ٨٢١، ص: ٨٢٢، ص: ٨٢٣، ص: ٨٢٤، ص: ٨٢٥، ص: ٨٢٦، ص: ٨٢٧، ص: ٨٢٨، ص: ٨٢٩، ص: ٨٣٠، ص: ٨٣١، ص: ٨٣٢، ص: ٨٣٣، ص: ٨٣٤، ص: ٨٣٥، ص: ٨٣٦، ص: ٨٣٧، ص: ٨٣٨، ص: ٨٣٩، ص: ٨٤٠، ص: ٨٤١، ص: ٨٤٢، ص: ٨٤٣، ص: ٨٤٤، ص: ٨٤٥، ص: ٨٤٦، ص: ٨٤٧، ص: ٨٤٨، ص: ٨٤٩، ص: ٨٥٠، ص: ٨٥١، ص: ٨٥٢، ص: ٨٥٣، ص: ٨٥٤، ص: ٨٥٥، ص: ٨٥٦، ص: ٨٥٧، ص: ٨٥٨، ص: ٨٥٩، ص: ٨٦٠، ص: ٨٦١، ص: ٨٦٢، ص: ٨٦٣، ص: ٨٦٤، ص: ٨٦٥، ص: ٨٦٦، ص: ٨٦٧، ص: ٨٦٨، ص: ٨٦٩، ص: ٨٧٠، ص: ٨٧١، ص: ٨٧٢، ص: ٨٧٣، ص: ٨٧٤، ص: ٨٧٥، ص: ٨٧٦، ص: ٨٧٧، ص: ٨٧٨، ص: ٨٧٩، ص: ٨٨٠، ص: ٨٨١، ص: ٨٨٢، ص: ٨٨٣، ص: ٨٨٤، ص: ٨٨٥، ص: ٨٨٦، ص: ٨٨٧، ص: ٨٨٨، ص: ٨٨٩، ص: ٨٩٠، ص: ٨٩١، ص: ٨٩٢، ص: ٨٩٣، ص: ٨٩٤، ص: ٨٩٥، ص: ٨٩٦، ص: ٨٩٧، ص: ٨٩٨، ص: ٨٩٩، ص: ٩٠٠، ص: ٩٠١، ص: ٩٠٢، ص: ٩٠٣، ص: ٩٠٤، ص: ٩٠٥، ص: ٩٠٦، ص: ٩٠٧، ص: ٩٠٨، ص: ٩٠٩، ص: ٩١٠، ص: ٩١١، ص: ٩١٢، ص: ٩١٣، ص: ٩١٤، ص: ٩١٥، ص: ٩١٦، ص: ٩١٧، ص: ٩١٨، ص: ٩١٩، ص: ٩٢٠، ص: ٩٢١، ص: ٩٢٢، ص: ٩٢٣، ص: ٩٢٤، ص: ٩٢٥، ص: ٩٢٦، ص: ٩٢٧، ص: ٩٢٨، ص: ٩٢٩، ص: ٩٣٠، ص: ٩٣١، ص: ٩٣٢، ص: ٩٣٣، ص: ٩٣٤، ص: ٩٣٥، ص: ٩٣٦، ص: ٩٣٧، ص: ٩٣٨، ص: ٩٣٩، ص: ٩٤٠، ص: ٩٤١، ص: ٩٤٢، ص: ٩٤٣، ص: ٩٤٤، ص: ٩٤٥، ص: ٩٤٦، ص: ٩٤٧، ص: ٩٤٨، ص: ٩٤٩، ص: ٩٥٠، ص: ٩٥١، ص: ٩٥٢، ص: ٩٥٣، ص: ٩٥٤، ص: ٩٥٥، ص: ٩٥٦، ص: ٩٥٧، ص: ٩٥٨، ص: ٩٥٩، ص: ٩٦٠، ص: ٩٦١، ص: ٩٦٢، ص: ٩٦٣، ص: ٩٦٤، ص: ٩٦٥، ص: ٩٦٦، ص: ٩٦٧، ص: ٩٦٨، ص: ٩٦٩، ص: ٩٧٠، ص: ٩٧١، ص: ٩٧٢، ص: ٩٧٣، ص: ٩٧٤، ص: ٩٧٥، ص: ٩٧٦، ص: ٩٧٧، ص: ٩٧٨، ص: ٩٧٩، ص: ٩٨٠، ص: ٩٨١، ص: ٩٨٢، ص: ٩٨٣، ص: ٩٨٤، ص: ٩٨٥، ص: ٩٨٦، ص: ٩٨٧، ص: ٩٨٨، ص: ٩٨٩، ص: ٩٩٠، ص: ٩٩١، ص: ٩٩٢، ص: ٩٩٣، ص: ٩٩٤، ص: ٩٩٥، ص: ٩٩٦، ص: ٩٩٧، ص: ٩٩٨، ص: ٩٩٩، ص: ١٠٠٠، ص: ١٠٠١، ص: ١٠٠٢، ص: ١٠٠٣، ص: ١٠٠٤، ص: ١٠٠٥، ص: ١٠٠٦، ص: ١٠٠٧، ص: ١٠٠٨، ص: ١٠٠٩، ص: ١٠١٠، ص: ١٠١١، ص: ١٠١٢، ص: ١٠١٣، ص: ١٠١٤، ص: ١٠١٥، ص: ١٠١٦، ص: ١٠١٧، ص: ١٠١٨، ص: ١٠١٩، ص: ١٠٢٠، ص: ١٠٢١، ص: ١٠٢٢، ص: ١٠٢٣، ص: ١٠٢٤، ص: ١٠٢٥، ص: ١٠٢٦، ص: ١٠٢٧، ص: ١٠٢٨، ص: ١٠٢٩، ص: ١٠٣٠، ص: ١٠٣١، ص: ١٠٣٢، ص: ١٠٣٣، ص: ١٠٣٤، ص: ١٠٣٥، ص: ١٠٣٦، ص: ١٠٣٧، ص: ١٠٣٨، ص: ١٠٣٩، ص: ١٠٤٠، ص: ١٠٤١، ص: ١٠٤٢، ص: ١٠٤٣، ص: ١٠٤٤، ص: ١٠٤٥، ص: ١٠٤٦، ص: ١٠٤٧، ص: ١٠٤٨، ص: ١٠٤٩، ص: ١٠٥٠، ص: ١٠٥١، ص: ١٠٥٢، ص: ١٠٥٣، ص: ١٠٥٤، ص: ١٠٥٥، ص: ١٠٥٦، ص: ١٠٥٧، ص: ١٠٥٨، ص: ١٠٥٩، ص: ١٠٦٠، ص: ١٠٦١، ص: ١٠٦٢، ص: ١٠٦٣، ص: ١٠٦٤، ص: ١٠٦٥، ص: ١٠٦٦، ص: ١٠٦٧، ص: ١٠٦٨، ص: ١٠٦٩، ص: ١٠٧٠، ص: ١٠٧١، ص: ١٠٧٢، ص: ١٠٧٣، ص: ١٠٧٤، ص: ١٠٧٥، ص: ١٠٧٦، ص: ١٠٧٧، ص: ١٠٧٨، ص: ١٠٧٩، ص: ١٠٨٠، ص: ١٠٨١، ص: ١٠٨٢، ص: ١٠٨٣، ص: ١٠٨٤، ص: ١٠٨٥، ص: ١٠٨٦، ص: ١٠٨٧، ص: ١٠٨٨، ص: ١٠٨٩، ص: ١٠٩٠، ص: ١٠٩١، ص: ١٠٩٢، ص: ١٠٩٣، ص: ١٠٩٤، ص: ١٠٩٥، ص: ١٠٩٦، ص: ١٠٩٧، ص: ١٠٩٨، ص: ١٠٩٩، ص: ١١٠٠، ص: ١١٠١، ص: ١١٠٢، ص: ١١٠٣، ص: ١١٠٤، ص: ١١٠٥، ص: ١١٠٦، ص: ١١٠٧، ص: ١١٠٨، ص: ١١٠٩، ص: ١١١٠، ص: ١١١١، ص: ١١١٢، ص: ١١١٣، ص: ١١١٤، ص: ١١١٥، ص: ١١١٦، ص: ١١١٧، ص: ١١١٨، ص: ١١١٩، ص: ١١٢٠، ص: ١١٢١، ص: ١١٢٢، ص: ١١٢٣، ص: ١١٢٤، ص: ١١٢٥، ص: ١١٢٦، ص: ١١٢٧، ص: ١١٢٨، ص: ١١٢٩، ص: ١١٣٠، ص: ١١٣١، ص: ١١٣٢، ص: ١١٣٣، ص: ١١٣٤، ص: ١١٣٥، ص: ١١٣٦، ص: ١١٣٧، ص: ١١٣٨، ص: ١١٣٩، ص: ١١٤٠، ص: ١١٤١، ص: ١١٤٢، ص: ١١٤٣، ص: ١١٤٤، ص: ١١٤٥، ص: ١١٤٦، ص: ١١٤٧، ص: ١١٤٨، ص: ١١٤٩، ص: ١١٥٠، ص: ١١٥١، ص: ١١٥٢، ص: ١١٥٣، ص: ١١٥٤، ص: ١١٥٥، ص: ١١٥٦، ص: ١١٥٧، ص: ١١٥٨، ص: ١١٥٩، ص: ١١٦٠، ص: ١١٦١، ص: ١١٦٢، ص: ١١٦٣، ص: ١١٦٤، ص: ١١٦٥، ص: ١١٦٦، ص: ١١٦٧، ص: ١١٦٨، ص: ١١٦٩، ص: ١١٧٠، ص: ١١٧١، ص: ١١٧٢، ص: ١١٧٣، ص: ١١٧٤، ص: ١١٧٥، ص: ١١٧٦، ص: ١١٧٧، ص: ١١٧٨، ص: ١١٧٩، ص: ١١٨٠، ص: ١١٨١، ص: ١١٨٢، ص: ١١٨٣، ص: ١١٨٤، ص: ١١٨٥، ص: ١١٨٦، ص: ١١٨٧، ص: ١١٨٨، ص: ١١٨٩، ص: ١١٩٠، ص: ١١٩١، ص: ١١٩٢، ص: ١١٩٣، ص: ١١٩٤، ص: ١١٩٥، ص: ١١٩٦، ص: ١١٩٧، ص: ١١٩٨، ص: ١١٩٩، ص: ١٢٠٠، ص: ١٢٠١، ص: ١٢٠٢، ص: ١

نوحه أن يعتمد عليها ما يكون فيه رقة وعدوية من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد

سبق أخرون حازما في اشتراط ذلك، وفي جعل المناسبة بين المقصد واللفظ أول ما يحتاجه الشاعر من معرفة مقامات الكلام. أضرب مثالا على ذلك من رشيق (ت 156هـ). يقول ابن رشيق: "هاول ما يحتاج إليه الشاعر . حسن الثاني والسياسة. وعلم مقاصد القول: فإن نسب دل وخصم، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخر خب ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حن ورجع، ولكن غاية معرفة أغراض مخاطب كائننا من كان: ليدخل إليه من بابه، ويدخله في ثيابه. هنالك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تتفاوت الناس، وبه تقاضلوا"⁽¹⁾.

أما القانون الذي يحكم الابتداء عند حازم، فهو أن "يجعل (بمضي الشاعر) مبدأ كلامه دالا على مقصده، ويفتح القول بما هو عمدة في غرضه"⁽²⁾. ولا يختلف الجزء الأول من قانونه عما نص عليه سابقوه. أما الجزء الثاني، ففيه توجيه بافتتاح القول بما هو أدخل في الغرض منه. إضافة حازم الحقيقية في تحليل المبادئ في عنايته بمعيار المناسبة. وفي بنائه ترتيب المبادئ على ما أسماه بـ "التناصر"⁽³⁾:

١ - معيار المناسبة: يقول حازم: "وإذا لم يكن البيت الثاني مناسبا للأول في حسنه، غرض ذلك من بهاء المبدأ وحسن الطليعة، وخصوصا إذا كان فيه قبح من جهة لفظ أو معنى أو نظم أو أسلوب، وذلك نحو قول أبي الطيب المتبني:

أتراسا لكثرة المشاق تحسب الدمع خلقة في المأقي
كيف ترى التي رأت كل جنف وأها غير جفتها غير راق"⁽⁴⁾

الأخرى أن نرى المناسبة - في هذا السياق - مبدأ تنظيميا: وذلك أنه

(1) الترمذ السافر ص 300

(2) كصفا 1/199

(3) النهاج ص 206

(4) شرح ابن أبي عمير في الطب شي * 181. ص 200 في نهج شرح ابن أبي عمير

ينظم بنية النص اللفظية والمعنوية: أي أن المناسبة هنا تعني الربط الشكلي والمضموني جميعاً.

٢ - فكرة التناصر: اتخذ حازم فكرة التناصر أساساً بني عليه ترتيبه المبادئ إلى رتب ثلاث :

- فأحسن المبادئ ما تناصر فيه حسن المصراعين وحسن البيت الثاني (ويلحظ حازم أن هذه الرتبة عند "المحدثين" - بمفهوم المصراع - أكثر من العرب المتقدمين "الذين لم يكن لهم بتشجيع البيت الأول بالثاني كبير عناية).

- والرتبة الثانية: أن يتناصر الحسن في المصراعين دون البيت الثاني.

- والرتبة الثالثة: أن يكون المصراع الأول كاملاً الحسن، ولا يكون المصراع الثاني منافراً له، وإن لم يكن مثله في الحسن (ومثل هذا - فيما لاحظته - يوجد كثيراً)^(١).

تمكس تراتبية المبادئ على هذا النحو المنطقي أثر التناصر في جودة الكلام، وليس التناصر - في جوهره - إلا مظهراً من مظاهر الارتباط المضموني والشكلي بين وحدات الفصل الواحد، لا سيما في طلبته. ويمكن لمهار المناسبة وفكرة التناصر معاً أن يمثلنا منظوراً لغوياً إلى بنية النص بوصفه كلاً دلالياً متفاعلاً متبادلاً التأثير بالإيجاب والسلب. إذا كان حسن الجزء امتدأ به بحسن غيره، فإن ذلك يعني أن الحسن في المبدأ ليس صفة قبلية، ولكنها صفة استعمال يكتسبها الجزء في محيط الكل، وسيمضي هذا بالضرورة أن النص ليس مجموع أجزائه، ولكنه حصيلة التفاعلات بين تلك الأجزاء.

ب / ١ التخلص :

التخلص عند حازم خروج في الكلام من غرض إلى غرض على سبيل التدرج^(٢). إذا كان الخروج من غير تدرج، ولكن بانعطاف طارئ على جهة

(١) المعاجم ص ٣١٠ - ٣١١

(٢) المرجع السابق ص ٣١٦

من الالتفات سمي عنده باسم "الاستطراد" (١) :

التدرج إذن هو الممود الفكري للتخلص عند حازم. مقياس التدرج عند حازم في قوله: " أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض، وأن يحتال فيما يصل بين حاشيتي الكلام ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما " (٢). وفي تفسير حازم لوظيفة التخلص - في ضوء فهمه هو على الأقل - ما يجعل للتخلص - بما يحقته من التقاء محكم بين الأغراض - أثرا إيجابيا مباشرا في تلقي الكلام: " فلا يخلت نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام فإن النفوس والسماع إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن مشابه له، ومنقلة من معني إلى معني مناسب له، ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملاتم بين طرفيهما، وجدت الأنفس في طابعها نفورا من ذلك ونبت عنه. وكذلك النفوس والاسماع إذا فرعا المديح بعد النسب دفعة من غير توطئة لذلك، فإنها تستصعبه ولا تستسهله، وتجد نبوة ما في انتقالها إليه من غير احتيال وتلطف فيما يجمع بين حاشيتي الكلام ويصل بين طرفيه الوصل الذي يوجد للكلام به استواء والتتام " (٣).

ليس النسب والمديح في الكلام عن القصيدة المركبة التي توجب - في الأساس - احتيالا وتلطفا في صناعة التخلص، لهما إلا نوعين أو اسمين على غرضين من أغراض الاتصال الأدبي. المهم هنا ما يكشف عنه نظام " التدرج " في شكل غرض عند حازم، فيما يسميه " كهيئة العمل " من وعي بضرورة الارتباط المعنوي والتسلسل المنطقي بين عناصر ذلك الغرض. الأحسن في النسب عند حازم أن يجري التدرج هكذا :

- البدء بما يرجع إلى المحب ،
- ثم بما يرجع إلى المحب والمحبيب معا ،
- ثم إرداف ما يرجع إليهما معا مما يشجو وقوعه بذكر ما هو راجع

(١) المرجع نفسه ص ٣١٦

(٢) المنهاج ص ٣١٩

(٣) المرجع نفسه ص ٣١٩

في هذا المقام، فإننا نرى أن الشاعر قد استخدم أسلوباً جديداً في التعبير، حيث قدّم لنا صورة واضحة من الحياة، تتخللها لمسات من العاطفة والخيال، مما يجعلنا نشعر وكأننا نعيش تلك اللحظة مع الشاعر نفسه.

أما شرح شخص به من سبب فمأخوذة في ترتيبه عند حرم
بعض شديداً فضائل الممدوح

وإن يشر إلى شديداً موضحاً بأنه وكفره . وذكر أبيه في أعزائه
وإن كان الممدوح سبباً في تسميته بذكر مآثره بذكر مآثرهم .
نه بحتة . فحينئذ المصوح والدماء له بالسعادة ودوام النعمة والظهور
على الأعداء . وما سبب ذلك

أقول مرة أخرى لا يميننا هنا المديح أو النسيب عرضاً من أعراض الشعر،
إنما الذي يعينا ما ارتبط بهما من بيان ككيفية العمل . توفر أكثر شروط
لتخلص عند حازمه فرصة للقول بأن مبادئ الائتلاف المنوي، والانتظام،
والعمل بكلام . فكانت الخلفية النظرية التي انطلقت منها تلك الشروط،
وه تلك الشروط ما يلي :

تحرر من إقطاع الكلام

تحرر من الإحلال واضطراب الكلام

تحرر من "نقطة" بغير تحلف (إذ يحب التلطف فيما يوقع الكلام
حسن موافقه ويحريه على أقوه مجازيه).

أما محمد الشاعر نفسه في تحسين البيت التالي لبيت التخلص

الإسفة الحارمية لأهم في بحث التخلص هي ما يمثله الشرط الأخير أن
يجهد الشاعر نفسه في تحسين البيت التالي لبيت التخلص؛ فإنه أول الأبيات
التي يظهر فيها الإحادة أو الإسداء وهي - ضمناً بقول حارم - أول منقطة من
مفاصل المفكر فيما تحلست إليه¹ وينبغي لنا أن نضيف إلى حدة ذلك الشرط

1. في هذا المقام، فإننا نرى أن الشاعر قد استخدم أسلوباً جديداً في التعبير، حيث قدّم لنا صورة واضحة من الحياة، تتخللها لمسات من العاطفة والخيال، مما يجعلنا نشعر وكأننا نعيش تلك اللحظة مع الشاعر نفسه.

عند حصر الأضمار في بيت التخصيص شرطان أساسيان

التحرر في بيت التخصيص من الحشو

والتحرر في بيت التخصيص من الأضمار من تخصيصه

الحشو عامل لغمطي، والتخصيص عامل معنوي الحشو والتخصيصية يرتبطان ببعضهما البعض وتدفق الحطاب في موضع التخصيص ينمى له أن يكون مطلباً ملحقاً الحشو والتخصيصية - على نحو ما يجب أن يفهم من سياق كلام حازم - بصفتها قوة إخلاص التخصيص لوظيفة الربط المضموني المنطقي في موضع تلح فيه الحاجة إلى نقل الكلام - في تدرج - من محور خطابي إلى آخر. إنهما يضعفان قوة إخلاص التخصيص لتلك الوظيفة: لأنهما يقيدان حركته اللغوية والسموية: تضعف السلاسة وتشاب مباشرة المعنى بلازم المعنى.

ومهما يكن من أمر، فإن قانون التخصيص الدلالي عند حازم ينبني له أن يكون هكذا :

- ينبغي للتخصيص أن يكون على سبيل التدرج وأن يؤدي إلى الالتقاء المحكم بين الأغراض .

ج / ١ الانتهاء :

عرض حازم شروطه في الانتهاء أو الخاتمة تحريماً وتحريزاً وتحفظاً على النحو التالي :

١- تحري أن يكون ما وقع فيها من الكلام كحاشية ما أدرج في حشو القصيدة .

٢ - أن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كسريه أو معني منفر للنفس عما قصدت إمالتها إليه، أو مميل لها إلى ما قصدت تفرها عنه.

٣ - أن يتحفظ في أول البيت الواقع مقطوعاً للقصيدة من كل ما يكوره ولو ظاهره وما توهمه دلالة العبارة أولاً، وإن رفقت الإيهام أخيراً ودلت على معني حسن. ومن هذا قول المتنبي :

فلا بلغت بها إلا إلى ظفر ولا وصلت بها إلا إلى أمل

الشرط الثاني عند حازم شرط محض معوي وما يرتبط به من غير أن لا يخرج عما اشترطه أبو هلال واس رشيق وأمثالهما: يعني للخاتمة أن ترتبط بالمقصد من الكلام. أما الشرطان الأول والثالث فهما لغطيان نظميان. وما ضرب به حازم مثلا علي النظم القبيح هو نفسه الذي سبقه إليه ابن رشيق، سميت بيت أبي الطيب.

كان ابن رشيق قد علق على هذا البيت قائلا: "فإن هذا شبيه ما ذكر من بنهض: كان يصاحب الأمير فيقول: لا صبح الله الأمير بماضية، ووسكت، ثم يقول: إلا رماه بأكثر منها، ويماسبه فيقول: لأمسي الله الأمير بنعمة، ووسكت سكتة ثم يقول: إلا وصبحه بأثم منها، أو نحو هذا. فلا يدعو له حتى يدعو عليه. ومثل هذا قبيح، لاسيما عن مثل أبي الطيب"^{١١١}.

السكته علي ما قبل أداة الاستثناء تقدم مثلا على النظم القبيح؛ لأنه موهوم، يضطرب معه الخطاب في موضع الخاتمة، وهو موضع ينهني له أن يحوز علي عناية المتكلم: لأنه - كما يقول حازم - منقطع الكلام وخاتمته"^{١١٢}. المهم هنا - على أي حال - النفاذ حازم إلى تبادل الخاتمة مع ما قبلها فعل التأثير في نفس المتلقي سلبا وإيجابا: "فالإساءة فيه (يعني موضع الخاتمة) مغيبة علي كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس. ولا شئ أفبح من كدر بعد صفو وترديد بعد إنضاج"^{١١٣}.

ومهما يكن من أمر، فإن قانون الخاتمة الدلالي عند حازم ينهني له أن يكون هكذا :

- ينهني أن ترتبط الخاتمة بما قصد إليه المتكلم في النص، وألا يكون تأثيرها فيما قبلها من حيث المعنى تأثيرا سلبيا.
وهو قانون لا يخرج - كما نرى - عما وضعه سابقوه.

٢ - المبادئ الدلالية لحبك الفصول :

الإضافة الحقيقية في دراسة الحبك أو التناسب المعنوي بين وحدات النص عند حازم مستودعها المعلم الأول من المنهج الثالث من (المباني) وهو عن طرق

^{١١١} نسخة ١٠٤١

^{١١٢} نهج ص ٢٨٤

^{١١٣} نهج ص ٢٨٤

أثمة بحكمه مبدئي لتسوية ونحسب هيئته بوصفها بعض
الفصول عنده هي ما نتعارفه بالمقاطع التي يستقل شكل مقطع منها في
القسيده العربية المركبة بفرض. تتوزع مقطبات هذا الملم - فيما يري - على
مفاهيم ثلاثة:

- مقطبات تختص بمفهوم السبك .
- مقطبات ترتبط بأحدهما أو كليهما وبمفهوم بنية النص وتسميته في
أن معاً.

مقتضى الحال أن نقتصر هنا على ما يتصل من آرائه بمفهوم الحيك على
مستوي الفصول.

السؤال الآن: ما الأسس الدلالية والمضمونية التي يبنى عليها الحيك بين
فصل وآخر؟

١ / ٢ - قوانين الوصل بين الفصول :

ينبغي أن نشير أولاً إلى أن حازماً قد جعل الكلام فيما يرجع إلى ذوات
الفصول وإلى ما يجب في وضعها وترتيب بعضه من بعض قائماً على أربعة
قوانين :

- (القانون الأول) في استعادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها.
- (القانون الثاني) في ترتيب الفصول والمواالات بين بعضها وبعض.
- (القانون الثالث) في ترتيب ما يقع في الفصول.
- (القانون الرابع) فيما يجب أن يقدم في الفصول وما يجب أن يؤخر فيها
وتختتم به^(١).

لكل قانون من هذه القوانين الأربعة عند حازم شروط تحقيق مختلفة.

تتوزع هذه القوانين وشروط تحقيقها على ما يمكن تسميته :

- ١ - شروط الحيك الكلي: ويقصد بها ما يحقق الارتباط المضموني بين
فصول القصيدة. وتقع هذه الشروط في القانون الأول والثاني.
- ٢ - شروط الحيك الحزني: ويقصد بها ما يحقق الارتباط المضموني بين

(١) شرح السور ١٩٩، ص ١٠٠.

(٢) شرح السور ١٩٩، ص ١٠٠.

بأنه المصلح الواحد وتقع هذه الشروط في القانون الثالث

مما يحقق الحيك التحكيمي من شروط القصور الأول عند حريم تناسب
 المفومات بين الفصول^(٢٢) ومما يحققه من شروط القانون الثاني أن يقدم من
 الفصول ما للنفس به عناية على حسب الفرض المقصود بالسلام، وأن يتلي
 الفصل المتقدم بالأهم، حتى تتصور التفاضل ونسبة بين فصلين تدعو إلى تقديم
 غير الأهم على الأهم (وبالتالي إلى ترك القانون الأصلي في الترتيب)^(٢٣)
 ومن شروط حازم في القانون الأول حسن الاطراد بين الفصول^(٢٤)
 وقد جاء حازم بهذا الشرط على الإجمال. ومما يعنيه حسن الاطراد
 بالضرورة التوالي المحكم للمفاهيم والأغراض الذي يصل الفصول بعضها
 ببعض في القصيدة الواحدة.

واستواء النسخ من شروطه في القانون الأول أيضاً، وهو متعلق بالعامل
 التركيبي أي بالبنية اللفظية. ولكنه ينمكس بالضرورة على البنية المعنوية.
 يجب أن تكون الفصول تبعاً لهذا القانون غير متخالفة النسخ، غير
 متميز بعضها عن بعض التمييز الذي يجعل كل بيت وكأنه منحاز بنفسه لا
 يشمله وغيره من الأبيات بنية لفظية أو معنوية تنزل منزلة المصدر من المجرز أو
 المعزز من المصدر. والقصائد التي نسجها على هذا مما تستطاب^(٢٥)
 أما الشروط التي تحكم تحقيق الحيك الحزني، فقد اشتمل عليها
 القانون الثالث: وهو في تأليف بعض بيوت الفصل إلى بعض. وهذه الشروط
 هي:

- ١ - يجب أن يبدأ من أبيات الفصل بالمعنى المناسب لما قبله^(٢٦).
- ٢ - فضلاً عن وجوب صياغة رأس الفصل الصياغة التي تدل على أنه

(٢١) نهج ص ٢٨٨

(٢٢) المرجع السابق ص ٢٨٩

(٢٣) المرجع نفسه ص ٢٨٨

(٢٤) المرجع نفسه ص ٢٨٨

(٢٥) وهو خبره أنه إذا تأتى أن يكون ذلك شعري هو مبدأ معاني أصل والذي به صواب لشرف كان شعري نورده
 بعض من بعض تلك نسخة من شعره بجزء من الأبيات تكون حالة الفصل هوذا كان من
 شعره من يرف الأبيات لشرفه بالأقول حفظه. فالأحسن أن يرف جزءه أن يفتح بعض شعره
 من هذه، بينما شعره بعض الأصناف. وهو ما ذهب إلى أن يفت أن الله شعره (مهاج ص ٢٨٩)

مبدأ فصل. فالأحسن أن يتصل به معني يحسن موقعه من النصوص بالنسبة إلى
الفرص. فكانتجب والتمني والدعاء وتمديد المهود السوالف الخ.
٣ - يشترط أن يكون معني البيت - مع ككون أوله مبدأ كلام ومصدرا
بكلمة لها معني ابتدائي - أن يكون له علة بما قبله ونسبة إليه.
٤ - يجب أن يردف البيت الأول من الفصل بما يكون لائقا به من باقي
معاني الفصل. مثل :

(أ) أن يكون مقابلا له على جهة من جهات التقابل .

(ب) أو أن يكون بعضه مقابلا لبعض .

(ج) أو أن يكون مقتضى له. مثل :

- أن يكون مسببا عنه .

- أو أن يكون تفسيرا له .

- أو أن يكون بعضه محاكيا لبعض ما في الآخر.

- أو غير ذلك من الوجوه التي تقتضي ذكر شيء بعد شيء آخر.

وكذلك الحكم فيما يتلى به الثاني والثالث إلى آخر الفصل^(١).

وفي نهاية تلك الشروط يورد حازم هذه الملحوظة المهمة: "وربما ختم

الفصل بطرف من أغراض الفصل الذي يليه أو إشارة إلى بعض معانيه"^(٢).

باستثناء الإشارة في الشرط الثاني إلى وجوب صياغة رأس الفصل
الصياغة التي تليق بموقعه، تبدو جميع الشروط في هذا القانون مختصة
بالحيك الجزئي أو الداخلي بين أبيات الفصل الواحد. ولكنها لم تغفل - على
رغم ذلك - وجوب المناسبة المعنوية بين رأس الفصل وما يسبقه أو بين خاتمة
الفصل ورأس الفصل الذي يليه.

ولعل وضع حازم يده على بعض وجوه التعلق بين البيت والآخر من الفصل
الواحد بداية جدول العلاقات الدلالية التي سبق فيها المحدثين، مثل نايدا.
يحتفظ نايدا بحق الجدولة المتكاملة للعلاقات الدلالية بين المنطوقات،
ويحتفظ حازم بحق السابق إلى كثير من تلك العلاقات. ولنا أن نقابل ما عند

(١) منهاج ص ٢٨٩ - ٢٩٠

(٢) تاريخ اللسان ص ٢٩٠

حازم بما يشكك به عند أيدي، على النحو التالي

حازم

- علاقة تقابلية :
- الشكلية
- البعضية
- مسبب عنه
- تقصيره
- بعينه يحاكي بمض ما في الآخر

ثانيا

- العلاقة التقابلية (علاقة ثنائية)
- السبب - التضمين (علاقة تيمية)
- الكيفية - (علاقة الوصف)

ضم القانونان الأول والثاني شروط ما أسميناه بالحيك الشكلي، كما ضم القانون الثالث شروط الحيك الجزئي، أما القانون الرابع، فقد جملة حازم في وصل بعض الفصول ببعض، ونرى أن الوصل - في هذا الموضع - ينبغي له أن يتسع للسبك والحيك معا، ويعني هذا أن القانون الرابع إنما يتناول النص المسبوك المحبوك في الآن نفسه، لم يبن هذا القانون - مثل غيره - على شرط تحقيقه، إنما بني على أنواع الفصول من حيث الاتصال والانفصال بين العبارة والفرض، يقول حازم: "فأما القانون الرابع في وصل بعض الفصول ببعض، فالتأليف في ذلك على أربعة أضرب:

- ١ - ضرب متصل العبارة والفرض.
- ٢ - وضرب متصل العبارة دون الفرض.
- ٣ - وضرب متصل الفرض دون العبارة.
- ٤ - وضرب منفصل الفرض والعبارة^(١).

حد حازم الضرب الأول على النحو التالي. "فأما المتصل العبارة والفرض، فهو الذي يتكون فيه لأخر الفصل بأول الفصل الذي يتلوه علقه من

جهة الفروض وارتباط من جهة العبارة. بأن يكون بعض الألفاظ التي في أحد الفصلين يطلب بعض الألفاظ التي في الآخر من جهة الإسناد والربط^(١١).

على أساس الاتصال والانفصال بين العبارة والفرض تجري سائر الضروب إذا كان الاتصال من جهة العبارة لا الفرض فكان الضرب الثاني. ويكون الفصل متصلًا بثبوره في الفرض دون العبارة إذا كان أوله رأس كلام، ويكون لذلك الكلام "علقة" بما قبله من جهة المعنى. هذا هو الضرب الثالث. أما الضرب الرابع والأخير، فهو الذي لا توصل فيه عبارة بعبارة ولا غرض بفرض مناسب له، يهجم على الفصل هجومًا من غير إشمار به مما قبله ولا مناسبة بين أحدهما والآخر^(١٢).

الضروب الأربعة السابقة هي الإجابة عن سؤال يمكن أن يطرح على النحو التالي: كيف تبدو صور العلاقات بين الفصول من حيث اتصال العبارة والفرض؟

وينبغي الإشارة هنا إلى أن حازما قد وصف الضرب الثاني بأنه "منقطع عن غيره"^(١٣). ووصف الضرب الرابع بأنه "متشتت من كل وجه"^(١٤). ولكنه يرى الضرب الثالث، وهو ما اتصلت فيه الفصول بعضها ببعض في الفرض دون العبارة، يراه أفضل الضروب الأربعة. يقول حازم: "وهذا الضرب (يعني الثالث) إذا نهط برأس الفصل فيه معنى تمجيبى أو دعائى أو غير ذلك مما أشرنا إليه هو أفضل الضروب الأربعة: لكون النفوس تتبسط وتتجدد نشاطها بإشمارها الخروج من شئ إلى شئ، واستئناف كلام جديد لها مع ما يشفع به إليها في قبول الكلام من نياطة ماضكرناه من تمجيب أو دعاء أو غير ذلك مما له بالمعنى علة بالكلام وتصديره به. وهذا الضرب - على كل حال - أفضل الضروب الأربعة"^(١٥).

يمكس نظير حازم لضروب الاتصال بين فصول القصيدة ما يستحسنه الذوق العربي في بنية الخطاب: تعلق الفصول فيما بينها من جهة الفرض

(١١) المرجع السابق ص ٢٩٠

(١٢) المرجع السابق ص ٢٩١

(١٣) المرجع نفسه ص ٢٩١

(١٤) المرجع نفسه ص ٢٩٠

(١٥) - دهج ص ٢٩٠

وإرشاد بعضها ببعض من جهة العبرة أي إرشاد الألفاظ بعضها ببعض من جهة الإسناد والربط. لقد نظر حازم - فيما يبدو لنا - إلى طراز القصيدة المركبة - على تقدير قدر الاتصال بين الفصول في الفرض عن طريق الخروج - عندما جعل الضرب الثالث أفضل الضروب. بعبارة أخرى نقول: سوف تجد القصيدة المركبة محلاً لها من الصرب الثالث. على أساس فهم حازم ومن قبله تدور المخلص أو الخروج، من الربط بين الفصول لفظاً ومعنى.

ب / ٢ / تصميق المعاني بين الفصول :

المعاني الجزئية والمعاني الكلية :

ويرتبط بالحبك بين المفاهيم والقضايا على مستوي الفصل الواحد الكيفية التي تتسق بها المعاني بين أبيات الفصل. جعل حازم المعاني صنفين :

- ١ - المعاني الجزئية: وهي عنده ما كانت مفهوماتها "شخصية"^{١١}.
- ٢ - المعاني الكلية: وهي عنده ما كانت مفهوماتها "جنسية أو نوعية"^{١٢} لم يمثل حازم لأي من هذين النوعين عنده. ينبغي لمعني الحب أو الوفاء أن يكون معني كلياً. من حيث إن مفهومه جنسي أو نوعي، فإذا ما عرض شاعر لتجربة شخصية في أحدهما في علاقته بفلان أو فلانة، وكيف كانت تلك التجربة، وما كان يريده لها، ونحو ذلك، كان التحول إلى المعني الجزئي.

هذان هما نوعا المعاني عند حازم. فأما القصد إليها في القصائد فثلاثة

أشكال:

- ١ - القصائد التي يكون اعتماد الشاعر في فصولها على أن يضمها معاني جزئية.
- ٢ - ما يقصد الشاعر في فصولها أن تضمن المعاني الكلية.
- ٣ - ما يقصد الشاعر في فصولها أن تكون المعاني المضمنة إياها مؤلفة من الجزئية والكلية. وهذا هو المذهب الذي يجب اعتماده عند حازم؛ وذلك

^{١١} ترجع لسبق ص ٢٩٤

^{١٢} المرجع ص ٢٩٤

حسن مرفوع الكلام به من الحسن

ما يتحسر بالحسد شعوي هنا - على معني كصفيية توريح المعاني بين
الفصول وتسلطها إظهارا لطبيعة التفاعل فيما بينها - هو إشارة حازم إلى أنه
يحسن أن تصدر الفصول بالمعاني الجزئية وأن تردف بالمعاني الكليلة على
سبيل التمثل بالأمر العام على الأمر الخاص، أو على سبيل الاستدلال على
الشيء بما هو أعم منه^(١١١).

ترتيب المعاني في الفصل على النحو السابق يبدو مقبها على نماذج
المجيدين من الشعراء مثل المتبي. كان أبو الطيب النموذج المحتذي فيما
اعتمده حازم أو استعسسه، لا في تصدير الفصول بالمعاني الجزئية وإردافها
بالمعاني الكليلة فحسب، بل في تصدير الفصول بالأبيات المخيلة وجعل ختامها
ببيت المخيلة في الفصل الثاني. يرى حازم أن كلام أبي الطيب كان له بذلك
أحسن موقع في النفوس^(١١٢). ويرى أنه " يجب أن يعتمد مذهب أبي الطيب في
ذلك . فإنه حسن"^(١١٣).

ومهما يكن من أمر، فإن الذي نلاحظه في تصدير الفصول بالمعاني
الجزئية وختمه بالمعاني الكليلة هو مجازاة ذلك للغالب في العلاقات الدلالية
المنطقية بين المنطوقات: إذ يغلب أن تبدو العلاقة من هذا النوع في هيات نحو:

- السبب/النتيجة.
- أو الوسيلة/النتيجة.
- أو الشرط/الجواب، ونحوها.

(ج) رموس الفصول: التسمييم والتعجيل :

لا يخرج رأي حازم في التقسيم النصي إلى فصول عن رأي سابقه. يرى
حازم أن العرب " اعتمدوا في القصائد أن يقسموا الكلام فيها إلى فصول
ينحى بكل فصل بها معني من المقاصد . ليكون للنفس في قسمة الكلام

^(١١١) النهج ص ٢٩٤

^(١١٢) ذمغ ص ٢٤٣

^(١١٣) المربع ص ٢٤٣

^(١١٤) المربع ص ٢٤٣

في تلك الفصول والنيل - الأفاويين فيها التي جهات نفس من المقاصد وأجزاء نفس من أخذ استراحة واستعداد نشاط وانتقالي من بعض الفصول إلى بعض وترامي الكلام بها إلى أنحاء مختلفة من المقاصد

ولا يرى حازم في تعدد الفصول والموضوعات ما يتوشح الاتصال بل يرى أنه أشد موافقة للنفس الصحيحة الأذواق. وذلك لوتبع النفوس بالافتتان في أنحاء الكلام وأنواع القصائد^{١٠٠}.

في هذا الإشار يقع التسويم والتجويل. هذان الاصطلاحان من وضع حازم. التسويم يعني العناية بربوس الفصول العناية التي توقف نشاط النفس لتلقي ما يتبعها وتصل بها^{١٠١}. أطلق حازم على هذا الموضع التسويم: لأن العناية هنا ترتبط بفواتح الفصول. فتجعل لها بهاء وشهرة وازدياناً حتى كأنها بذلك ذوات غرور^{١٠٢}.

أما التحجيل^{١٠٣} عنده فيعني^{١٠٤} تحلية أعقاب الفصول بالأبيات المحكمة والاستدلالية... ليكون اقتران صنعة رأس الفصل وصنعة عجزه نحواً من قتران لغة بالتحجيل في الفرس^{١٠٥}.

يعني من التسويم "أمران مهمان":

(أولهما) الثفات حازم إلى العلاقة بين توفر خاصية الحيك لوحدات الفصل وبين تأثيرها في النفس وبلوغ المقصد: يقول حازم: "وإذا اتجه أن يكون الانتقال من بعض صدور الفصول إلى بعض على النحو الذي يوجد التابع فيه مؤكداً بمعنى المتبوع ومنسباً إليه من جهة ما يجتمعان في غرض ومحركهما للنفس إلى النحو الذي حركها الأول أو إلى ما يناسب ذلك. وكان ذلك أشد تأثيراً في النفوس وأعون ما يراد من تحسين موقع الكلام منها"^{١٠٦}.

و (الأخر) الثفات حازم إلى علاقة المعنى في خاتمة الفصل (بيت التحجيل) بحملة معاني الفصل أو بعضها، فضلاً عن فعلته إلى الوظائف الخطابية لهذه

^{١٠٠} - ص ٢٩٦

^{١٠١} - ص ٢٩٧

^{١٠٢} - ص ٢٩٧

^{١٠٣} - ص ٢٩٦

^{١٠٤} - ص ٢٩٦

^{١٠٥} - ص ٢٩٦

"تحاتمة في علاقتها بما قبلها: كالتمثيل والاستدلال اللذين غرضهما التصديق أو الإقناع قصد إعطاء حكم كلي في بعض ما يتعلق بـ "الأغراض الإنسانية" من أمور قصد إليها الفصل. يقول حازم: "ولا يخلو المعنى الذي يقصد تحلية الفصل به وتحججه من أن يكون متراميا إلى ما ترامت إليه جملة معاني الفصل إن كان مفزاهما واحدا، أو يكون متراميا إلى ما ترامي إليه بعضها؛ فيورد على جهة الاستدلال على ما قبله أو على جهة التمثيل، ويكون منحوا به منحي التصديق أو الإقناع، مقصودا به إعطاء حكم كلي في بعض ما تكون عليه مجاري الأمور التي للأغراض الإنسانية علة بها مما تصرفت إليه مقاصد الفصل، ونحي بها نحوه: فيكون في ورود البهت الأخير الذي يتضمن حكما أو استدلالا على حكم إثر المعاني التي لأجلها بنى ذلك الحكم أو الاستدلال عليه، إنباد للمعاني الأول وإعانة لها على ما يراد من تائر النفوس لمقتضاها"⁽¹⁾.

خلاصة القول أن المبادئ والتخلصات والخواتيم كانت من مجالات النظر في بنية النص من منظور الحيك عند حازم. وقد رأينا له إسهامات خاصة، لاسيما في المبادئ والتخلصات. في تحليل المبادئ أبرز حازم فكرتي التسلب والتناصر بين المبدأ وما يليه. وعلي أساس فكرة التناصر بني ترتيبه المبادئ إلى رتبها الثلاث على نحو ما رأينا وفي تحليل التخلصات نبه حازم إلى وجوب العناية بالبيت التالي للتخلص، فضلا عن اشتراطه خلو بيت التخلص مما يعوق حركته اللغوية والمعنوية من حشو أو كناية.

ولكن الرقعة الحقيقية التي أضافها حازم إلى مبحث الحيك أو التسلب في التراث العربي، كانت مع تجاوزه مواضع البداية والتخلص والنهاية وعلاقتها بسائر أجزاء النص، إلى بحث خاصة الحيك من خلال القوانين وشروط القوانين التي وضعها للوصول بين فصل وآخر من فصول النص الشعري أو التي وضعها للوصول بين أبيات الفصل الواحد منها، أو استجادته - في ترتيب المعاني في ككل فصل - البدء بالمعاني الجرئية ثم المعاني الكفلية، أو تنبيهه إلى وجوب العناية بمواقع الفصول وأعقابها - فيما أسماء بالتسويم

والتحجيل - من جهة المعنى والوضيعة الخطابية.

أما المبادئ الدلالية الجوهرية التي بنيت عليها قوانين المبادئ والتخلصات والخواتيم من ناحية، أو التي بنيت عليها قوانين مبادئ الفصول وهيئاتها وكيفيات وصل بعضها ببعض والوصل بين أبيات الفصل الواحد منها من ناحية أخرى، فيمكن أن نوجزها في: انتظام المعاني، واتصال الكلام، وتناسب الجزء مع الكل في المفهوم، والتدرج: رأينا مناسبة الابتداء لما بعده ومناسبة ما بعده له. وكذلك الحال مع التخلص: أن يناسب ما قبله ويربطه على سبيل التدرج بما بعده، ولا بد للخاتمة أيضا من أن تناسب ما قبلها وأن ترتبط بالمقصد من الكلام. وفي مبادئ الفصول لابد من تناسب المفهومات فيما بينها، وأن يكون تقديم الأهم من الفصول فالأهم على حسب الفرض المقصود من الكلام، وأن يتعلق معنى أول الفصل بالفصل الذي قبله. وقد رأينا أننا أن أفضل ضروب الاتصال بين الفصول عند حازم ما كان الاتصال فيه بين الفصول في الفرض دون المباشرة. ولم ذلك يرجع إلى أنه الضرب الذي يجمع بين الترابط المعنوي والتجدد الأسلوبي. وفي التأليف بين أبيات الفصل الواحد، أوجب حازم المناسبة بين البيت الأول من الفصل (بيت التسويم) وما قبله في المعنى، وأن يردف بيت التسويم ببيت آخر له به علاقة دلالية ما: كالتقابل أو الاقتضاء أو نحوهما، وأن يناسب توزيع المعاني بالفصل، من البدء بالمعاني الجزئية ثم المعاني الكلية، القالب في العلاقات الدلالية المنطقية، وأن يرتبط المعنى في بيت التحجيل بجملة معاني الفصل أو بعضها على الأقل.

٤ - التماسب بين النصوص :

يتجاوز التماسب هنا ما بين المنطوقات وأجزاء النص الواحد إلى التماسب بين طائفة من النصوص في مدونة كبرى. التماسب بين النصوص بمثله عمل علمي من طراز عبقري، هو كتاب (تاسق الدرر في تناسب السور) للإمام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ). هذا الكتاب هو النوع الأول من الأنواع الثلاثة عشر التي احتوى عليها كتاب له يحمل اسم (أسرار التنزيل). ولكن لم يعمل إلينا من الأسرار إلا التاسق. فرغ السيوطي من كتابه (تاسق الدرر) في عام ٨٨٢هـ.

وتكشف قراءة عجلى للمحتوى العام لكتابه الأسرار الذي صدر به كتاب التماسق عن وقوع أكثر من نصف أنواعه في مجال "المناسبة"⁽¹⁾. يقوم (تماسق الدرر) على أساس ترتيب السور في المصحف لا ترتيب النزول والترتيب القرآني للمصحف مختلف فيه بين العلماء: هل هو بتوقيف من النبي * أم باجتهاد من الصحابة، بمد القطع بأن ترتيب الآيات توقيفي. المختار عند السيوطي أن ترتيب السور في المصحف توقيفي، سوى الأنفال وبراءة⁽²⁾.

خاصية التماسق في المعاني والمقاصد بين نصي سورتين متواليتين غالباً، وربما بين سورتين غير متواليتين مثل التماسق بين النساء والبقرة من وجوه، هي المنظور اللغوي العام الذي بني عليه السيوطي كتابه. وهو منظور دعامة الاستقراء النصي. وقد دل السيوطي على استقرائه في موضعين: أحدهما: القاعدة التي استقر بها القرآن: أن كل سورة تصب لجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجاز⁽³⁾. والموضع الآخر: قوله: "وأمر آخر استقرائه، وهو: أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفتحة الأولى للدلالة على الاتحاد. وفي السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسباً لأولها"⁽⁴⁾.

جدير بالإشارة أن السيوطي - مثل سابقه - قد اتخذ في كلامه عن وجوه التماسق مفردات عدة، منها: التماسق، والتلاحم، والارتباط، والاعتلاق والالتئام، والتأخي، والتلازم، والاتحاد، والاتصال. وهو يستخدم في مواضع متعاقبة عدداً من تلك المفردات، حتى تبدو وكأنها مترادفة عنده، وهو ما يجعل التمييز فيما بينها أمراً عسيراً، إلا ما ندر جداً منها: فكان يفيدنا السياق بأن الاتصال أعم من التماسق⁽⁵⁾، أو أن يفيدنا بأن التأخي يكاد

(1) انظر: السيوطي (حلال العين): تفسر الدرر في تماسق السور. دراسة وتحليل مد القاهر أحمد سلا دار الكتب العلمية. ط 1 (1406 هـ - 1986 م) ص 81.

(2) تماسق الدرر ص 60. وفتوح 116.

(3) الرصع السابق ص 65.

(4) الرصع نفسه ص 74.

(5) الرصع نفسه ص 131.

سورة أخرى يرفع إلى إحدى العلاقات الجوهرية العشر التالية
 (أ) تفصيل المجمع :

أشرت إلى أن القاعدة التي استقر بها القرآن- من وجهة نظر
 السيوطي- أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناج
 لإيحاز بناء على هذا، تصح هذه العلاقة الدلالية أهم العلاقات التي وفرت
 للس القرآن الحكيم خاصة الحكيم. تفصيل المجمع إذن هو الملمع الرئيس
 من ملامح الحكيم التي تصير كل سورة معها وحدة من وحدات الخطاب
 القرآني المترابطة. سبق البديعون السيوطي إلى إدراك هذه العلاقة من
 علاقات الحكيم في الخطاب العربي، ولكن السيوطي يجعلها - باستقرائه
 - قاعدة الخطاب القرآني كله

- فسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع محملات الفاتحة .
 - سورة آل عمران شرح لإجمال ما في البقرة قبلها، ومثاله أن أول البقرة
 افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه، وقال في آل عمران: " نزل عليك
 الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه " ٣ . وذلك بسط وإطناج: لنفي الريب
 عنه " . وهكذا تطرد للسيوطي قاعدته.

(ب) علاقة التلازم والاتحاد :

استقرأ السيوطي هذا الأمر على نحو ما أشرنا. إذا وردت سورتان بينهما
 تلازم واتحاد فكانت حائفة السورة الثانية مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على
 لاتحاد مثال ذلك أن آخر آل عمران مناسب لأول البقرة: فإنها انتهت
 بكلمة تتقن، وأنها المنفحون، وحتمت آل عمران بقوله :

میں اثر سے اظہارِ تصور کے لیے لیا گیا ہے۔

حصہ - یہ حصہ ہے جس میں حضرت محمد صلی اللہ علیہ وسلم کی خدمت میں آنے والے لوگوں کی تعداد کا بیان ہے۔ اور اس میں ہے: "وَمِنْهُمْ نِسَاءٌ وَمِنْهُمْ أَقْرَبَاءُ وَمِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَدِيثِ" اور اس میں ہے: "وَمِنْهُمْ نِسَاءٌ وَمِنْهُمْ أَقْرَبَاءُ وَمِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَدِيثِ" اور اس میں ہے: "وَمِنْهُمْ نِسَاءٌ وَمِنْهُمْ أَقْرَبَاءُ وَمِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَدِيثِ"

(ج) تشابہ الأطراف :

یقول عنہ "السیوطی" : "وہذا من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السور. وهو نوع من السبع" "وتشابه الأطراف - في عمل السيوطي - يعني شذوذ أول السورة مع حاتمة ما قبلها في الموضوع. من تشابه الأطراف الذي وقف عليه "سيوطي" أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ، وبدأت النساء به" "ختمت يوسف بوصف الكتاب ، ووصفه بالحق، وبدأت الرعد بمثل ذلك"

وختمت الإسراء بالتحميد. وافتتحت الكهف بالتحميد أيضا"

(د) علاقة المقابلة :

مقابلة أو التبادل من وجوه التناسب بين السور في عمل السيوطي. من أمثلته على ذلك أن سورة الكوثر كالمقابلة لسورة الماعون قبلها؛ لأن الماعون وصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور البخل، وترك الصلاة، والرياء مبنياً، ومنع الزكاة، وذكر في الكوثر في مقابلة البخل : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير. وفي مقابلة ترك الصلاة فصل ﴿٢﴾ : أي: دم عنها وفي مقابلة الرياء ترك ﴿٤﴾ أي: لرضاها، لا للناس. وفي مقابلة منع الماعون وهو ﴿١﴾ وأراد التصديق بلحوم الأضاحي. أحد السيوطي التاويل

-
- ۱۔ سورہ النور
 - ۲۔ سورہ النور
 - ۳۔ سورہ النور
 - ۴۔ سورہ النور
 - ۵۔ سورہ النور
 - ۶۔ سورہ النور
 - ۷۔ سورہ النور
 - ۸۔ سورہ النور
 - ۹۔ سورہ النور
 - ۱۰۔ سورہ النور

سائر عن الإمام محمد بن سيرين الرزي (ت: ١١٠هـ)
(هـ) علاقة المقارنة :

تستبط هذه العلاقة من كلام السيوطي مثلا عن وجه الاتصال بين سورتي الغيل والشمرة. قال السيوطي: " لما ذكر حال الهمة للشمرة. الذي جمع مالا وعدده. وتميز بماله وتقوي. عقب ذلك بذكر أصحاب الغيل. الذين كانوا أشد منهم قوة. وأكثر أموالا وعتوا. وقد جعل كيدهم في تضليل. وأهلكهم بأصغر الطير وأضعفه. وجعلهم كمنصف مأكول... فمن كان قصاري تمزؤه وتقويه بالمال. وهمز الناس بلسانه. أقرب إلى الهلاك. وأدنى إلى الذلة والمهانة"^(١١١).

تبدو المقارنة هنا إذن علاقة دلالية رابطة بين طرفين لسان صفة أو وضع لأحدهما مقارنا بالآخر.

(و) علاقة الملابس :

وتجلى هذه العلاقة بين سورة الشمس والليل والضحى قال السيوطي: " هذه الثلاثة حسنة التاسق جدا؛ لما في مطالعها من المناسبة لما بين الشمس والليل والضحى من الملابس. وفيها سورة الفجر. لكن فصلت بسورة البلد لشكته أهم. كما فصل بين الانقطار والانشقاق وبين المسبحات: لأن مراعاة التماسك بالأسماء والفواتح وترتيب النزول. إنما يكون حيث لا يعارضها ما هو أقوى وأكد في المناسبة"^(١١٢).

(ز) علاقة التحقيق :

وتستبط من كلام السيوطي عن السورتين إذا كانت بداية إحداهما قسم على تحقيق ما في سابقتها. من أمثلة هذه العلاقة ما لاحظته السيوطي من الارتباط بين سورة الفجر والفاشية قبلها. يقول السيوطي: " لم يظهر لي من وجه ارتباطها (بمعني الفجر) سوي إن أولها كالأقسام على صفة ما ختم به السورة التي قبلها (بمعني الفاشية): من قوله جل جلاله: «إِنَّ إِلَهَنَا يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُفُّوا»

^(١١١)الترجم السابق ص ١٤٤ - ١٤٥

^(١١٢)السلي الدور ص ١٤٣ - ١٤٤

^(١١٣)الترجم لسلي ص ١٤٦ - ١٤٧

إِنْ عَلَيْنَا جُنَاتُهُمْ^(٢٦) وعلى ما تضمنه من الوعد والتخيد. فكما أن أول الآيات قسم على تحقيق ما في (ن)، وأول المرسلات قسم على تحقيق ما في (عم).

(ج) بيان العلة :

ويضي أن تقع السورة موقع العلة لما قبلها. من ذلك مثلا أن سورة البينة - كما يذكر السيوطي - واقعة موقع العلة لسورة القدر قبلها؛ وكأنه لما قال سبحانه: "إنا أنزلناه"^{١٠}، قيل: لم أنزل؟ قيل: لأنه لم يكن الذين كفروا منفسكين عن كفرهم، حتى تأتيهم البينة، وهو رسول من الله يتلو صحفا مطهرة، وذلك هو المنزل^{١١}.

من ذلك أيضا أن أول سورة الحديد واقع موقع العلة للأمر بالتسبيح في آخر سورة الواقعة؛ وكأنه قيل: "فسبح باسم ربك العظيم" لأنه "سبح لله ما في السموات والأرض"^{١٢}.

(ط) الإتمام أو العطف :

وذلك أن تكون السورة في ترتيبها كالتتمة لما قبلها. من الأمثلة على ذلك أن سورة المارج - فيما يظفر السيوطي - كالتتمة لسورة الحاقة في بقية وصف يوم القيامة والنار^{١٣}. وسورة النمل كالتتمة للشعراء قبلها في ذكر بقية القرون، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان، وداود، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هي في الشعراء^{١٤}.

يجعل السيوطي هذه العلاقة من العلاقات التي بين سورة وأخرى؛ كعلاقة سورة الشرح بالضحى قبلها. ينقل السيوطي عن الإمام فخر الدين الرازي قوله: "والذي دعاهم إلى ذلك (يعني ما ذهب إليه بعض السلف في جعلها سورة واحدة بلا سملة) هو أن قوله: "الم نشرح" كالعطف على: أنه يجدك بيتما هذوي"^{١٥} في الضحى^{١٦}.

١٠- التفسير لادري: ١٣٦.

١١- ترمذ التفسير: ص ١١.

١٢- ج ١ ص ١٢٢.

١٣- ج ١ ص ١٢٨.

١٤- ج ١ ص ١٢٢.

١٥- ج ١ ص ١٢٢.

(ي) وصف الإطار الزمني :

نستبسط هذه العلاقة من كلام السيوطي مثلا عن وجه الاتصال بين سورتي البينة والزلزلة. قال السيوطي: "لما ذكر في آخر لم يكن (يعني البينة) أن جزاء الكافرين جهنم، وجزاء المؤمنين جنات، فكانه قيل: متى يكون ذلك؟ فقيل: "إذا زلزلت الأرض زلزالها" (١١) : أي : حين تكون زلزلة الأرض . إلى آخره" (١٢).

تلعب العلاقات الدلالية على النحو الذي رأيناه دورا بالغا في الوصل بين سورة وأخرى. يمكن - في استقراء موسع - أن نضع الأيدي على مزيد من العلاقات ميزنا هنا بين عشر علاقات دلالية على الأقل، وكانت من ركائز السيوطي المهمة في الكشف عن التناسب بين السور. من أجل ذلك، لا نرى وجها لاقتصار محمد خطابي على ثلاث من العلاقات الدلالية في عمل السيوطي (١٣). نرى في ذلك إجماعا بجهد السيوطي الجهد في تحليل النص القرآني من منظور التناسب من ناحية، ونزاه - من ناحية أخرى - أقل كثيرا من أن يصور حقيقة ثراء العلاقات بين طائفة من النصوص يجمعها نص أكبر واحد.

هناك أمر آخر ينبغي لنا أن ننوه به: وهو أن التناسب عند السيوطي يتجاوز العلاقات الدلالية المذكورة آنفا، إلى كل مظاهر الاتصال الموضوعي والمضموني والمنطقي التي تجعل وضع إحدى السور بعد الأخرى أنسب من وضع غيرها موضعها.

يمكن توضيح ذلك بمثال من عمل السيوطي، وليمكن ما ذكره من وجوه للتناسب بين سورة البقرة والفاتحة قبلها. هذه الوجوه عنده هي :
(الوجه الأول): "سورة البقرة قد اشتملت على تصويل جميع مجملات الفاتحة".

(الوجه الثاني): "أن الحديث والإجماع على تفسير المنضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى. وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب

(١١) - لربح السور ١٢

(١٢) - تنبيهات نص ص ١٩٩ - ٢٠١

ترتيبهم في الزمان، فغلبت بسورة البقرة، وجمع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة، وما وقع فيها من ذكر النصاري لم يقع بذكر الخطاب

(الوجه الثالث): * أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال، ... ، فناسب تقديمها على جميع سور القرآن .

(الوجه الرابع): * أنها أطول سورة في القرآن، وقد افتتح بالسبع الطوال، فناسب البداية بأطولها .

(الوجه الخامس) * أنها أول سورة نزلت بالمدينة، فناسب البداية بها، فإن للأولى نوعاً من الأولوية .

(الوجه السادس): * أن سورة الفاتحة كما ختمت بالدعاء للمؤمنين بالألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالاً، ختمت سورة البقرة بالدعاء بالألا يسلك بهم طريقهم في المواخذة بالخطأ والنسيان، وحمل الإصر، وما لا طاقة لهم به تقصيلاً، وتضمن آخرها أيضاً الإشارة إلى طريق المغضوب عليهم والضالين بقوله: ﴿لَا تُغْنِي بَيْنَ أَعْيُنِنَا مَنْ رُكِبَ﴾ [البقرة: ١٧٨] فتآخت السورتان وتشابهتا في المقطع.

وذلك من وجوه المناسبة في التوالي والتناسق . . . فهذه ستة وجوه ظهرت لي

يتضح مما سبق ما المينا إليه أنفا : يتسع التناسب هنا ليشتمل على العلاقات الدلالية: كتفصيل الجمل، وعلي وجوه أخرى لغوية: كتالتناسب الموضوعي في خطاب أهل الكتاب، والاشتراف في مضمون الخاتمة، أو وجوه خارجة عن نطاق اللغة: كتالطول، وترتيب النزول.

لا ريب أن طبيعة النص المدرس الخاصة من الناحيتين: اللغوية وغير اللغوية، قد فرضت مثل هذا التوسع في استخدام مفهوم "التناسب" عند السيوطي. هذا ما يؤكد عمل آخر للسيوطي في التناسب بين المطلق والمقطع في السورة الواحدة: وهو رسالته: "مراسد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع". فضلا عن خروجه بنطاق المطلق عما تمارفه سابقوه. حتى يصل المطلق عنده

تفصيل للنص عند النص مطبوع من التراث العربي

إلى نصف السورة والمقطع إلى نصفها الآخر^(١١)، فقد اتسع "التناسب" عنده إلى أن جعل الاشتراك بين المقطع والمقطع في موضوع أو محور خطابي وجه التناسب الرئيس. من ذلك مثلا أن "هود" و"يوسف" و"الرعد" و"إبراهيم" و"الحجر"، كلها مفتتحة بذكر القرآن، ومختتمة به^(١٢). وفي حالات غير قليلة يظهر وجه التناسب في هيئة علاقة دلالية ما.

على أي حال، فمن المسلم به أن لدراسة السيوطي عن "تناسب السور" خصوصية من جانب قيامها على نص منزل من لدن حكيم خبير للناس كافة. ولكن هذا النص قد أحكمت ممانته ومقاصده علاقات دلالية ومضمونية في كل جزء من أجزائه في محيط نظمته الكلي. من ثم، يظل السؤال التالي مشروعاً: إذا اتخذنا دراسة السيوطي عن "تناسب السور" نموذجاً لدراسة تطبيعية عن خاصية الحبكة بين طائفة من النصوص في إطار مترابط أكبر، فما المعطيات النظرية العامة التي توقفنا عليها مثل تلك الدراسة؟

يمكن إيجاز تلك المعطيات فيما يلي:

- ١ - يجمع النص بالآخر في محيط نص مترابط أكبر علاقته دلالتان اثنتان على الأقل: إحداهما علاقة مطردة بين جميع النصوص، من حيث إن أحدهما يفصل مجمل الآخر، ومن حيث إن كلا منهما جزء من كل، والأخرى متغيرة حسب موقع النص مما قبله وما بعده.
- ٢ - كلما طال نصان متواليان في نص مترابط مطول، كانت فرصة لأن تجمع بينهما أكثر من علاقته اثنتين. هذا ما نراه واضحاً في عمل السيوطي بين معظم السور المدنية.
- ٣ - إذا كان إحصاء العلاقات الدلالية بين المنطوقات وأجزاء النص الواحد عملاً متاحاً، فإن إحصاء العلاقات الدلالية بين طائفة من النصوص

(١١) مثال ذلك لو الأول منه في سورة المائدة حتى الآية ١٧، وهي قوله تعالى: "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم". السيوطي (حلال الدين) - مرصع المطالع في تناسب المقاطع والمطالع لمحيي. - عند يوسف الشريحي. مجلة (الأحمدية) - دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث - في - العدد الرابع (عادي الأول ١٩٩٠م - أغسطس ١٩٩١م) ص ٧٣ - ١١٢ ص ٩٦

(١٢) مرصع المطالع ص ٩٣

التي يقوم عليها نص أكبر واحد. يبدو شيئاً غير يسير، وقابلاً للتأويل والتمدد. ولعل ما استشره السيوطي من تجاوز وجوه التناسب والاتصال بين سور القرآن ما ذكره في عمله، وكان وراء قوله: "وجمع هذه الوجوه التي استبطلتها من المناسبات بالنسبة للقرآن كمنقطة من بحر"^(١١).

٤ - لمست العلاقات بين نصين في مدونة كبري من حيث المعنى والمقصد ظاهرة دائماً. تظهر هذه العلاقات حيناً، ولكنها خفية في أحيان أخرى. يرتبط خفاء العلاقات بطول النص ومقصده في كثير من الأحيان. وفي عمل السيوطي رأينا وجوه اتصال السورة بالأخرى ظاهرة، ولكنها تحتاج إلى تأمل وروية في أحيان غير قليلة. عبر السيوطي عن هذه المسألة في غير موضع من كتابه:

- عن سورة "إبراهيم" قال: وجه وضعها بعد سورة الرعد، زيادة على ما تقدم، بمد إكفاري فيه برهه...^(١٢)

- وعن وجوه مناسبة "تبارك" لسورة "التحريم" قبلها قال: "ظهر لي بعد الجهد..."^(١٣)

- وعن وجه اتصال "نوح" بسورة "المارج" قبلها قال: "أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها بمد طول الفسك أنه..."^(١٤)

- وعن وجه اتصال "الجن" بسورة "نوح" قبلها قال: "قد فكرت مدة في وجه اتصالها بما قبلها..."^(١٥)

٥ - للاستدلال دور مهم في استنباط العلاقات الدلالية التي لم يصرح بها الخطاب. يمكن أن نضرب على ذلك مثلاً نوع الاتصال بين سورة "نوح" و "المارج" قبلها: قال السيوطي: "أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها بمد طول الفسك أنه سبحانه لما قال في "سأل" (يعني المارج): "إننا لنأدرون على أن نبدل خيراً منهم" ١١، عقبه بقصة قوم نوح، المشتملة على إبادتهم

(١١) تاسق الفهر ص ٨٧

(١٢) تاسق الفهر ص ٩٦

(١٣) المرجع السابق ص ١٢٢

(١٤) المرجع ص ١٢٩

(١٥) المرجع ص ١٢٩

عزّاهم. بحيث لم يبق منهم ديار، وبدل حيرا منهم، موقع الاستدلال لما ختم به شارك (5). وفي الاتصال بين "بارك" و "التحريم" قبلها. يقول السبوطي: "ظهر لي بعد الجهد: أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتين نوح ولوط الكاهنتين، وامرأة فرعون المؤمنة، اقتصحت هذه السورة بقوله: "الذي خلق الموت والحياة" (2). مرادا بهما الكفر والإيمان في أحد الأقوال، للإشارة إلى أن الجميع يخلقه وقدرته، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط، ولم ينضمهما اتصالها بهذين النبيين الكافرين، وأمنت امرأة فرعون، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد، لما سبق في كمال من القضاء والقدر".

من المقرر - في علم لغة النص ونظرية تحليل الخطاب - أن خطاب اللغة الطبيعية - على عكس الخطاب الشكلي - ليس خطابا صريحا تماما explicit.

يمكن أن تقع الملاحظات بين الجمل والقضايا دون أن يعبّر عنها. وهذه هي العلة في أن البنية النظرية للنص ضرورية لبيان كيفية تفسير الخطابات بأنها مترابطة حتى وإن كانت معظم القضايا اللازمة لإنشاء الحكيم تبقى ضمنية implicit، على نحو القضايا المستلزمة عن قضايا أخرى قد عبّر عنها في الخطاب تعبيرا صريحا. هنا يكون للاستدلال دور⁽¹¹⁾. وقد رأينا في التوطئة كيف يمكن لنا أن نقوم بتركيب "الحلقات المفقودة" في الخطاب بواسطة قوانين الاستدلال Rules of Inference.

٦ - إذا كانت بنية النص الكبري هي بنية المحتوى النصي الشاملة التي تؤثر على مقصده الرئيس، فإن بنية النصوص المكونة لنص أكبر ممتد يبنى لها أن تكون - عبر علاقات المحتوى الكبري فيها - ما يمكن تسميته بالبنية النصية المنظمة. في ضوء هذا يمكن أن نفهم كلام القدماء عما أسماه "المقصد الأعظم من القرآن". مثال ذلك أن الإمام فخر الدين الرازي (ت 6٠٦هـ) جعل "المقصد الأعظم من القرآن" هو تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر⁽¹²⁾.

(11) نيشن لغوي ص 129

(12) راجع Text and Context, p 94

(13) نيشن لغوي ص 129 - 130

٥ - خلاصات وتمقحيات :

كان النص الأدبي عند البلاغيين والنقاد، والنص القرآني عند البلاغيين والعاقلين في حقل التفسير وعلوم القرآن، المادة النصية التي نهضت عليها تظهيرات القدماء وتبصراتهم في حبله الكلام وإيقاع المناسبة بين أجزائه. ولا ريب أن اتخاذ شكل من النص القرآني والنص الأدبي مركزا للعمل في حبله النص مبرر برغبة في أن تصدر تظهيراتهم عن نماذج لغوية عليها، تزود بالمثال المحتذي. ويدهي أن يكون الوقوف على النماذج الأدبية المهيبة مطلعا أو تخلصا أو خاتمة أو وصلا بين الأجزاء، قصدا إلى استهداف النقض عند صناعة الكلام.

فضلا عن اصطلاح الحبل، استخدمت مفاهيم أخرى تؤدي إليه؛ كالتناسب والالتحام والارتباط والتعلق والمجانسة والمواخاة ونحوها. في ظل ذلك قدم القدماء طائفة من التصورات والمبادئ التي ربطت تمام حسن الكلام بحسبه وتناسب المعاني بين أجزائه. يمكن أن نجمل تلك التصورات والمبادئ فيما يلي :

- ١ - مبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام ودلالته على الاستمرارية المعنوية في النص.
- ٢ - مبدأ مجانسة الجزء للكامل، وهو ما رأناه على نحو تطبيقي في باب "الابتداء والتخلص والانتهاج". ومن الدراسة التطبيقية، استمدت الفوائين التي تحسب كل جزء بما بعده وبما قبله لغويا وموقفيا :
- (أ) فالابتداء ذو علاقة موقفية بمقام الاتصال، ولغوية بالوحدات التي تليه؛ بينما شعريا، أو جملة في رسالة أو خطبة.
- (ب) والتخلص على علاقة لغوية بما قبله وما يليه. ويشترط فيه التدرج.
- (ج) والانتهاج قاعدة النص.
- ٣ - اتخاذ فكرة التناصر أساسا لترتيب المبادئ إلى رتبها الثلاث المعروفة عند حازم.
- ٤ - اتخاذ معيار المناسبة وفكرة التناصر منظورا لغويا إلى "بنية النص". مما يمكن فيما للنص ككلا دالها متفاعل الأجزاء.

- ٥ - أنواع اقتران المعاني (أو جهات التعلق)، وهي عند حازم: اقتران التماثل، واقتران المناسبة، واقتران المطابقة أو المقابلة... الخ.
- ٦ - ربط مقاصد النظم بقوى فكرية مختلفة: كالقوة على تصور صورة مثل للقصيد، والقوة على تنظيم المعاني وتوزيعها بين الفصول، والقوة على ملاحظة وجوه التناسب بين تلك المعاني. وينبغي لما وصل إليه حازم في بحث "القوى الفكرية" أن يعد من الأسس الإجرائية في تحليل النص وفهمه.
- ٧ - قوانين الوصل بين الفصول، وتصنيف هذه الفصول - من خلال جهد ظاهر عند حازم في استقراء النصوص - إلى ضربها الأربعة.
- ٨ - العلاقات الدلالية التي فطن إليها حازم، فضلا عن "وجوه التناسب" الملتنة في عمل السيوطي أو التي يمكن أن تستبطن منه. نود أن نبز منها هنا - على وجه الخصوص - أمرين:
- (١) أهمية هذا العمل في تجلية الاختلافات أو القواسم المشتركة بين طبيعة العلاقات الدلالية بين أجزاء النص الواحد والعلاقات الدلالية بين نصين... : في مدونة نصية كبرى، من حيث ظهور العلاقات واختلافاتها، أو من حيث عدد العلاقات الأقل الذي يلزم وقوعه للربط المنوي أو المضموني في الحالتين؛ أو من حيث العلاقة الطردية بين طول النص وعدد العلاقات الكامنة... الخ.
- (ب) أهمية هذا العمل في توكيد دور الاستدلال في اكتشاف العلاقات الدلالية الخفية التي لم يصرح بها الخطاب.
- في ضوء ما سبق، يمكن وضع الأيدي على حقيقتين اثنتين على الأقل:
- (أولاهما) أن القدماء فهموا النص وحدة كلية مترابطة الأجزاء، متجانسة الدلالات والمعاني والمضامين. ولا يند عن ذلك إلا نظرهم إلى القصيدة المركبة. وهو ما سننقب عليه بعد قليل.
- و (الأخرى) أن التصورات والمبادئ السابقة جميعا، وهي حصائد فكر المهتمين بصناعة الكلام والنصوص من اللغويين والبلاغيين، تكاد تشغل جميع المنظورات التي حددها ليفاندوفسكي للحبك في علم اللغة النصي:
- "الحبك أداة لغوية لفهم السبك فيما أعظم، نراه في روايات الجاحظ

عن بعض منتجي النصوص، وفي إشارات ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، وابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) والحسين بن وهب (ت ٣٢٧هـ) وأبي هلال العسكري (ت ٢٩٥هـ) وابن رشيق (ت ٦٣٦هـ): عن الكلام المضموم إلى لفقه، والكلام الأخذ بعضه برفاق بعض، وانتظام المعاني، وتشاكل المصراعين، وإنشاء الموارد عن المصادر، والمشاكلة بين الألفاظ، وروبط الحبك بالسبك، وذكر المعني مع أخيه لامع أجنيي... الخ.

- والحبك خاصة من خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، نراه في وجوه التماسب التي اتسع بها السيوطي في عمله عن تماسب السور، حتى خرجت عن العلاقات الدلالية المحددة إلى التماسب بين السورتين في الارتباط بمرجعية واحدة؛ كأن يكون الموضوع المتكلم عنه واحدا في المطلع أو المقطع.

- والحبك خاصة من خصائص إطار الاتصال الاجتماعي، نراه في اشتراط مناسبة المطالع للمقاصد، ومقامات الاتصال، وأحوال المخاطبين، وما يروق للممدوحين سماعه في فصول المديح؛ فلا يمدح الشاعر بما هو بالرتاء أجدر، وأن يرفع دور المخاطب الاجتماعي؛ فكل طبقة ما يشاكلها، فضلا عن رعايته موقف الاتصال الخارجي، فلا يتنزل إذا كان الكلام في حادثة لا يناسبها الغزل.

- والحبك إجراء وحيلة للتلقي الابتكاري البناء، نراه في كلام حازم عن دور المتلقي في الاستدلال على الشئ بما هو أعم منه، أو في دوره عند السيوطي في الاستدلال على العلاقات الدلالية التي لم يصرح بها الخطاب ليس القصد مما سبق تعبئة ما وصل إليه القدماء من تصورات ومبادئ في قوالب جديدة من عمل النظرية اللغوية المعاصرة، وأن القدماء وصلوا إلى ما وصل إليه المحدثون، وانتهوا إلى ما انتهوا إليه، حتى لم تعد بنا حاجة إلى تلك النظريات اللسانية المحدثة. المضاهاة السابقة بين منظورات القدماء والمحدثين نوع استنساء بمحددات المحدثين النظرية المحكمة، وقد كشفت عن إلمام التراث العربي في مجال الحبك بطائفة من التبصرات الجوهرية والخطوط العريضة غني عن البيان أن المنظورات الأربعة التي حددها ليفاندوفسكي للحبك على النحو السابق قد رفعتها اتجاهات لغوية حديثة عدة، مثل اللغويات

الاجتماعية. ونظرية أفعال الكلام. ونظريات التلقي وبحوها. أما اجتهادات القدماء. فقد ردهتها نظرة شمولية ثابتة في صناعة الخطب العربي. تجمع بين العلم والذوق اقصدا بالعلم هنا انعلم اللغوي بمعناه العام (النحوي والدلالي والمقاسمي) الذي يلزم توصيف ظواهر كلامية وتصنيف مفردة. من حيث الصياغة ومن حيث كيفية الوصول إلى المؤثرات الاتصالية المثالية: ترتيب الأفكار. وتنظيم أجزاء الكلام... الخ.

أما الذوق. فقد لاحظناه في مواطن كثيرة مما سبق. نحو خلق اوصاف الاستحسان والاستزدال على المطالع والتخلصات والخواتيم. ونحو ريمط حازم وغيره بين القصيدة المركبة والنفوس الصحيحة الأذواق. ويمكن ان نضيف هنا تعليق أبي هلال على المناسبة المعنوية بالمطابقة في قوله تعالى: وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الذُّرِّيَّ وَالرُّجْبِيَّ الذُّكْرَ وَالْأُنثَى "النجم: ٤٣- ٤٤" وقوله: "وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤٥) كَسُوفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥٥)" الضحى: ٤- ٥ بقوله: "فابكى مع اضحك. واحيا مع امات. (الذكر والانثى مع الذكر. والأولي مع الآخرة. والرضا مع العطية. في نهاية الجودة وغاية حسن الموقع". مثل ذلك ما نراه في السبك أيضا. اضرب مثلا على ذلك من مبحث المناظرة بين الألفاظ في السبك. قال ابن الأثير: "أنشد بعض الأدباء بيتا لدعبل (ت٢٤٦هـ). وهو:

شفيحك فاشكر في الحوائج إنه يصونك من مكروهما وهو يخلق

فقلت له: عجز هذا البيت حسن. وأما صدره فقبیح: لأنه سبكه قلنا نافرأ. وتلك الفاء التي في قوله: "شفيحك فاشكر" كانها ركة البعير. وهي في زيادتها كزيادة الكرش. فقال: لهذه الفاء في كتاب الله أشباه. كقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ (٣) وَفِيهَا يَوْمٌ (٤)" المدثر: ١- ٤ فقلت له: بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا. وبالذوق ثانيا.

أما العلم: فإن الفاء في "وربك فكبر وثيابك فطهر" وهي الفاء العاطفة. فإنها واردة بعد "قم فأنذر". وهي مثل قولك "امش فاسرع" و"قل فابلق".

وتيسر الفاء التي في شفيعك فاشكر صهده الفاء لأن تلك زائدة، لا موضع لها. ولو جاءت في السورة كما جاءت في قول دعبل - وحاش لله من ذلك - لا بدئ الكلام، فقل: ربك فكبير. وثياك فطهر. لكنها لما جاءت بعد "قم فأنذر" حسن ذكرها فيما يأتي بعدها من "وربك فكبير. وثياك فطهر".

وأما النون: فإنه ينبو عن الفاء الواردة في قول دعبل، ويستقلها، ولا يوجد ذلك في الفاء الواردة في السورة.

فلما سمع ما ذكرته أذعن بالتسليم^(١١).

وهناك فرق جوهري في المادة اللغوية الممتدة للتحليل بين التراث العربي وعلم اللغة النصي. يلحظ المرء أن نماذج الدراسة النصية منذ عام ١٩٧٠م، قد جعلت مركز اهتمامها التعريف بتوظيف النصوص في سياقات الحياة اليومية. وقد تبع ذلك أن تكون مادة التحليل اللغوية نصوص المحادثات التي تمثل جانباً مهماً من جوانب النشاطات الاجتماعية اليومية، وهي - كما نعرف - نصوص تبني على التفاعل المباشر المطلق بين المشتركين فيها. أما مادة التحليل عند العرب، فقد كانت - كما رأينا - النصوص القرآنية والنصوص الأدبية. وغني عن البيان أن النص القرآني يقدم النموذج الأعلى للغة المسيوكة المحيطة. وفي النصوص الأدبية يرى هؤلاء الباحثون العرب نماذجهم المنشودة. ومعلوم أن ظروفها وأسبابها تاريخية مرتبطة بالمقاصد الكبرى للتأليف والتصنيف في العربية، قد جعلت ذلك أمراً طبيعياً. ولكننا نحسب أن لو كان قدر لطائفة من اللسانيين المحترفين أن يجعلوا الاستخدام اللغوية في شكله التفاعلي المنطوق غير الأدبي مادة لتحليل الطرق التي يتحقق بها الحيك، لكانوا - كما هو المظنون بهم - قد قدموا مزيداً من التصورات والحقائق، على نحو ما رأينا عند لا بوف و ودوسون مثلاً، من ربط تحقق الحيك بالملاقة بين أفعال الكلام الإنجازية.

من ناحية أخرى، فإن مقارنة ما انتهى إليه القدماء عن مشكل الحيك في طراز القصيدة المرصبة بما استقر في علم اللغة النصي ونظرية تحليل

الفصل الثالث
النص العجاجي العربي
دراسة في وسائل الإقناع

١ - توطئة :

توصيف مكونات البنية الحجاجية للنص الحجاجي العربي نوعاً نسبياً خاصاً، واستقراء وسائل الإقناع المنطقية واللفوية وتحليل صورها المختلفة انطلاقاً من معطيات المينيات النصية المختارة لهذه الدراسة ذاتها، هما الهدفان الأوليان اللذان تسعى دراستنا إلى تحقيقهما. وقد اقتضى تحقيق هذين الهدفين تمهيد السبيل إلى التطبيق بهذه التوطئة النظرية التي نرسم بها إلى إلقاء ضوء على المفاهيم والأسس النظرية ذات الصلة الوثقى بمحتوى المعالجة التطبيقية.

(أ) أنواع النصوص :

التمييز بين أنواع النصوص وفقاً لمعايير لفظية واتصالية هو مجال نظرية أنواع النصوص Text Type Theory. لا نمضي هنا بتقديم مراجعة شاملة لأدبيات هذه النظرية، ولكننا نمحض القول فيما يناسب أهداف الدراسة. هدف نظرية أنواع النصوص تكشيف خواص البنية اللفوية وأنماط الوظائف الاتصالية التي يظل ارتباطها بنوع نصي بعينه مقارناً بسائر الأنواع الأخرى. الهدف من تصنيف النصوص إلى أنواع محددة هو دائماً اختصار العدد غير المتناهي من نصوص حقيقية إلى أنماط كبرى قابلة للتحديد والتحليل.

كان للاتجاه الموجه إلى النظام اللفوي من منظور بنائي، لا سيما من منظور الملامح النحوية، إسهامه في نظرية النص. كانت نقاط التركيز فيه مختلفة: طرق توزيع الأزمنة في النص، وطرق استخدام العناصر الإشارية، وطرق الربط الإحالي ... إلخ. بيد أن أكثر الإسهامات اللاحقة في نظرية النص قد أثبتت عجز البحوث البنائية الموجهة إلى النظام اللفوي وحده عن أن تمدنا بوسائل كافية لتصنيف مناسب للنصوص من حيث هي واقعات في سياق التفاعل الاتصالي. لقد لوحظ أن النص الواحد يمكن أن يشتمل على أكثر من نوع نصي واحد، وهو ما يوجب أن يتولى نموذج «نوع النص» بصلاحيته لأداء أفعال لفظية معقدة ذات ارتباطات بالعلامات السياقية الموقفة والعلامات الوظيفية الاتصالية، والعلامات البنائية النحوية والموضعية

جميعاً⁽¹⁾

ويحدد برنكر Brinker ثلاثة معايير للتمييز بين أنواع النصوص في علم اللغة النصي:

١- الوظيفة النصية معياراً أساسياً: ويقود هذا المعيار إلى التمييز بين أنواع نصية خمسة: إخبارية (كالخبر والتقارير) وطلبية (كالقانون والطلب) والتزامية (كالمقد والضمان) واتصالية (كالإعراب عن الشكر) وإقرارية (كالتوصية).

لوحظ أن هذه الأنواع المحددة في إطار وظيفة النص واسعة جداً، ويمكن أن توزع على نحو آخر إلى أنواع أكبر.

٢- المعايير السياقية: وتجري على مستوى الوصف الموقف الذي يضم مقولتي شكل الاتصال Kommunikationsform و «مجال الفعل Handlungsbereich». ويحدد الموقف الاتصالي من خلال الوسيط الذي تنقل عبره النصوص. ويميز هنا بين خمسة وسائط: الاتصال المباشر (وجها لوجه) والاتصال الباتفي، والاتصال الإذاعي، والاتصال التلفزيوني، والاتصال المكتوب.

تؤسس العلامات الموقفية التي تخص شكل وسيط على حده أنواعاً للاتصال، من أهمها: المحادثة المباشرة (وجها لوجه)، والمحادثة الباتفية، والإرسال الإذاعي، والإرسال التلفزيوني، والرسالة، والمقالة الصحفية أو الكتاب.

٣- المعايير البنائية: وتتخذ في الجانب البنائي المقولتين الموضوعيتين: موضوع النص Text thema، والشكل الذي يظهر فيه الموضوع Form der Themenentfaltung، أساسين للتمييز بين أنواع النصوص:

(1) راجع في تفصيل ذلك:

• جورج راند (روبرت) نص الخطاب والإجراء، ترجمة د. عام حسان، عالم الكتب، طبعة الأولى القاهرة (١٩٩٨م - ١٩٩٨م) ص ٤١١.

• حاتم (بلس) - ميسون (إيمان): الخطاب والترجم، ترجمة د. عمر فايز صطري، النشر العلمي والطابع بمصر (١٩٩٨م - ١٩٩٨م) ص ٢١٦-٢١٦.

• Brinker, Klaus: linguistische Textanalyse. Eine Einführung in Grundbegriffe und Methoden. 3., durchges. und erw. Aufl. (1992) S. 131

(أ) موضوع النص: ويشتمل على التركيز الزمني للموضوع، وهو ما يعرف باسم «التوجه الزمني»: ما قبل الكلام، و زمن الكلام، وما بعد زمن الكلام. مثال ذلك الأنواع النصية: الخبر، والبروتوكول ونحوهما. ويشتمل موضوع النص أيضا على «التوجه المكاني»: أي العلاقة بين المرسل والمستقبل وبين الموضوع :

الموضوع - المرسل

الموضوع - المستقبل

الموضوع - ما يستتس منه شركاء الاتصال. ومثال ذلك التعليق الصحفي .

(ب) الشكل الذي يظهر فيه الموضوع: ويميز هنا بين النص الوصفي، والنص السردي، والنص الحجاجي أو (الجدلي). هذه الأشكال الكبرى التي تظهر فيها الموضوعات وثيقة الصلة بوظائفها النصية⁽¹⁾.

إذا ميزنا بين الأنواع النصية الثلاثة: الوصفية، والسردية، والحجاجية، على أساس مفهوم «مراكز الضبط Control Centers في عالم النص، كما فعل دو بوجراند، لرأينا أن مراكز الضبط في النصوص الوصفية Descriptive هي - في معظمها - تصورات للشبه والموقف، وهي في النصوص السردية Narrative تصورات الحدث والعمل، وهي في النصوص الحجاجية Argumentative قضايا كاملة تنسب إليها قيم صدق وأسباب لاعتقاد كونها حقائق. ويطلب أن يكون هنالك تعارض بين القضايا التي تتصادم فيها القيمة لكونها موصوفة بالصدق truth assignment⁽²⁾.

لقد كان من أهم العلل التي أمسكت بها الإسهامات الأولى في نظرية أنواع النصوص: أن كل نظرية تبحث عن القواعد التي تحكم نصا بعينه، وتظهر هل هي قواعد يختص بها هذا النوع، أم أنها قواعد مشتركة. ومن أهم تلك العلل أن كلاما من علوم اللغة وعلم الأدب معنى بمشكل تحديد أنواع

(1) Brinker, Op. Cit., SS 133- 139

(2) النص والحطاب والإجراء، مرجع سابق ص 116 - 117

صاحبه ومبرنه، يهدف الى تحليل النص من منظور منهجي جديد
 لهذا الشكل

أ) الحجاج والنص الحجاجي :

في علم اللغة النصي والنظرية الحجاجية المعاصرة عرف الحجاج من زوايا
 شتى: السمات الموضوعية العامة، أو البنى اللغوية المميزة، أو الغرض البلاغي
 والوظيفة الاتصالية، أو التقاط سمة أولية مائزة، ... إلخ. تطول القائمة
 بالتعريفات إن مضينا مع أدبيات علم اللغة النصي والنظرية الحجاجية، حتى
 نراها تدنو كثيرا من جوهر الحجاج تارة وتباعد عنه قلبا تارة أخرى. من أهم
 التعريفات التي نراها أدنى من غيرها إلى جوهر الحجاج ما يلي :

١- الحجاج عند أندرسين Andersen ودوفر Dovre طريقة لاستخدام التحليل
 العقلي والدعاوى المنطقية، وغرضها حل المنازعات والصراعات واتخاذ
 قرارات محكمة والتأثير في وجهات النظر والسلوك^(١).

ككون الحجاج طريقة من التحليل والتعليل يستخدم فيها المنطق للتأثير
 في الآخرين مما تبني عليه تعريفات أخرى عدة، نراها عند روبرت مير R.
 Huber^(٢)، وعند كل من ماكبورني McBurney وميلز Mills^(٣)، وعند
 كل من فيشر Fisher و سايلز Sayles^(٤) وغيرهم.

٢- والحجاج عند بيريلمان Perelman وتيتسكا Tyteca طائفة من تقنيات
 الخطاب التي تقصد إلى استمالة المطلقين إلى القضايا التي تهمس عليهم
 أو إلى زيادة درجات تلك الاستمالة^(٥).

(١)راجع في تفصيل ذلك

Gueich, Elizabeth - Raible, Wolfgang Textsorten Probleme, IN: Linguistische
 Probleme der Textanalyse Schwann, Duesseldorf 1 Auflage 1975,ISS 144,19-55
 140-141

(٢) Anstetter, Jerry M. Dovre, Paul. J Readings in Argumentation Allyn and
 Bacon, Inc Boston (1968) p.3

(٣) Huber, Robert, B. Influencing through Argument David Mc Kay Co Inc New
 York (1963) p.4

(٤) McBurney, J. Mills, G. E. Argumentation and Debate Mac Millan Co New
 York (1964) p. 1

(٥) Fisher, Walter Sayles, Edward (eds) The Nature and Functions of Argument In
 Gerald J. Miller and Thomas J. Nilsen (eds.), Perspectives on Argumentation
 Scott Foresman and Co. Chicago (1966) pp. 3-27, pp 3-4

(٦) Perelman Ch. Tyteca Olbrechts, Traite de l'argumentation Presses universitaires
 de Lyon (1981) p.92

والاستماتة أو *Adherence* هي لمصير الأهم الذي سبت عليه تعريفات أخرى. من أهمها تعريف ريكس *Riecke* وسيلارز *Sillars* يعرف هذان الباحثان الحجاج بأنه عملية عرض دعاوي تضارب فيها الآراء مدعومة بالعلل والدعامات المناسبة بغية الحصول على الموافقة لإحدى تلك الدعاوي⁽¹⁾

3- وتبرز تعريفات أخرى ككون الحجاج هملا لفويا أو عملية اتصالية أو حنسا من خطاب تفاعلي مع إبراز أهم مكوناته، على نحو ما نجد في تعريف أونس ماس *Utz Maas*، وديبورا شيفرين *Deborah Schiffrin*، وككل من هاينمان *Heinemann* وفيهجر *Viehweger* :

فالحجاج عند ماس سينق من الفعل اللفوي *Handlungszusammenhang* تعرض فيه فرضيات (أو مقدمات) وادعاءات مختلف في شأنها. هذه الفرضيات المقدمة في ذلك الموقف الحجاجي هي مشكل الفعل اللفوي⁽²⁾

والحجاج عند شيفرين جنس من الخطاب، تبني فيه جهود الأفراد دعامة مواقفهم الخاصة، في الوقت نفسه الذي ينقضون فيه دعامة موقف خصوصهم⁽³⁾

والحجاج عند ككل من هاينمان وفيهجر عملية اتصالية. هي ككل ضرب من ضروب عرض البرهان الذي يطل الفرضيات والدواع والاهتمامات⁽⁴⁾ تلك نماذج من أهم تعريفات الحجاج، دارت حول عناصر موضوعية وبنائية ووظيفية شتى. خلاصة تلك التعريفات: أن الحجاج جنس خاص من الخطاب، يبني على قضية أو فرضية خلافية، يمرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيًا، قاصدا إلى إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية.

(1) Riecke, Richard, D. Sillars, Malcolm. (1) : *Argumentation and the decision Making Process* John Wiley and Sons, Inc USA (1975) pp 6-7

(2) Maas, Utz *Sprachliches Handeln II Argumentation* In Hans Buehler (herdq) Sprache 2. Fischer Taschenbuch Verlag Frankfurt (1973) SS-156-178, S. 158

(3) Schiffrin, Deborah *Everyday Argument: The Organization of Diversity in Talk* In Teun A. van Dijk (ed.) *Handbook of Discourse Analysis, Vol 3: Discourse and Dialogue* Academic Press London 3rd Edition (1999) pp 35-46, p 35

(4) Heinemann, Wolfgang. *Viehweger, Dieter Lexikonistik Eine Einführung* Max Niemeyer Verlag Tuebingen (1991) S. 249

في ضوء التعريفات السالفة يمكن تحديد الملامح الأولية لطراز النص الحجاجي فيما يلي:

١- العلاقة بين أجزاء النص الحجاجي علاقة منطقية *logical* أكثر من كونها علاقة نسوية *Perceptual* كما هي الحال في النص غير الحجاجي. ويقصد بالعلاقة التصورية تلك التي تصدر عن تجربة محددة مقيدة بزمن التصور ويحدث التصور. والعلاقة المنطقية علاقة استنباطية *invented* غالباً، في مقابل العلاقة التصورية المباشرة غالباً في النص غير الحجاجي^(١).

يبين وليم برانت *William Brandt* ذلك بأن جوهر الحجاج إنشاء رابطة مقننة بني عبارتين، ومن ثم يعتمد النص الحجاجي اعتماداً كبيراً جداً على بنية أساسية عند عالم المنطق؛ وهي بنية القياس المنطقي. وفي الحجاج يرى الحكم على نتيجة القياس حكماً على الحجج المقدمة - من حيث هي علاقة بين منطوقات تعبر عن قضايا محددة - بأنها صالحة أو فاسدة، لا حكماً عليها بالصواب أو الخطأ^(٢).

٢- يبنى النص الحجاجي - في شكله الرئيس - على مكونات ستة، هي: الدعوى (أو النتيجة) *Claim*، والمقدمات أو تقرير المسلمات *Assertion of Data* والتبرير *Warrant*، والدعامة *Suppor*، ومؤشر *Qualifier*، والتحفظات أو الاحتياطات *Reservations*؛
الدعوى نتيجة الحجاج. هي مقولة تستهدف استمالة الآخرين. تذكر الدعوى صراحة، وقد تضمنت المقدمات تقرير يصنعه المجادل عن أشخاص أو أحوال أو أحداث. وينبغي للمقدمات أن ترتبط بالدعوى ارتباطاً منطقياً، حتى تصلح لتدعيمها. والتبرير بيان للمبدأ العام الذي يبرهن على صلاحية الدعوى وفقاً لعلاقتها بالمقدمات.
والدعامة شكل ما يقدمه المجادل من شواهد وإحصاءات وأدلة وقيم -

(١) Brandt, William J.: *The Rhetoric of Argumentation*. 1 st. Prising. USA (1970) p. VII

(٢) راجع في تفصيل ذلك: Brandt, W.: *The Rhetoric*, op. cit., pp. 22-26

إلخ ، حتى يجعل المقدمات والتبريرات أقوى مصداقية عند المستقبل ومؤشر الحال ككل ما يقدم من تعبيرات تظهر مدى قابلية بعض الدعاوى للتطبيق، نحو: من الممكن، من المحتمل، على الأرجح ... إلخ. والتحفظات هي الأساس الذي ينهض عليه الحكم بعدم مقبولة الدعوى^(١١).

٣- النص الحجاجي نص تقويمي والقهمة مفهوم يستتبط مما يقوله الناس، ومما يفعله، ومما تشيده المجادلات والقيم - مع الدليل ومصادر معقولة الأشياء - تتكون المادة التفاعلية التي يقدر بها الناس الحجاج الذي يستحق منهم الموالاة^(١٢). والقيم من أهم المفاهيم التي يبنى عليها النص الحجاجي عند ككل من دو بوجراند de Beaugrand ودرسلر Dressler. ومن المفاهيم الأخرى: العلة، والممارسة. النص الحجاجي - في نظر هذين الباحثين- نص موظف لتقوية القبول أو تقويم معتقدات وأفكار^(١٣).

(ج) الحجاج والإقناع ،

يمرّف توماس شابدل Thomas Scheidel الإقناع بأنه محاولة واعية للتأثير في السلوك^(١٤). ويرى أوستين فريلي Austin Freely الحجاج والإقناع جزئين من عملية واحدة، ولا اختلاف بينهما إلا في التوكيد Emphasis. يولي الحجاج الدعاوى المنطقية أهمية خاصة، ولكنه يجعل من اختصاصه أيضا الدعاوى الأخلاقية والماطفية. أما الإقناع، فإنه ينعكس على التوكيد الذي يطلّضه^(١٥).

في مقابل ذلك يرى ككل من هوارد مارتنين Howard Martin وكنهيت أندرسين Kenneth Andersen أن ككل اتصال هدفه الإقناع ؛ وذلك أنه يبحث عن تحصيل رد فعل على أفكار القائم بالاتصال^(١٦). يبدو أن هذين الباحثين

(١١) راجع لي تصلح تلك: 77-78. Rieke - Sillars: Argumentation, op cit., pp.

(١٢) المرجع السابق ص ١١٥ .

(١٣) de Beaugrand, R.- Dressler, W.: An Introduction to Text linguistics. (1981) p. 184.

(١٤) Scheidel, Thomas, M : Persuasive Speaking. Scott, Foresman and Co. Glenside (1967) p. 1

(١٥) Freely, Austin, J. : Argumentation and Debate. Wodsworth Publishing co. Belmont 3rd Ed. (1966) p. 7

(١٦) Martin, Howard, H - Andersen, Kenneth, E : Speech Communication. Allyn and Bacon, Inc., Boston (1968) p 6

بمجرد الإقناع هو معناه التمهيد، وليس الإقناع التحايل الذي يصد عن
 وسائل منطقية ونحوية خاصة يمكن توضيح هذه المسألة بالنظر في نصوص
 الخطابة العربية. يتكون النص الخطابى حسب إقناعياً. ولكنه ليس نصاً
 حاجباً بالضرورة؛ لأنه لا يعبر بالضرورة عن قضية خلافية. بمعنى هذا أن
 كل نص حجاجى نص إقناعى، وليس كل نص إقناعى نصاً حجاجياً. يرتبط
 الإقناع بالحجاج إذن ارتباط النص بوظيفته الجوهرية الملزمة في محيط أنواع
 نصية أخرى كالموضيات والسرديات.

(د) الحجاج عند العرب،

وهو الحجاج والاحتجاج والجدل والجدال والمجادلة. يضرب الحجاج
 بجنون قوية في الخطاب العربي، فضلاً عن الدور المهم الذي لعبه الحجاج في
 الحياة العقيدية والسياسية في البيئة العربية الإسلامية، فضلاً عن اعتماد
 البنية الحجاجية في الخطاب العلمى البلاغى، على نحو ما نرى في دفاع عبد
 القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) عن إعجاز القرآن بإقناع الناس بفكرة النظم،
 مما طبع دلائله بطبيعة حجاجية واضحة^(١)، فضلاً عن كمال ذلك، شغل
 الحجاج بعض القدماء جنساً خاصاً من الخطاب. يمكن أن نقف هنا على
 محاولتين مهمتين في دراسة الحجاج لكل من أبى الحسين إسحق بن وهب (ت
 ٣٢٧هـ) وحازم القرطاجنى (ت ٦٨٤هـ).

يمكن تصنيف خلاصة فكر ابن وهب في الجدال والمجادلة، في النقاط
 الرئيسية التالية:

- ١- قدم ابن وهب تعريفاً دقيقاً للجدل والمجادلة، وضع فيه يده على مقصد
 الجدل ووقوعه في مسائل خلافية؛ وأما الجدل والمجادلة، فهما قول
 يقصد به إقامة الحجج فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في
 المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخسومات، والتصل في الاعتذارات^(٢)

(١) يلحق حجاج فريضة أن حجاج عند المفكر في الدلائل بلورده منطق قائم على لاصفة. ولا لأن ذلك يلازمي لل
 وهو في رأيه منطق أقرب إلى آفة قصد المدعى عند أعضائه. فريضة (حافظ) سبق الحجاج في ذلك ولا
 الإحصاء، بحث مشهور في عهد الخلفاء الراشدين أعمال. وهو: مشهورات كلية الأوامر والخدم الإسلامية.

علمت صحائف. تيس (١٩٩٨م) ص ٢٥٣ - ٢٦٣. ص ٢٦٠

(٢) وهب (المؤلف) إسحق بن إبراهيم بن سليمان (ت ٣٢٧هـ) في حواره بين محمد بن أحمد بن محمد بن
 حياطة الخليلي ساعدت حياطة حجاج وهو شاعر. حياطة الخليلي (١٩٦٧م) ص ٢٢٠

٢- أحدل - فيما يفهم من كلام ابن وهب - خطبات تغليبي، فتاعبي؛ فالجدل إنما يقع في "ثمة من بين سائر الأشياء المسئول عنها" وينبغي للمحب إن سئل أن يفتع، وأن يكون إفتاعه الإفتاع الذي يوجب على السائل القول.

وإذا كان الفلج في الجدل إظهار الحجة التي تفتع، فالغالب هو الذي يظهر ذلك^(١).

٣- إذا كانت مقامات الجدل مقامات اختلافات وخصومات ونحوها، فإن الاعتبار الأخلاقي من أوجب ما توجيه تلك المقامات، بل هو أوجبها. وليس التمييز بين جدل محمود وجدل مذموم - فيما تفهم من كلام ابن وهب - إلا تمييزاً ينظر فيه إلى حضور هذا الاعتبار أو غيابه. الجدل المحمود ما قصد به الحق واستعمل فيه الصدق. والجدل المذموم ما أريد به الممازة والغلبة، وطلب به الرياء والسمة^(٢).

إذا كان القصد هو الحق والصواب، وجب على المجادل ألا تحمله قوة إن وجدها في نفسه، وصحة في تمييزه، وجودة خاطره، وحسن يديه، وبيان عارضته، وثبات حجته، على أن يشرع في إثبات الشيء ونقضه، ويشرع في الاحتجاج له ولضده، فإن ذلك مما يذهب ببهاء علمه، ويظلم نور بهجته، وينسبه به أهل الدين والورع إلى الإلحاد وقلة الأمانة^(٣).

والحق أن كثيراً مما اشترطه ابن وهب في أدب الجدل، ينبغي له أن يمزى إلى ذلك الاعتبار الأخلاقي. ومن أهم ما اشترطه :

(أ) أن يحلم المجادل عما يسمع من الأذى والنبز.

(ب) ألا يحجب برأيه وما تسوله له نفسه حتى يفضي بذلك إلى نصحائه.

(ج) أن يكون منصفاً غير مكابر؛ لأنه إنما يطلب الإنصاف من خصمه، ويقصده بقوله وحجته.

(١) المرجع السابق ص ٢٢٥، ٢٢٨.

(٢) المرجع نفسه ص ١٤١، ١٤٣.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٢.

(٤) المرجع نفسه ص ٢٢٥.

(هـ) ألا يستصغر خصمه ولا يتهاون به، وإن كان الخصم صغير المحل في الجدل^(١١).

٤- مما ذكره ابن وهب في مبثي «الجدل والمجادلة» و «أدب الجدل» ما يمكن أن ينظر إليه الآن من منظور «الاستراتيجيات الاتصالية المحاجية». من أهم ذلك:

(أ) أن يبنى الجدل مقدماته مما يوافق الخصم عليه^(١٢).

(ب) أن يصرف همته إلى حفظ النكت التي تمر في كلام خصمه مما يبنى منها مقدماته، وينتج منها نتائج، ويصحح ذلك في نفسه، ولا يشغل قلبه بتحفظ جميع كلام خصمه فإنه متى اشتغل بذلك أضاع ما هو أحوج إليه منه^(١٣).

(ج) ألا يقبل قولاً إلا بحجة، ولا يرد إلا لملء^(١٤).

(د) ألا يجيب قبل فراغ المسائل من سؤاله، ولا يبادر بالجواب قبل تدبره، واستعمال الروية فيه^(١٥).

(هـ) ألا يشغب إذا شاغبه خصمه، ولا يرد عليه إذا أرسى في كلامه، بل يستعمل الهدوء والوقار، ويقصد مع ذلك لوضع الحجة في موضعها؛ فإن ذلك أغلظ على خصمه من السب^(١٦).

(و) أن يخاطب الناس بما يهدون ويفهمون، فلا يخرج في خطابهم عما توجيه أوضاع الكلام^(١٧).

٥- قول ابن وهب «إن الجدل إنما يقع في العلة»^(١٨)، مطابق لما تقول به النظرية المحاجية المعاصرة. في هذه النظرية الكائنات البشرية صانعة علة Reason-Makers ومستخدمة علة Reason-Users. الوقوف على كيفية

(١١) المراجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٩

(١٢) المراجع نفسه ص ٢٢١

(١٣) المراجع نفسه ص ٢١٠

(١٤) المراجع نفسه ص ٢٣٧

(١٥) المراجع السابق ص ٢١٠

(١٦) المراجع نفسه ص ٢٣٩

(١٧) المراجع نفسه ص ٢١٣ ، ٢١١

(١٨) المراجع نفسه ص ٢٢٤

صناعة الناس العلل واستخدامها هو الوسيلة الضرورية لبيان عملية تطوير الدعاوى ومنع الموالاة.

وإذا كانت العلة في جوهرها هي ما يقدم ردًا على السؤال «لماذا»، فإن العلة المقنعة هي العلة في أن المستمع يمنح موالاته^(١١).

أما حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ)، فإن أهم ما يمكن أن يستخرج من نظريته العامة في «التخيل والإقناع» موصولا بموضوعنا، الأمران التاليان:

١- تمييزه بين جهتين للكلام.

٢- تمييزه بين طريقتين لإقناع الخصم.

في تمييزه بين جهتين للكلام يقول حازم: «لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب، إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال...»^(١٢).

لعل لفظ «الجهة» يعني - في سياقها - طريقة إظهار الموضوع. ولعل تمييز حازم بين الإخبار والاقتصاص وبين الاحتجاج والاستدلال، يعدل ما رأيناه في نظرية أنواع النصوص من تمييز بين النوعين السردي والحجاجي.

أما «التويهات والاستدراجات»، فهي من الاستراتيجيات الحجاجية المهمة. لم يكن حازم أول من فطن إلى الاستدراج. كان ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) قد سبق إلى استخراج هذه الاستراتيجيات من النص القرآني. الاستدراج عند ابن الأثير «مضادعات الأقوال التي تقوم مقام مضادعات الأفعال»^(١٣). وهو عند «استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم»^(١٤).

إضافة حازم في ربطه التويهات والاستدراجات بالطبع والحنكة مما من ناحية، وفي تمييزه بين التويهات والاستدراجات من ناحية أخرى. يقول حازم: «التويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتبار المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه

(١١) راجع في تفصيل ذلك: Rueke - Sillars: *Argumentation*, op. cit., pp. 2-3.

(١٢) القرطاجني (سبزم): سراج السالكين وسراج الأعداء، تعليم وتخليق محمد الحبيب ابن الخرش، دار الكتب الشرقية، تونس (١٩٩٦) ص ٦٣.

(١٣) ابن الأثير (صباح الدين): المثل السائر، قدمه وعلق عليه د. أحمد المحرقي ود. بدرى طه، دار النهضة مصر للطبع والنشر، ط ٢ (١٩٧٣) ٢٥٠/٢٢.

(١٤) المرجع السابق ٢٥٠/٢١.

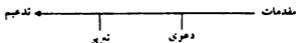
٢ - النصوص المختارة ومكونات البنية الحجاجية :

تس الدراسة التطبيقية ثنائية على سبعة عشر نصا حجاجيا، خمسة نصوص قديمة والأخرى من العصر الحديث تختلف هذه النصوص في موضوعات الحجاج: موضوعات اجتماعية، ومكانيات رسمية، وموضوعات دينية، وعسكرية، وأدبية، وسياسية. ومن تلك النصوص ما يمتزج فيها الموضوعات وتتداخل. كالحجاج السياسي من منظورات دينية. أصحاب تلك النصوص مختلفون في أساليبهم ومشاربهم الثقافية ومنطلقاتهم الفكرية. يطبق ذلك كله فرصة أكبر لاستقاء معلومات أوفر عن تفاوت البنى الحجاجية بين تلك النصوص على نحو أو آخر، فكما يفسح المجال لاستكشاف الوسائل المختلفة التي توصلت بها للإقناع والاستمالة.

وهيما يلي توصيف عام للنصوص المختارة ومكوناتها الحجاجية :

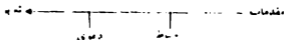
- ١ - من قصة الكندي: احتجاج الكندي لبطله (من قوله: تسمون من منع المال - إلى قوله بجمل حظ الموسر أكثر وإن كان في كل شيء فوق أصحابه) - (كتاب البخلاء للحافظ ص ٧٨ - ٨١) :
- الدعوى (مذكورة) - المال لمن حفظه، والحسرة لمن أنفقه، وإنفاقه هو إنفاقه.

شكل الحجاج :

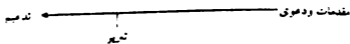


- ٢ - ١ ثلاثة نصوص من رسائل إخوان الصفا :

النص ١٢ في بيان سبب اختلاف العلماء في الإمامة (٢٠٧/١ - ٢١)
 الدعوى الرئيسية (مذكورة) جمع محمد * حصال النبوة وخصال الملك
 شكل الحجاج



النص (٣): عصار خلافي شاكه مصدرة أحضان النبوة: ١٣٠
 الدعوى الرئيسية المذكورة هي تدعوى المسافة.
 شكل الحجاج



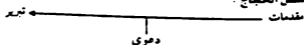
النص (٤): في مسألة الجير (٣٤/٤ - ٣٦).

الدعوى الرئيسية (مذكورة): ليس أحد من المحلوقين يشار على شيء من الأشياء ولا عمل من الأعمال إلا ما أقره الله عليه.
 شكل الحجاج:



٥- كتاب الإخشيد إلى أرمانيوس ملك الروم (جمهرة رسائل العرب ١١١/٤ - ١٢٥)
 الدعوى (مضمنة): الإخشيد لا تقصر منزلته عن منزلة من يضاهيه:
 أرمانيوس.

شكل الحجاج:



٦- ٧ نصان لطف حسين من كتابه (حديث الأرياء ج ٢):

النص (٦): القديم والجديد (٣١/٣ - ٣٦).

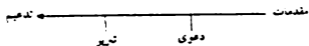
الدعوى (مذكورة): ليس للتقديم انصار: أي أن انصار القديم ليسوا مخلصين في نصرهم للتقديم، أو أنهم يخدعون أنفسهم حين يظنون أنهم بصرونه.

شكل الحجاج



النص (٧): أحسن إلي وأنا مهلاك ٣١ - ١٦٤ - ١١٠

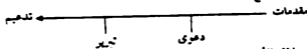
الدعوى المدعوية: فلسفة الإقناع في الجمال والحب في كتابه:
: مسائل الأحرار في فلسفة الجمال والحب، لا تخم ولا تدل حملتها على شيء.
شكل الإقناع



٩ - نسان لمباس محمود العقاد من كتابه (الفصول) :

النص (٨): الفزل الطبيعي (ص ٩٤ - ١٠١).

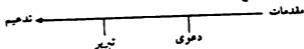
الدعوى (مذكورة): المشق في طبيعته الأول بمدني عن الرفق والسلامة.
شكل الإقناع :



النص (٩): الأدب المصري (ص ١٠١ - ١٠٨).

الدعوى (مذكورة): التقدم في الأدب تقدم في الإحساس بالأشياء على ما
هي عليه.

شكل الإقناع :



١١ - نسان لإبراهيم عبد القادر المازني من كتابه (حصار الهشيم) :

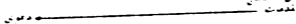
النص (١٠): الأدب ينهض في عصور المشادة لا عصور اللين والأمن

(ص ٤٧ - ٥١).

الدعوى (مضمنة): العنوان السابق هو الدعوى المضمنة والتي استخرجها

لخصائمه نفسه عنوانا لقائه

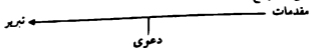
شكل الإقناع :



النص (١١): القدماء والمحدثون (٢٢٢ - ٢٣٩).

الدعوى (مضمنة): القدماء يتميزون بالبساطة.

شكل الحجج :



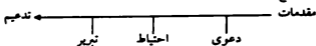
١٢-١٣: نسان لخالد محمد خالد من كتابه (دفاع عن الديمقراطية) :

النص (١٢): تجربتنا مع الديمقراطية (ص ٣٠ - ٤١).

الدعوى (مضمنة): سكان للديمقراطية وجود في بلادنا قبل ثورة ٢٣ يوليو

١٩٥٢م.

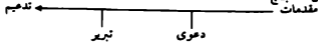
شكل الحجج :



النص (١٣): قضية تنتظر الفهم الصحيح (ص ١٧٥ - ١٨٩).

الدعوى (مذكورة) الإسلام دين ودولة.

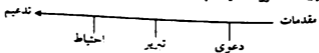
شكل الحجج :



١٤-١٥: نسان لمحمد زكي عبد القادر من كتابه (الله في الإنسان) :

النص (١٤): التمرد في حياة الإنسان (ص ١١ - ١٥).

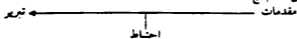
الدعوى (مذكورة): حياة الإنسان عملية معقدة متعددة.



النص (١٤): من 'ألم ينبع عقل شيء عظيم (ص ١٤٨ - ١٥٢).

الدعوى (مذكورة): من 'ألم ينبع عقل شيء عظيم

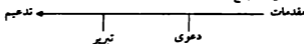
شكل الحجاج :



١٦- ١٧: نصان للدكتور مصطفى محمود:

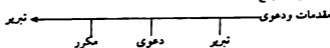
النص (١٦): الحب القديم (من كتابه «الإسلام في خندق» ص٧- ١٣).
الدعوى (مذكورة) الدين - في حقيقته - هو الحب القديم الذي جئنا به إلى الدنيا.

شكل الحجاج :



النص (١٧): أنشودة الأمل (من كتابه «كلمة السر» ص١٥- ١٩).
الدعوى (مذكورة): الدنيا لم تعد هي الدنيا ولا الناس هم الناس .

شكل الحجاج :



تأمل التصور المختارة وأشكالها الحجاجية يتيح لنا استنتاج ما يلي :

١- الشكل الأشبع للنص الحجاجي المري المكتوب هو النص الذي يبدأ بالمقدمات فالدعوى فالتبرير. وربما اقتصر النص على ذلك كما رأينا في النص الخامس. ولكنه في أكثر الحالات يتجاوز تلك العناصر الثلاثة إلى التدعيم. وفي حالات غير قليلة يتجاوزها إلى الاحتياط والتدعيم جميعا.

٢- المؤلف أن يبدأ النص الحجاجي بالمقدمات، ولكن يندر جداً أن تشغل الدعوى الموقع المؤلف للمقدمات، وهذا ما لم نره إلا في نصين اثنين: أحدهما قديم لإخوان الصفا (النص ٣)، والآخر معاصر لمصطفى محمود (النص ١٧).

صلاحية الدعوى في علاقتها بالمقدمات. ويدعم التبرير الدعامة (أو التدعيم). والتدعيم شكل مادة يقدمها المجادل ليريد من تصديق المخاطب لمقدماته وتبريره؛ ومن ذلك - كما أشرت - الأدلة المنطقية، والشواهد الخاصة، والإحصاءات ... إلخ. وغنى عن البيان أن مقدمات الحجاج مكون أساسية، من حيث إنها تقريرات عن أناس، أو أحوال، أو أفعال. وينبغي لها أن تصلح لبلوغ الدعوى.

٨- قد تفرع عن الدعوى الرئيسية دعوى ثانوية. في النص^(١٥) (ومن الألم ينبع شكل شيء عظيم، لمحمد زكي عبد القادر) تفرعت عن الدعوى الرئيسية دعوى أخرى ثانوية هي قول الكاتب: «للألم إذن في حياتنا معنى وقهمة» (ص ١٥٢). وهي دعوى ثانوية لسببين :

(أحدهما) أن التبرير في النص ينصرف إلى الدعوى الرئيسية.

و(الأخر) أن محور الدعوى الثانوية هو نفسه محور الدعوى الرئيسية، وهو «قهمة الألم». لو لم تكن الدعوى الرئيسية، «من الألم ينبع شكل شيء عظيم»، ما كانت الدعوى الثانوية، «للألم في حياتنا معنى وقهمة».

٩- إثبات الكاتب صحة رأيه أو معتقده بآراء رأي الآخر أو معتقده وسيلته التدعيم والتدعيم وجوه ثلاثة: التدعيم بالدليل Evidence، والتدعيم بالقيمة Value، والتدعيم بالمصداقية Credibility.

(أولاً) التدعيم بالدليل: موقف الحجاج الأبسط والأشبع هو - كما

يذكر ريك وسيلارز - تقديم إفادة Statement تحظى بموالاته المخاطب. وربما تطور المخاطب الحجاج بسؤال أو بدعوى مضادة :

♦ المتكلم: لا تخف هنا على سهارتك !

المخاطب: ولماذا ؟

♦ المتكلم: الجو حار اليوم !

المخاطب: لكنه ليس حاراً كالأمس^(١٦).

ولكن الكاتب بطور حجاجه بإضافة مادة مدعمة لدعواه على نحو يجعل القارئ موالياً لتلك الدعوى. وهو ما يسمى بالدليل.

(١٥) Rieck-Sillar, op. cit. p. 111

في النص الحجاجي العربي، تروى للحادة المدعومة أو الدليل انطاطاً شديداً من أهمها .

(أ) أدلة تاريخية: وهي من التاريخ الأدبي في حجاج أدبي المحور (كما تروى في نصي المازني).

(ب) شواهد خاصة: وذلك كحادثة «الخرسوس» التي يرويها طه حسين في مقاله: القديم والجديد ص ٢٢ عن الشيخ المهدي، وكان يخاطب بلثع الشراب بما لا يفهمه، أراد طه حسين الاستدلال بهذه الأحذوة على ما يقع فيه بعض أنصار القديم من تكلف لغة لا تناسب عصرهم.

(ج) وهناك نوع خاص من الشواهد الخاصة، يسميه ريك وسيلارز باسم «المثال الافتراضي أو النظري *hypothetical example*»، وهو الذي يستخدم عندما لا تصلح الأمثلة الحقيقية *real examples* ^(١١).

لعل من هذا النوع ما نجده عند طه حسين بخصوصه. وأسوق نموذجاً على ذلك قوله في سياق تمييزه للرافعي بين النقد والشاء الخالص: «مكن عاقلاً، وأعلم أن الشاء الخالص الذي لا يشويه النقد، إنما هو كالماء أذهب فيه كثير من السكر، وتوشك إن أسرفت في شربه أن يأخذك الغثيان. وخير لك وأصلح لصحتك أن تضيف إلى هذا الماء والسكر عنصرًا ثالثاً يحول بينك وبين القن. فما كان لك ولا للناس نفع قليل أو كثير في أن تقن لهم من حين إلى حين رسائل أحزان أو شيئاً يشبه رسائل أحزان» ^(١٢).

ويجي كتابت الحجاج أثر الشواهد والأهتسة وضرب الأمثال في دعم دعواه وهو يعبر عن ذلك تعبيراً في حالات غير قليلة. من النصوص المختارة ما تروى فيها ذلك: كقول إخوان الصفا: «وعلى هذا القياس...» ^(١٣)، أو «وعلى هذا المثال...» ^(١٤) ومن ذلك أيضاً قول المازني: «والآن، فلننسق لك الأمثال

^(١١) المرجع السابق ص ٩٩
^(١٢) طه حسين، مقال «القديم والجديد» ص ٢٢، حديث الأربعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٩٩

^(١٣) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٠٠، «وعلى هذا القياس...»
^(١٤) المازني، رسائل المازني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٠٠، «وعلى هذا المثال...»

ليصبح ما نعلم،^{١١١}

حديب بالإشارة أن محض القدماء هم المتفتحون إلى علاقة المثل بالحجاج، ومنهم ابن وهب. يقول ابن وهب عن ضرب الحكماء والعلماء والأدباء للأمثال: «وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها»^{١١٢}. ويقال: المثل مقرون بالحجة^{١١٣}. ويشرح مقولته هكذا: «ألا ترى أن الله - عز وجل - لو قال لعباده: «إني لا أشرك أحدًا من خلقتي في ملكي، لكان ذلك قولًا محتاجًا إلى أن يدل على العفة فيه، ووجه الحكمة في استعماله، فلما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (الروم: ١٢٨) كانت الحجة من تعارفهم مقرونة بما أراد أن يخبرهم به من أنه لا شريك له في ملكه من خلقه: لأنهم عالمون بأنهم لا يقرون أحدًا من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه منهم، بل ياتقون من ذلك ويدفنونه، فالله - عز وجل - أولى بأن يتعالى عن ذلك»^{١١٤}.

(ب) التدعيم بالقيمة: والقيمة مفهوم يستخرج مما يقوله الناس، وما يفعلونه، وما تبنيه المجادلات. في ضوء دراسة ريك وسيلازر للتدعيم بالقيمة، يمكن أن نرى الملامح التالية للتدعيم بالقيمة في الخطاب الحجاجي المرابي:

- (أولاً) القيمة معيار للقول بالجودة أو الرداءة. قد تذكر القيمة، وقد تضمن، ولكن تضمينها يقع في حالات كثيرة جداً:
- من تضمين القيمة عند تدعيم التعليل، ما نراه في غير موضع من نصوص طه حسين بخاصة، كقولته: «وما رأيتك في رجل يفلسف في الجمال والحب: أي يضع نفسه بين الفلاسفة، بل بين كبار الفلاسفة، فلم يفلسف منهم في الجمال والحب إلا قليل، ثم لا تمنعه فلسفته أن يكون

^{١١١} انظر عبد القادر العادي، القيمة والجدوى، من كتاب حصاد حشيش، لجنة المصرفة للكتاب (١٩٩٩م)، ص ٢٢.

^{١١٢} ابن وهب في معرفة أشعار العرب، ص ١٦٦.

^{١١٣} ابن وهب، ص ١٦٦.

^{١١٤} ابن وهب، ص ١٦٦.

خلالاً، يعتقدني ويطلب إلا أن أكتب كتاباً ضعيفاً أو ضعيفاً من كتابه. أسفرت الله

يعول الكتاب في تدعيمه هنا على قيمة صدق الكتاب/الإنسان مع نفسه في الفعل، وهو يعتمد على قدرة المخاطب على تمييز هذه القيمة المصنفة من خلال سياق الحجاج السابق.

• ومن التصريح بالقيمة قول خالد محمد خالد: ولا جدال في أن قضايا السياسة ومشكلاتها ومتطلباتها في الذروة من دواعي الاهتمام وحواضر المشاركة. فأي مسلم يعطي لهذه الاهتمامات ولتلك المشاركة ظهرو يكون قد حق عليه قول الرسول الكريم «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»⁽¹⁾.

القيمة المصرح بها هنا هي قيمة اهتمام المسلم الحقيقي بقضايا السياسة، وهي وسيلة الكتاب في تدعيم تبريره دعوى تكون السياسة في الإسلام عبادة.

(ثانياً) تحدد النظرية الحجاجية المعاصرة للقيمة نوعين اثنين: القيمة الوسيطة (instrumental value) والقيمة الغاية (terminal value). الأولى تضع إجابة عما هو ذو قيمة. والأخرى توجه الناس إلى الوضع الذي يتفاه المتكلم⁽²⁾.

يبدو من تأمل عينات الدراسة أن خطاب الحجاج العربي يعول إلى القيمة الغاية ميلاً أقوى وهذا أمر مهم؛ وذلك أن القيمة الغاية أقوى تأثيراً في الحصول على مستوى من الموالاة (adherence) يجعل المستقبلين يغيرون من سلوكهم.

من النمط الأول قول المقاد: «ونعتقد أنه ليس أعون لنا على فهم طبيعة "عشق الصادق من الالتفات إلى نقطة واحدة، وهي علة استئثار الرجل بالقول دون المرأة"⁽³⁾ ومن النمط الثاني قوله: «وإنما الحرى بأن يدعى قدماً منيراً

(1) محمد عبد الحادي، «الخطاب الحجاجي في الإسلام»، ص 111.
 (2) محمد عبد الحادي، «الخطاب الحجاجي في الإسلام»، ص 111.
 (3) محمد عبد الحادي، «الخطاب الحجاجي في الإسلام»، ص 111.

تتقدم في الإحساس بالأشياء على ما هي عليه¹¹ (ثالثاً) يعتمد خطاب الحجاج العربي في تدعيم التبرير اعتماداً جوهرياً على القيم التي يحضون تمسك الناس بها قويا أو التي تتسم بالشعولية بسبب موالاته كثير من الناس لها مثال ذلك «قيمة التفتير» التي اعتمد عليها كـ حسين في رأيه في قضية «القديم والجديد»، أو «قيمة الجمع في الإسلام بين الدين والدولة» التي اعتمد عليها خالد محمد خالد في دفاعه عن الديمقراطية، وهي قيمة تنكسب موالاته نسبة كبرى من الناس أو «قيمة الحب» التي اعتمد عليها مصطفى محمود في الكشف عن المفهوم الحقيقي - من وجهة نظره - للدين.

القوة والشعولية من العوامل المساعدة على تمييز القيم السائدة في حضارة أو مجتمع. في خطاب الحجاج العربي، نرى عاملاً آخر مهماً: هو منزلة الأشخاص الذين يدعمون هذه القيمة أو تلك. إن اقتناع القارئ وإعطاؤه موالاته لمثل قول مصطفى محمود: «وأرى أننا مطالبون اليوم أكثر من أي يوم مضى بالموادة إلى روح الإسلام وإلى نبعه الشامل ... إلى فضائل الحب والرحمة والموادة والتقوى وسعة الصدر مع الخصوم ...»¹². الاقتناع والموالات للذات يتمدان على منزلة الشخصية التي تدعم قيمة ما تطالب به الناس، وأنها صادقة في مطالباتها، وأنها بريئة فيما تطالب به من أي نفع أو مصلحة خاصة. (ج) التدعيم بالمصادقية: والمصادقية عامل مهم في الحجاج. في ضوء تحديد ريك وسيلارز لأنواع المصادقية¹³، يمكننا أن نستنبط من نصوصنا الحجاجية المختارة ما يلي:

(أولاً) قلما يلجأ الكتاب إلى المصادقية المباشرة: وذلك أنه قلما يقدم عن نفسه إفاذات مباشرة قصد زيادة قابليته للتصديق، إنما يصرف همه - في المقام الأول - إلى التماس العطل المقتنمة. سكان أكثر كتاب عينات الدراسة اعتماداً على المصادقية المباشرة طه حسين وخالد محمد خالد يؤكد طه

11- محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب، الأثر، المصنف، ص 101.

12- مصطفى محمود، «الدين والسياسة»، ص 101.

13- ص 101.

لأساس.

- (رابعا) وما يؤثر في مصداقية الخطاب ما يعرفه المستقبل عن مصدره. يعيل الناس إلى تصديق من يرونهم أكفأ وأمانا. في ضوء خلاصة بحث المصداقية في النظرية الحجاجية المعاصرة التي قدمهاريك وسيلارز في أربع عشرة مسألة، يمكن أن نستنبط من نصوص الدراسة ما يلي:
- 1- يتمتع أصحاب تلك النصوص جميعاً بكفاءة حجاجية في صناعة الملل وبأمانة في عرض موضوع الحجاج.
 - 2- أصحاب تلك النصوص جميعا من الرجال. ويلاحظ أن قابلية تصديق الرجال أقوى من قابلية تصديق النساء. يستش من هذا بالطبع أن تكون المرأة جذابة جسديا وعقليا.
 - 3- سمة أصحاب تلك النصوص مناسبة لطبيعة خطابهم الحجاجي، فكل منهم من أهل الاختصاص في مجال حجاجه الموضوعي.
 - 4- للإفادات التي قدمها بعضهم عن ذاته، على نحو ما رأينا عند طه حسين وخالد محمد خالد، أثر في زيادة قابلية تصديقهم.
 - 5- لا يستطيع مستقبلو تلك النصوص الحكم على سلامة نية أصحابها، ولكن نسج النصوص اللغوي وسياقاتها التاريخية والحضارية تبرهن على سلامة نية أصحابها: فالغاية تمييز الحقيقة - على حسب ما يروونه - أكثر من إحراز نصر على خصم أو معارض.
 - 6- لا شك أن أصحاب تلك النصوص يستندون في مصداقيتهم إلى التحقق - إلى حد ما - من كونه قيم قرائنهم أو مستمعيهم أو طائفة منهم على الأقل.
 - 7- مصادر التدليل الأقوى سلطة تزيد من المصداقية. نرى ذلك مثلا في المقارنة بين النص القرآني والمثل.
 - 8- جودة تنظيم الخطاب تزيد من المصداقية. وهذه السمة مشتركة بين جميع عينات الدراسة، على تفاوت فيما بينها. وهو تفاوت يبدو مثلا من مقارنة نص رسالة الإخشيد نص لمصطفى محمود.
 - 9- يبدو أن تدفق العبارة في نصوص مصطفى محمود مثلا، وإخراجها في

هيئة صرخات عالية متعاقبة خالية من التكلف أو تائق في نظام السبلد.
تزيد - فيما نرى - من مصداقيته.

١٠- وتشارك نصوص الدراسة في سمة أخرى، هي أنها تبني جميعا على لغة غير متعنتة، ولا يظهر فيها تشبث المتكلم براه، مما يزيد من مصداقيتها وحركتها. وتأتى وهرة أساليب القصر ودوال الاعتقاد في نصوص مكاتب كالمقاد، تأتى - فيما أحسب - عن أن تكون مظهرا لتعنت أو تشبث بالرأي؛ وذلك أنها - بالأحرى - سمة أسلوبية تسمح بها العربية آلية للتعبير عن وثوق المتكلم بمعتقده قبل مستمعيه.

٣- وسائل الإقناع :

يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من وسائل الإقناع في النص الحجاجي العربي، وهي: الوسائل المنطقية - الدلالية، والوسائل اللغوية، والوسائل الموقفية. التفاعل بين تلك الوسائل جميعا وأنماطها المختلفة في أداء الوظيفة الإقناعية هو الأمر الطبيعي. وليست معالجة كل نوع منها على حده إلا قصدا إلى بيان صورته وهيئاته البنائية والدور الخاص الذي يشغله في تلك الوظيفة العامة. ونظرا لارتباط الوسائل الموقفية بالخطاب المنطوق في المقام الأول، فسوف نمضي بالتوسع في الأولين فقط.

(١) الوسائل المنطقية - الدلالية :

العلاقات النصية التي يقيمها سياق النص الحجاجي - من خلال عرضه على مفهوم النص العام - هي علاقات الدعوى أو النتيجة. ويشترط - من منظور الدلالي - أن يرتبط محتوى النتيجة بمحتوى المقدمات^(١). ويمكن أن نميز في النص الحجاجي العربي بين الوسائل المنطقية - الدلالية التالية :

١/١ القياس المنطقي :

القياس المنطقي بنية أساسية في كل خطاب حجاجي، ومن ثم يعبّر الباحثون الاهتمام الأكبر. في البيان الأول من برهان ابن وهب، وهو الاعتبار،

^(١) schnelle Helmut: Zur Explikation des Begriffs "Argumentativer Text" In Linguistische Probleme der Textanalyse. Schwane 1. Auflage: (1975) 55-44
56

بذكر القياس . القياس في اللغة: التمثيل والتشبيه. ولا يجب القياس إلا عن قول متقدم، فيكون القياس نتيجة لذلك. ربما كان هذا القول في اللسان العربي مقدمة أو مقدمتين أو أكثر على قدر ما يتجه من أفهام المخاطب ولا يجب قياس عند المناطقة إلا عن مقدمتين، لإحدهما بالأخرى وتلقوه⁽¹¹⁾.

ويرى إخوان الصفا أن وضع العقلاء للقياسات بصير داعها إلى طلب الحجة عند خصمائه، ويكون سببا لفوص النفوس في طلب المعاني الدقيقة ووضع القياسات واستخراج النتائج، ويكون سببا لبقطة النفوس، وانتباهها لها من السهو⁽¹²⁾.

أهم ما في كلام ابن وهب إشارته إلى التعلق بين المقدمتين في القياس، وارتباط عدد المقدمات بقدر ما يتجه من أفهام المخاطب أما أهم ما في كلام إخوان الصفا، فهو أثر القياس في النفوس وانتباهها. المخاطب مؤثر في بنية القياس ومتأثر به في أن مما. التعلق بين المقدمات للوصول إلى نتائج والتركييز على المخاطب أو المستمع هما الأمران الأهم في مبحث القياس المنطقي في النظرية الحجاجية المعاصرة؛ فالقياس المنطقي Syllogism وسيلة منطقية من وسائل التعليق بين الأقوال Statements . في القياس المنطقي يصبح أحد القولين مرتبطين بالآخر عن طريق تعليقهما بقول ثالث يمثل طبقة من الموضوعات أو المفاهيم أعلى من القولين الآخرين. وما ينتج عن ذلك هو المعادل الحجاجي argumentative equivalent لما يسمى بالاستدلال eduction عند المناطقة⁽¹³⁾.

يفهم القياس المنطقي فهما أفضل في ضوء تأمل كيفية فهم عالم المنطق له. القياس المنطقي التقليدي هكذا :

كل الناس فانون

سقراط إنسان

سقراط فان

لهذه البنية ثلاثة أقوال: الأول المقدمة المنطقية الكبرى Major Premise والثاني المقدمة المنطقية الصغرى minor premise والثالث النتيجة conclusion.

(11) الأثر، ص 76 - 78

(12) رسائل إخوان الصفا، مرجع سبق / 1، ص 18

(13) راجع في بعض نكت 24، Brandt, Wilhelm: The Rhetoric of Argumentation, op cit

ليس المموك عليه المدد: فلا بد لبناء قياس منطقي من وجود تعلق دلالي منطقي بين الأقوال الثلاثة، وذلك بأن تكون المقدمة الصفري منضوية تحت الطبقة أو المفهوم الذي تقدمه المقدمة الكبرى، وهو ما يتضح من القياس التقليدي السابق.

وظيفة القياس المنطقي في الخطاب الحجاجي هي الانتقال مما هو مسلم به عند المخاطب - أي المقدمة الكبرى - إلى ما هو مشكك: أي إلى النتيجة. يقول وليم برانت: «إذا لم يقبل المخاطب المقدمة الكبرى كان الحجاج - إذ ذلك - سدى»⁽¹⁾.

بدلنا فحص عينات الدراسة على أن القياس المنطقي من البني المنطقية - الدلالية المهمة في النص الحجاجي العربي، ولعله الأهم على الإطلاق من أمثلة القياس المنطقي في تلك العينات ما يلي:

♦ يقول الكندي في سياق احتجاجه لبخله: «فالمال لمن حفظه، والحسرة لمن أنفقه، وإنفاقه هو إتلافه، وإن حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب»⁽²⁾.

يمكن تصوير القياس المنطقي في القطعة السابقة على النحو التالي:

(المقدمة الكبرى): الحسرة لمن أتلف المال.

(المقدمة الصفري): إنفاق المال هو إتلافه.

(النتيجة): الحسرة لمن أنفق المال.

♦ ويقول إخوان الصفا في سياق الاحتجاج للعلاقة بين خصال النبوة والإمامة والملك: «والكلام في خصال الإمامة ... قبل معرفة خصال النبوة ... وقبل معرفة خصال الملك وشرائطه والفرق بينهما كلام على غير أصله. وكل كلام على غير أصل هذيان لا تحقيق له»⁽³⁾.

يمكن تصوير القياس المنطقي في القطعة السابقة على النحو التالي:

(المقدمة الكبرى): كل كلام على غير أصل هذيان.

(المقدمة الصفري): الكلام في خصال الإمامة قبل ... كلام على غير أصله.

(1) تاريخ السلفين ص 33

(2) الكلام ص 78

(3) سلك إخوان الصفا 1/3 ص 3

(النتيجة): الكلام في خصال الإمامة قبل ... هنيان.

في النص الحجاجي المعاصر يعتمد الكتاب على القياس المنطقي أحياناً، لا سيما طه حسين. من نماذجه عند طه حسين قوله عن أنصار القديم: «وإذا فهم بين اثنين: أن يكونوا صادقين حين يبيكون القديم ويحرمون عليه، فيحرم بحيون حياتهم كارهين ويأخذون بلذاتها ويحتملون آلامها دون أن يكون لهم في شيء من ذلك رأي فإن كانوا كذلك فهم خليقون بالرحمة والمطف والإشفاق وكيف لا ترحم من يحبا راغما ويلذ راغما ويالم راغما اه^(١)».

يمكن اختزال القضايا في القطعة السابقة إلى الشكل التالي :

(المقدمة الكبرى): من يحبا حياته كارهها خلق بالرحمة.

(المقدمة الصغرى): أنصار القديم (صادقين) يحبون حياتهم كارهين

(النتيجة): أنصار القديم خليقون بالرحمة.

بدني أن كتاب الحجاج لا يمرض أقواله دائماً في الصياغة والترتيب المباشرين كالنموذج القياسي التقليدي، بل كثيراً ما يخالف في الترتيب ويزيد في العبارة بأحد الأقوال وربما توزعت أقوال القياس على مساحات شتى من النص. ولكن القارئ الذي يبين له أن يبذل مع النص الحجاجي جهداً خاصاً، لن يسر عليه معرفة الصلات بين تلك الأقوال وإن تأسدت من ذلك مثلاً ما وقع في نص للمازني، وهو مقاله «القدماء والمحدثون». الجملة الأولى من الفقرة الأولى من النص هي: «البساطة من مظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس والنظر»^(٢).

والجملة الأولى من الفقرة الثالثة هي قوله: «كذلك عظماء الدنيا يمتازون بالبساطة»^(٣). العلاقة بين الجملتين تقدم لنا القياس المنطقي التالي :

(المقدمة الكبرى): البساطة من مظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس

والنظر.

(المقدمة الصغرى): عظماء الدنيا يمتازون بالبساطة.

(النتيجة): عظماء الدنيا يمتازون بمظاهر الصحة والاستقامة في الإحساس

(١) من مقال القديم واغصده، من كتابه حبيب الأرحام، ص ٢١٢

(٢) مقال القدماء، منشور في كتابه حبيب الأرحام، ص ٢٢٢

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٢

والنظر.

٢/١ القياس المضمرة :

القياس المضمرة Enthymeme أحد أنواع القياس المنطقي. معيار القياس المضمرة أنه قياس محذوف المقدمة، وهي عادة المقدمة الكبرى^(١) عندما نقول: «الوطن جدير بالولاء لأنه يساعد على تربية المرء». سوف يستلزم القياس المنطقي الكلي القياس المضمرة التالي :

(المقدمة الكبرى): لمضمرة: كل شيء يساعد على تربية المرء جدير بالولاء.

(المقدمة الصغرى): (مذكورة) : وطن المرء يساعد على تربيته.

(النتيجة): وطن المرء جدير بالولاء.

نحى عن البيان أن المقدمة المحذوفة سوف تبين على القولين الآخرين وقد وصل أحدهما بالآخر على نحو مناسب.

من أمثلة القياس المضمرة قول طه حسين في سياق احتجاجه لرابيه في تراجمي رمزاً لأنصار القديم: «هَذَا كَانَ لِي أَنْ أَقْدِمَ لِيهِ وَإِلَى أَمْثَالِهِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَمْتَشِقُونَ الْقَدِيمَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ بِهِ وَلَا هِمٍّ صَحِيحٍ لَهُ نَصِيحَةٌ. هِيَ أَنْ يَصْدُقُوا حِينَ يَكْتَبُونَ. فَقَدْ كَانَ الْقَدَمَاءُ صَادِقِينَ حِينَ يَكْتَبُونَ وَمِنْ هُنَا هَمْنَا الْقَدَمَاءُ»^(٢).

يمكن عرض القياس المضمرة في القطعة السابقة على النحو التالي

(المقدمة الكبرى): لمضمرة: يفهم الكتاب حين يكون صادقاً هبما

يكتب.

(المقدمة الصغرى): لمذكورة: كان القدماء صادقين حين يكتبون.

(النتيجة): لمذكورة: ومن هنا فهمنا القدماء.

أشير هنا إلى دور الاستبطان في القياس المضمرة، حين يمتد الكلام شيئاً ولا يحدد سبيل تقدير الطقة الكبرى في المقدمة الكبرى إلا بالاستبطان من ذلك ما نجد في قوله طه حسين عن الراضعي أيضاً من النص السابق

^(١) Brundage William: The rhetoric of Argumentation - 1932

^(٢) طه حسين: تراجمي رمزاً لأنصار القديم، ص ١٠٠

عنه، كما في قوله تعالى: وَأَسْرَبُوا لَهُمْ صَوْتَهُمْ فَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ (سورة التوبة: 107).

هذا ما نلاحظه من حيث أنه لم يصرح بمررتي الراضعي قد انبسط به الفروور والضعف إثر حيث جعل إليه أنه اعصم، وأسر فكنت أسمع كلامه فتبلمني يابس، وأسر فنبعت عيني من الخلس اقتلاعاً، بل عجزت منه مرتين، تركته على عروصي، وعجزت إلى هيكلي، فتبلمني، فتركت له الشهادة، كلاماً، وأحفظاً حين مرر هذا الاقتلاع بأنه أثر الخوف أو ما يشبهه ولو فسره بشيء آخر يشبه استئصال الظل واستبطاء الحركة لوفق لبعض الصواب، وأخطأ حين قرر أن ثيابي كانت تبلمني، ومع تبلمني ثيابي؟

فقد يكون من الحق على الراضعي لو أنصف نفسه أن يعلم أي من قوم قد بلغوا السفهاء فأحسنوا بالأهم وصبروا لهم واحتملوا منهم شراً كثيراً لا ضارين ولا متحرجين ولا مستخفين في ثيابهم¹¹

يمكن تصوير القياس المضمرة في القطعة السابقة على النحو التالي:
(المقدمة الكبرى): المضمرة: السفهاء من فسروا اقتلاعي من المجلس بأنه أثر الخوف.

(المقدمة الصغرى): المذكورة: فسّر الراضعي اقتلاعي من المجلس بأنه أثر الخوف.

(النتيجة): المضمرة: الراضعي سفهه (أو أحد هؤلاء السفهاء).

يبدو القياس المضمرة في مثل هذه الحال آلية منطقية للوصول إلى نتيجة أو غرض يشبه ما يسمى بالتمريض للبقيا، والتمريض للبقيا آلية في الخطاب يمثل لها القديما بتمريض الله بأوصاف المنافقين وإسماكه تسميتهم إبقاء عليهم وتأثفا لهم¹².

يستوجب القياس المضمرة حضوراً يقظاً للقارئ مع النص، يستبطل له من سياق الحجج مقدمته المحذوفة، فحسب مثلاً آخر على ذلك قول المازني:
المذهب القديم لا يعمل على حجة ولا يستند إلى عقل: فكان وما يزال حسبه من المقاومة الاعتماد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس وعلى اعتياد الحمامير الطريقة القديمة¹³.

¹¹ راجع لسار ص 116.

¹² راجع لسار ص 116.

¹³ راجع لسار ص 116.

يمكن تصوير القياس المضمرة في هذه القطعة على النحو التالي :

(المقدمة الكبرى): لمضمرة: الاعتماد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس ليس حجة ولا يستند إلى عقل.

(المقدمة الصغرى): لمذكورة: المذهب القديم يمتد على الجهل الفاشي وعلى غفلة النفوس.

(النتيجة): لمذكورة: المذهب القديم لا يمول على حجة ولا يستند إلى عقل.

يتضح مما سبق وفرة إضمار المقدمة الكبرى، حتى صار ذلك معيار القياس المضمرة المألوفة. ولكن قد تضرر المقدمة الصغرى. نضرب مثالا على ذلك من عينات الدراسة قول طه حسين في سياق احتجاجه لرأيه في العلاقة بين القديم والجديد: "نريد أن نفرغ من مسألة القديم والجديد. وهل من سبيل إلى أن نفرغ من مثل هذه المسألة؟ فقد رأينا في فصل مضى أنها مسألة تلازم الأمم الحية، وتلازمها لأنها حية؛ إذ كانت الحياة بطبيعتها تطوراً وكان التطور بطبيعته انتقالاً من حال إلى حال"⁽¹⁾.

ينبغي للقياس المضمرة فيما سبق أن يبدو على النحو التالي :

(المقدمة الكبرى): لمذكورة: القديم والجديد مسألة تلازم الأمم الحية.

(المقدمة الصغرى): لمضمرة: مصرامة حية.

(النتيجة): لمضمرة: القديم والجديد مسألة تلازم مصر.

في القياس المنطقي لا بد من قبول المخاطب للمقدمة الكبرى وإلا كان الحجاج عبثاً، وفي القياس المضمرة يسلم المخاطب حداً بتلك المقدمة. القياس المنطقي والقياس المضمرة هما الشكلان الحقيقان الأعم في الخطاب الحجاجي العربي.

٣/١ القياس المترج:

القياس المترج Sorites - شأنه شأن القياس المنطقي - شكل من أشكال تحديد العلاقات المنطقية - الدلالية بين الأقوال وما تعبر عنه من نصيباً. يعد القياس المترج امتداداً معقداً للتعليل القائم على القياس المنطقي:

⁽¹⁾ "أصل تصور حبه، من حيث أوجهه" ٣١٣

وذلك بأن تتصل بعض مجموعات القياسات المنطقية ببعض حتى تؤدي إلى نتيجة هي المقدمة الكبرى لنتيجة أخرى لاحقة⁽¹⁾

يمكن أن نصرب مثالا توضيحيا على القياس المتدرج فيما يلي

كل المسافرين للموضة متحررون من القهود.

كل المتحررين من القهود مززعجون.

كل المرزعجين مرضى عقليا.

كل المرضى عقليا في حاجة إلى التماطف.

كل المسافرين للموضة في حاجة إلى التماطف.

يلاحظ فيما سبق أن المقدمتين الأوليين تقودان إلى نتيجة صالحة «كل المرزعجين مرضى عقليا»؛ وذلك أن التمييز «متحررون من القهود» موزع على المقدمة الصغرى: «كل المسافرين للموضة مززعجون». وهذه هي المقدمة الكبرى غير المبرر عنها والتي تقود مع القول الثالث: «كل المرزعجين مرضى عقليا» إلى نتيجة أخرى جديدة: «كل المسافرين للموضة مرضى عقليا»، وهي نتيجة ترجع بدورها إلى المقدمة الكبرى التي كان القول الرابع مقدمتها الصغرى. وكان القول الخامس نتيجة القياس المنطقي الضمني والاستنتاج المتدرج المكلي.

تبرهن العينات على أن طه حسين أكثر الحجاجيين اعتمادا على القياس المتدرج من أحد الناصين المختارين له، وهو «القديم والجديد» يقول في سياق عرضه للخلاف الدائر بين أنصار القديم والجديد في الأدب: «نريد أن نفرغ من مسألة القديم والجديد - إنها مسألة تلازم الأمم الحية، وتلازمها لأنها حية؛ إذ كانت الحياة بطبيعتها تطورا وكان التطور بطبيعته انتقالا من حال إلى حال، وكان هذا الانتقال نفسه موجودا للخلاف بين جديد طارئ وقديم زائل فليس للجديد بد من أن يجاهد ليظهر ويستأثر بالحياة، وليس للقديم بد من أن يجاهد قبل أن يزول ويفقد سلطانه على النفوس»⁽²⁾.

يمكن تصوير القطعة السابقة في نسق القياس المنطقي المتدرج على النحو التالي:

(1) Brandt, William: The Rhetoric of Argumentation, p 31

(2) طه حسين، القديم والجديد، ص 217

- التقديم والجديد مسألة تلازم الأمم الحية : لأنها حية.
- الحياة تطور.
- التطور انتقال.
- الانتقال موجود للخلاف بين جديد وقديم.
- الجديد لا بد له من أن يجاهد (ليظهر). والقديم لا بد له من أن يجاهد (قبل أن يزول).
- التقديم والجديد مسألة جهاد بين الزوال والظهور.

غني عن البيان أن مكاتب الحجاج لا يشغل نفسه دائماً بأن يجعل أقواله مفيدة غالب القياس المنطقي المتدرج التقليدي. ربما ظهرت أقواله على هذا النحو، وربما تحررت في نسق النظم بعض الشيء - على نحو ما رأينا في لفظة السابقة - من غير أن يفسد المحتوى الجوهرى الذي تؤسس عليه البنية لأسسها لهذا النوع من القياس المنطقي.

يعتد القياس المتدرج غالباً إلى عدة أقوال، ولكنه قد يبنى على عدد محدود من الأقوال أحياناً على حسب ما يوصل إلى النتيجة التي يريد ما لشكله القياس المتدرج التالي قياس غير معتد: لأنه يقدم قولين اثنين فقط، ثم يتجه نتيجة القياس يقول خالد محمد خالد في سياق دفاعه عن استحضارة الأمة إلى الأمة التي يزيف تاريخها تكون ككامة بلا تاريخ، وأمة بلا تاريخ كشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار³¹.

بصور القياس المتدرج فيما سبق على هذا النحو:

- أمة زائف تاريخها ككامة بلا تاريخ.
- أمة بلا تاريخ كشجرة اجتثت من فوق الأرض.
- أمة زيف تاريخها ككامة اجتثت من فوق الأرض.
- من قياس المتدرج غير المتمد أيضاً قول محمد زكي عبد الله:
- "أمة زيفة إذا دامت انقلبت إلى ما يشبه الإيمان، لا تخفى منها أمة واحدة أو حركات، والإيمان يفسد الجسم والروح والعقل"³²
- هذه لفظة السابقة لقياس المتدرج التالي

31 - محمد زكي عبد الله، مرجع سابق، ص 21.
32 - محمد زكي عبد الله، مرجع سابق، ص 21.

- الرفاهية إدمان.
- الإدمان يفسد الجسم والروح والمقل.
- الرفاهية تفسد الجسم والروح والمقل.

يبين القول اللاحق على جزء من القول السابق حتى ينتهي القياس المترج إلى نتيجته. في القياس المنطقي التقليدي تنتمي المقدمة الصفري إلى الطبقة الأعلى في المقدمة الكبرى. وهذا تمييز واضح بين النوعين.

هذا ويشير ولهم برانت W.Branti إلى أن الاستنتاج المترج مهم جداً للحجاج؛ وذلك أنه يسمح للكاتب بطرح خطوات واضحة تطبع حجاجه بطابع الهدوء، ولكن الهدوء الذي لا يصل إلى الحركة البليغة جداً والتي تضيق على القارئ انتباهه^(*).

من الجائز توسيع ملحوظة برانت السابقة حتى تسرى على أشكال القياس المنطقي جميعاً؛ وذلك أنها جميعاً تسم الخطاب الحجاجي بسمة الهدوء الذي ينتج عن بناؤها على التفصيل والتقسيم، واحتياجها في الربط بين الأقوال وصولاً إلى النتيجة إلى الأناة والانتباه.

لعل ارتباط الأهمية المنطقية بالهدوء متناسب تناسباً طردياً مع ميل النص الحجاجي في موضوع ديني أو فكري إلى توظيف القياس المنطقي والقياس المستمر والقياس المترج وسائل إقناعية. في مقابل ميل النص الحجاجي في موضوعات عامة أو اجتماعية إلى الاحتفاء بالقياس على النظر وضرب الأمثال والشواهد من الحياة والخبرات اليومية.

ومهما يكن من أمر، فإننا نرى فيما اشتمل عليه النص الحجاجي العربي من أشكال مختلفة للقياس المنطقي، ما يهدم زعم باربرا جونستون صحتها^(**) تزعم باربرا أن الحجاج العربي يعتمد على قالب من البرهان منه على القياس المنطقي Syllogism Model of Proof. في مقابل الحجاج العربي الذي يقنع عن طريق عرض دعاويه الحجاجية argumentative claims عرضاً نمويماً بالتدرج وإعادة الصياغة عرض الحجاج العربي دعاويه

(*) كحلج، ص 47-48.

(**) Koch, Barbara Johnstone. Presentation of Proof: The Language of Arabic Rhetoric. Anthropological Linguistics, Vol. 25, No. 1 (1983) pp. 47-60, p. 4.

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

بإسرائيل اللغوية المناسبة صحيح
بإسرائيل اللغوية شحنة على نحو ما

أب) الوسائل اللغوية :

لوسائل الشفوية واللغوية في شكل نص حجاجي من سداد ونعمته. وكانت لغة الأداة اللغوية لمثل الشعر أو النسيجة في شكل قياس مطبق. ولما كانت لغة في الحجاج وسيلة لفرض سلطة على الآخرين من نوع استرجاع إلى الدعوى المتبر عنها وإقناعهم بمصداقيتها، وهو أمر يرغب في البحث عن بدائل لغوية لما نالته في مواقف غير حجاجية، فإننا نقتصر هنا على استكشاف الوسائل اللغوية ذات الصلة الوثقى بالإقناع وتحليل أنماطها المختلفة. إن تحليل لغة النص الحجاجي من منظور الاختيار اللفظي، والتكثيف اللغوي، وخصوصية البنية المجازية، وكيفية توزيع الحمل البسيطة والمركبة والمعقدة والمركبة المقعدة، وطبيعة الإحالة الضميرية (كاستخدام نحن ونا للمعظم نفسه إزاء خصمه على نحو ما نجد مثلاً في مكاتبة الإخشيدي إلى أرماتوس)، فضلاً عن بحث العلاقة بين اللغة والتقنيات الحجاجية الموقفية: كالاستدراج، والمناورة (لا سيما بالجمل الافتتاحية)، ومعاورة المخاطب المفترض، والتظاهر بالتقائية ونحوها، لمن مجالات البحث اللغوي الاتصالي المهمة التي تزودنا بمعطيات مفيدة عن النص الحجاجي العربي. نخص إليها الحاجة في حقل تحليل النص العربي. ولكننا - كما اشترنا - سوف نقتصر هنا على تحليل البنية اللغوية التي يقلب وقوعها في النص الحجاجي العربي والتي تزودنا بأدوات مهمة في الإقناع والاستمالة. بما يحمله متميزاً - إلى حد بعيد - عن غيره من أنواع النصوص الأخرى.

بناء على ما تقدم، يمكن أن نميز بين عدد من البنى اللغوية، من أهمها:

سنة التكرير، وبنية التوازي، وبنية الازدواج أو التوازن.

ب/1) بنية التكرير :

يؤدنا استقراء بعض المصادر البيانية بطائفة من المعطيات المهمة عن التكرير، يحملها فيما يلي

التكرير (ويسمى أيضاً بالتدبير، والتدريج) وظائف خطابه عدده

- عنها بالإفهام والإفصاح والكشف^(١)، وتوكيد الكلام والتشديد من أمره، وتقرير المنى وإثباته^(٢).
- ٢- ليس التكرير محض وقوع للفظ في الكلام أكثر من مرة، أو ضمهاغة المنى الواحد أكثر من مرة. يخرج عن حكم التكرير مثلا إطالة الفصل من الكلام واضتقار أوله إلى تمام لا يفهم إلا به. يقتضيه سبكه الكلام - إذ ذلك - أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ليكون مقارنا لتمام الفصل مثال هذا قوله تعالى: **﴿لَا تُحْمِزُنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيَحْسَبُونَ أَنَّ يُحْمِزُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْتَهُمْ بِمَقَارِنٍ مَّنَ الْعَذَابِ﴾** لال عمران: ١١٨٨.
- ٣- ترتبط بعض حالات التكرير بالتغيير في سلوكه المخاطب. يقول ابن الأثير (ت٦٣٧هـ): **﴿إذا صدر الأمر من الأمر على المأمور بلفظ التكرير مجرودا من قرينة تخرجه عن وضعه، ولم يكن موقفا بوقت معين، وكان ذلك حثا له على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور، فإنك إذا قلت لمن تأمره بالقام: قم قم قم، فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام في تلك الحال الحاضرة﴾**^(٣).
- ٤- التكرير ظاهرة لغوية مقامية. من أهم ما يدل على هذا الفهم إشارة ابن الأثير إلى تكرير المنى في مقام الاعتذار والتصل قصدا إلى التأكيد والتقريب لما ينفي عن المتكلم ما رمى به^(٤).
- ٥- قدمت محاولات لتصنيف أنواع التكرير. من أشهر التصنيفات ما قدمه ابن الأثير:
- (أ) التكرير في اللفظ والمنى.
- (ب) التكرير في المنى دون اللفظ.
- من النوع الأول قولك لمن تستدعيه: **«أسرع أسرع»**. ومن النوع الثاني قولك:

(١) ابن الأثير، مصدر الفهم، التلخيص، ص ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧.

(٢) ابن الأثير، مصدر التثبيت، ص ١٠٧.

(٣) ابن الأثير، مصدر التكرير، ص ١٠٧.

(٤) ابن الأثير، مصدر التكرير، ص ١٠٧.

نمضي ولا نمضي فإن الأمر بالطاعة نهي عن تمضية
 • فتمت محاولات أخرى لتصنيف التكرير في المنس. ولكنها صكات
 محاولات حوثية لغافية. من ذلك التفات ابن الأثير إلى أن التكرير في
 المنس يدل على معنيين: أحدهما خاص. والآخر عام : كقولته تعالى
**وَوَلَّيْنَاكَ أُمَّةً يُدْعَوْنَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
 الْمُنْكَرِ** آل عمران: ١١٠٤. فإن الأمر بالمعروف خير. وليس كل خير
 أمراً بالمعروف وذلك أن الخير أنواع كثيرة. من جعلتها الأمر بالمعروف.^(١)
 وكان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) قد قيد التكرير - ويسميه الترداد - بقدر
 الاستمعين، ومن يحضره من المواقم والخواص^(٢).

في اللسانيات النصية، عولج التكرير من منظور دوره في السبك
 المجمعي. وذلك أن يحيل اللفظ المكرر إلى لفظ آخر سابق مرادف، أو
 مرادف قريب، يرتبط به بالإحالة المشتركة^(٣). ومن أشهر الأطر المقترحة
 لوصف السبك المجمعي ما رأيناه عند هاليداي ورفقة حسن^(٤).
 ومهما يكن من أمر، فإن وظيفة التكرير التركيبية تخرج عن إطار
 غرضنا هنا، إنما نمضي بتحليل بنية التكرير من منظور الوظيفة الاتصالية
 الإقناعية. نرى هنا للقديما إشارات مهمة تفيد في إلقاء الضوء على تلك
 الوظيفة. يقرن أبو هلال المسكوري (ت ٣٩٥هـ) التكرير بتأكيد الحجج^(٥)،
 ويجعل التكرير مدأ للقول، ومن ثم يربط بين مدأ القول ويلوغه الشفاء
 والإقناع^(٦).

شملت البنية التكرارية للخطاب الحجاجي العربي بال عدد من
 المستشرقين: تروى شيرلي أوستلر Schirly Ostler - في دراسة تقابلية بين النثر

(١) المرجع السابق ص ٣٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٧

(٣) ليلو والنسور ١٠٤

(٤) Halliday, M.A.K. - Hasan, Ruqaiya: Cohesion in English Longman 5th Impression (1983) pp 278-282

(٥) المرجع السابق ص ٢٨٨

(٦) الصغري أبو هلال، كتاب الصغرين، لم نقل على محمد الحادي، محمد أسد المعالي، برهان دار، لبنان

الكتاب العربية، ج ١، ص ١٣٧، ١٣٨ - ١٣٩، ص ١٤٠

(٧) المرجع السابق ص ١٤٠

الإنجليزي والنثر العربي أنه «على عكس التطور في الإنجليزية من لغة شفوية إلى لغة كتابية، نزل العربية الكلاسيكية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتقاليد شفوية oral traditions»⁽¹⁾.

وترى باربرا جونستون سكوتش B.J.Koch أن خطاب الحجاج العربي يعتمد في الإقناع على المرض اللغوي للدعوي الحجاجية بتكريرها وصياغتها صياغة موازية، والبأسا إيقاعات نغمية بنائية متكررة. وترى أن هذا الطراز من الحجاج هو نتيجة المركزية الثقافية للغة العربية في المجتمع العربي الإسلامي. وتسمى باربرا هذه الاستراتيجية البلاغية: استراتيجية الإقناع بالتكرير repeating وبالصياغة الموازية rophrasing وبالبأس الدعوى وإعادة إلباسها إيقاعات نغمية متغيرة من الكلمات، تسميها باسم «استراتيجية المرض Presentation (استحضار الشيء أمام الإنسان حتى يتعلق به شعوره)»⁽²⁾. أما ارتباط العربية بتقاليد شفوية، فهو أمر تثبته البني اللغوية للنصوص ونرى له آثاراً عدة على المستوى الصوتي - الصرفي والمستوى التركيبي معاً. ووقوف القدماء من اللغويين والنحاة على تلك الآثار دليل تاريخي قديم على الوعي بوجوده وأما إطلاق سكوتش القول بالتكرارية في الحجاج العربي، فأمير نريد هنا تقيده باستقراء النصوص.

تقبل أنماط التكرير في النصوص المختارة لهذه الدراسة أن تصنف بأي طريقة للتصنيف. نختار هنا أن نصنفها إلى صنفين رئيسين: تكرير الشكل، وتكرير المضمون. يشتمل تكرير الشكل على اللفظ المفرد والمباراة أو الجملة، وهو تكرير شكلي في مقابل تكرير المضمون الذي أثرته على ما أسماه بعض القدماء مثل ابن الأثير بتكرير المعنى؛ وذلك أن ما سمي بتكرير المعنى لا يكون المعنى فيه مكرراً، بل يتغير بتخصيص أو تعميم أو اشتراك في جزء من المعنى. وإذا ما يجمع المعنى والمعنى هنا نقل مضمون عام واحد.

(1) Ostler, Schurley, E. English in Parallels: A Comparison of English and Arabic Prose. South California Uni. Pp: 166-185, p 172

(2) Koch, B.J. Presentation, op cit: p 2

يعني أن لا يُشار إلى أن تكوير الشغل لا يثبت له إلتزام إلا أن
 يحاط به قصد أن ذلك في مثل قول تعقد أنه لا يعرف شعر برويه
 ليس يقال إنه يعني قبله وحده لأن شعر النفس يعني ككل نفس.
 تكوير الكلمات شعرا ونفسا مرتين. ولكننا لا نرى في هذا التكوير
 نصا في إقناع لأنه لا تدبل في سلك ذلك المنطوق عن مثل هذا التكوير.
 وقد مرت - إشارة إلى الأثير إلى حكمه التكوير. وأنه يخرج الحالات التي
 تدل على الفصل من الكلام حتى يفترق أوله إلى تمام لا يفهم إلا به تطول
 تلك الحالات أخرى يقتضيها تسبك ولا أثر غيرها بقصد التقرير أو التوكيد
 أو إقناع أو نحو ذلك. ولكننا نريد نذكر أمثلة للتوضيح من نصوص
 عند واحد هو المقاد.

- قوله فتهيج فيها (الأصوات) العاطفة العاطفة وتبعث الرغبة الرغبة^١
- وقوله: «وكانما يزرع نفسه من نفسه»^٢.
- وقوله: «لأن اندارك مدارك فرد واحد. والهو هو نوع بأسره»^٣
- وقوله: «يخالجه الغضب كلما يخالجه الطرب»^٤.
- وقوله: «ولكنه (أي العشق) غريزة يراد بها بقاء النوع كله واتصال
 جيل الحياة جيل بعد جيل»^٥.

يمكن أن نرى تيمض هذه الاستخدامات وظائف خاصة، وكان تكون
 وظيفة هي الوصف في نحو «جيل بعد جيل» أي أجيالا متتابعة، ولكننا لا
 نرى في غيرها إلا وظيفة سبكية خالصة Cohesive Function يقتضيها
 تشكيك، لا بلاغية يقتضيها المقام. مثل هذه الحالات لا موقع لها من
 اهتمام في دراستنا.

١- هذا أول حصري من حصوله.
 ٢- هذا هو أوله المقاد.
 ٣- هذا هو أوله المقاد.
 ٤- هذا هو أوله المقاد.
 ٥- هذا هو أوله المقاد.

- ومهما يكن من أمر - فإنه يمكن التمييز بين أنواع ثلاثة للتكرير على مستوى الشكل، وفقاً لما ينهجه لنا استقراء النصوص انحصارة، وهي:
- ١ - تكرير المكرر بذاته، سواء أكان لفظاً مفرداً أم غير ذلك، في منطوق واحد، أم غير ذلك.
 - ٢ - التكرير في هيئة عنصرين من مادة واحدة.
 - ٣ - التكرير بإعادة الصياغة.

أما (النوع الأول)، وهو تكرير المكرر بذاته، فقد يكون لفظاً مفرداً؛ كقول طه حسين في سياق دفع دعوى أنصار القديم: «فإن كانوا كذلك، فهم خليقون بالرحمة والعطف والإشفاق. وكيف لا ترحم من يحيا راعماً ويلذ راعماً ويألم راعماً»^(١). وقول مصطفى محمود في سياق تبريره دعواه بتقير حال الدنيا: «والكلام في وسائل الإعلان عن التلوث: الهواء الملوث، والماء الملوث، والطعام الملوث»^(٢). وربما امتد تكرير اللفظ في النص الحجاجي المرعي امتداداً أبعد كثيراً حتى يبدو النواة الكبرى في تشييد دعواه الرئسية. ومن ذلك مثلاً كلمة «متعددة» في نص «التمدد في حياة الإنسان» لمحمد زكي عبد القادر، ومنه قوله: «الإنسان من حيث هو إنسان له ارتباطات متعددة، وعمره على هذه الأرض له مراحل متعددة، ونظرة إلى الأمور له وجوه متعددة، وهو من حيث إنه إنسان له عقل، تخطر عليه تساؤلات متعددة، ومن حيث إنه إنسان له قلب تضطرب في قلبه عواطف متعددة...»^(٣).

يريد الكاتب بالتكرير فهما سبق تثبيت تبريره دعواه، حيثما يكون استبقاء المكرر في الزمان والمكان وسيلة لدحض ضد.

في حالات أخرى يجعل الكاتب المكرر بذاته وسيلة لغوية للوصول إلى الهز بالخصم وفضح جهله، لضرب مثالا على ذلك قول طه حسين عن خصمه الرافعي: «إذا كان لي أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يمشقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة، فهي أن يصدقوا حين يكتبون، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ومن هنا فهمنا القدماء

(١) مقال «القديم والحديثة» من كتابه «حديث الأربعاء» ص ١٠٣.

(٢) مقال «التقدمية الأمازيغية» من كتابه «شعلة النور» كتاب النور، دار النشر لعلوم (١٩٩٨) ص ١٥.

(٣) مقال «التمدد في حياة الإنسان» ص ١٠٠، مقال «التمدد في حياة الإنسان» ص ١٠١.

ولم تفهم هؤلاء السادة المتقدمين^(١١).

في عبارة هؤلاء السادة المتقدمين، سخرية واضحة بالخصوم الذين تكلفوا نهج القدماء على غير علم، وقد مهد لهذه السخرية تكرير لفظ القدماء قبلها.

ولعل طه حسين أكثر الحجاجيين المحدثين استخداما لبنية التكرير قصد السخرية بالخصم. وتكشف سياسة السياق اللغوي مع تلك البنية عن كثافة اتصالية حجاجية عالية. تؤكد ذلك بمثال آخر هو قوله: «لقد يكون من الحق على الراضي لو أنصف نفسه أن يعلم أنني من قوم قد بلوا السفهاء فأصنوا بلاهم، ... ، وإن رجلا يحتمل السفهاء مثل ما نحتمل ... لخلقوا إلا بضيق صدره إن زاده الله على هؤلاء السفهاء واحدا، أو ييسم ثفره إن نقص الله من هؤلاء السفهاء واحدا»^(١٢). وقعت «السفهاء» في النص السابق أربع مرات يمكن في الموضوع الثاني استبدالها بالضمير أو اسم الإشارة المناسب. ويمكن في الموضوعين الثالث والرابع الاستغناء عنها، ولكن الكاتب قصد بتكرير اللفظ تهييج خصمه - موصوفا بالسفه - مع كل مرة (التكرير هنا إذن وسيلة لإقناع الخصم عن طريق دحض زعمه وكشف حقيقته.

من ناحية أخرى، قد يكون المكرر بذاته عبارة أو جملة. ويقع ذلك في المقدمات لتقرير المعطيات، كما يقع في التبريرات والدعاوي جميعا. يلتفت الانتباه هنا تكرير الجملة في الدعوى، سواء أكانت المقدمة دعوى الحجاج أم وقعت المقدمة والدعوى في مكانيهما المتادين. في مقدمة حجاجه، نرى للسكندري هذه الجملة: «إنما المال لمن حفظه». وفي نص دعواه يكرر هذه الجملة مع جمل أخرى برهن فيها سبق من خطابه على صحتها بالتبرير: «فالمال لمن حفظه، والحسرة لمن أثلفه»^(١٣). ينكر طه حسين على أنصار تقديم نصرهم القديم في الوقت الذي يستمتعون فيه في حياتهم الخاصة بأحدث ما اخترعت الحضارة، فيقول: «ولقد أريد أن أرى بين أنصار القديم أولئك الذين لا يزالون يأكلون ويشربون في الصحاف والأكواب من النحاس

(١١) على أساس ابن جني من حديث الأريحا ١٢٦٣

(١٢) نوح لسان ١٢٧٣

(١٣) السلف، ص ٧٨

والفخار وقد جلسوا على حصير ورفضوا الكراسي رفضاً، وأبوا أن يستمتعا بكل ما أتاحت لهم الحضارة الحديثة من أدوات الترف واللذة البريئة - أريد أن أرى هؤلاء، ولكنني يائس من رؤيتهم⁽¹¹⁾. التكرير هنا تعبير عن رغبة أحد طرفي الحجاج الملحة في أن يثبت الخصم ما يبرهن على صلاحية ممتدده، ولكن تظل هذه الرغبة غير متحققة؛ لأن ما يصدر عن ذلك الخصم يضاد ذلك المتقد.

في مواقع أخرى ينقض طه حسين دعوى الخصم بحكم صريح، يكرر منطوقه تثبيتاً لمضمونه ورغبة في رجوع الخصم عما ادعى. من ذلك مثلاً العبارة «ليس من القديم الصالح في شيء» المكررة بصدر كل منطوق فيما يلي: «ليس من القديم الصالح في شيء أن تتبر الحياة أمامك دون أن تشعر بهذا التبرير أو تلائم بينه وبين اللغة. وليس من القديم الصالح في شيء أن تكثر الأشياء المستحدثة التي تصطنعها في كل يوم بل في كل ساعة، فلا تستطيع أن تتلق باسمها إلا إذا وجدت لها اسماً عربياً ورد في المعجم اللغوية القديمة». ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تشعر الشعور الذي لم يكن يشمره غيرك من القدماء، فلا تستطيع أن تصفه إلا على نحو ما كان يصفه القدماء... ثم ليس من القديم الصالح في شيء أن تأخذ نفسك بسلوك سبل القدماء في وصف الجمال، فلا تعرف من فنون الشعر والنثر إلا ما عرفوا⁽¹²⁾. وتكرر الجملة جزءاً من منطوق كمال في عجزه أيضاً: «كقول محمد زكي عبد القادر في توصيفه واحدية مصدر أشياء عدة: «الأدب العظيم جاء من المماناة، والفرن العظيم جاء من المماناة، والحب العظيم جاء من المماناة...»⁽¹³⁾ يهدف التكرير فيما سبق إلى تثبيت الدعوى أو تقرير المعطيات إنه يهدف إلى جعل محتوى الجدل مفهوماً أكثر. إنه يزيد الفهم بجذب انتباه المستقبل وامتلاكه.

أما (النوع الثاني)، وهو التكرير في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة، فتراه في غير نص من النصوص المختارة. يمكن أن نرى من ذلك قول

(11) مقال «القديم والحديث» من كتابه - تحت الأربعة - 37-38

(12) مرجع السابق ص 37-38

(13) مقال «الأمم مع كل شيء» ص 44 - 45 (ص 18)

إخوتنا نصفا: وواعلم أن إقدار الله القادرين وتقويته الأهوية وتيسير الأمور ليس بمجبر لأحد منهم على فعل من الأفعال ولا عمل من الأعمال ولا تركها^(١).

أما مكاتبة الإخشيد، فهي من النصوص الحجاجية القليلة التي تعرض نموذجاً يتسع فيه مدى هذا النوع حتى يصير آلية لغوية مهمة من الآليات دفع دعوى الخصم وإقناعه بالإقلاع عنها. من هذه المكاتبة قوله مثلاً مخاطباً أرماتوس: «ولئن كنت تجري في المكاتبة على رسم من تقدمك، فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يمل محناً، ولا أغني غناماً، ولا ساس في الأمور سياستاً»^(٢). في هذه المكاتبة نجد أمثلة أخرى عدة على هذا النوع، نحو «القدرة القادرة» ونشر «تشرين» و«قول القائلين» و«يقوت عددها عدّ العادين» و«جبرية الجبارين» و«شكر الشاكرين» و«سمى لها سمياً» و«سلك مسلحاً» و«قلت قولا» ... الخ^(٣). تنعكس مثل هذه الهيئة من التكرير المبنية على: فعل + اسم فاعل، أو: فعل + مفعول مطلق، تنعكس - في سياقها الحجاجي - حالة من حالات تأثير في سلوك الخصم - في منازعة محتدمة - باستخدام علامات لغوية تعتمد في تأثيرها السمي على مبدأ التجانس.

أما (النوع الثالث) من أنواع تكرير الشكل، فهو تكرير بتعبير في التركيب، يتسع فيه المدى عادة بين الشكل الأول والشكل الثاني. أضرب مثلاً على ذلك قول المازني في سياق البرهنة على فوز المذهب الجديد في الأدب: «ولو شئت، وكان ذلك يلائم مزاجنا ويليق بمهمة النهضة بالأدب وتحريره، لباهنا بالمذهب الجديد فيه وبفوزه على صنوف الاستبداد»^(٤). يبرهن الكاتب على دعواه حتى يخلص إلى قوله مكرراً العبارة السابقة في تغيير التركيب: «فاز المذهب الجديد على هذه وغيرها من صنوف الضنن وضروب الاستبداد»^(٥). الترجيح في هذه الحال تشييد للمعنى ووجهة النظر.

(١) رسالة إلى أرماتوس، ص ٢٤١.

(٢) رسالة إلى أرماتوس، في كتاب: حدة رسائل العرب، مع أحد ركني صنوف، شركة مكتبة ومطبعة

محامي أسباني، ط ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٦ م، ص ٤٢١.

(٣) رسالة إلى أرماتوس، ص ٢٢١.

(٤) رسالة إلى أرماتوس، ص ٢٢١.

(٥) رسالة إلى أرماتوس، ص ٢٢١.

ب/١- ب - تكرير المضمون :

يبنى تكرير المضمون أو المحتوى على مكونات لغوية مترادفة أو مشتركة في جزء من المعنى. وتتيح لنا النصوص المختارة تصنيف تكرير المضمون إلى الأنواع الأربعة التالية:

- ١- تكرير مفردتين متواليتين أو أكثر، في جملة واحدة أو منطوق واحد.
- ٢- تكرير مفردتين في جملتين أو منطوقين متواليين.
- ٣- تكرير مفردتين في ثنائية.
- ٤- تكرير المضمون بين جملتين متواليتين.

وفيما يلي تفصيل هذه النوع :

(النوع الأول) وهو تكرير مفردتين أو أكثر في جملة واحدة أو منطوق واحد لمعنى واحد، أو لمعنى عام واحد. وهذا النوع لم يخل منه نص من نصوص الدراسة، بل تظهر الإحصاءات أنه النوع الأشيع؛ فهو يمثل حوالي ٥٤% من مجموع أنواع تكرير المضمون؛ أي ما يربو على نصف كجم الأنواع الأخرى مجتمعة.

يمكن أن نميز لهذا النوع بين أشكال فرعية عدة :

(أولها) يستخدم فيه الكاتب مفردتين أو أكثر على أنها مترادفة وأن إحداها يمكن أن تحل محل الأخرى وهذا الشكل هو أكثر أشكال هذا النوع وقوعاً في النصوص الحجاجية العربية. إنه يمثل ما يقرب من ٧٥ ٪ من جملة الأشكال الأخرى.

من أمثلة هذا الشكل قول الكندي لمعاليه وأصحابه: «اصبروا عن الربط عند ابتدائه وأوائله»^(١).

يرى الكاتب في الجمع بين مفردتين أو أكثر لمعنى عام واحد آلية لشغل فضاء ذلك المعنى كاملاً، حيثما تقصر المفردة الواحدة - في ذلك السياق الحجاجي - عن أداء هذه الوظيفة. يعني هذا بالطبع أن الترادف لا يبلغ - مهما بدا قريباً - أن يكون ترادفاً كاملاً.

(ثانيها) ارتباط الثاني بالأول ارتباط السبب بالمسبب وهذا الشكل يلي سابقه من حيث الشيوع. ومن أمثله قول إخوان الصفا في مقدمة احتجاجهم

مصطفى محمود في سياق تدعيم دعواه أن الحب هو رأس القضية؛ يوماً كان لصليبيون ليس جاثوما غزاة ضامعين على دين. أي دين. ولا كان سفاحو الصرب الذين يقتلون الأبرياء على أي ملة^{١٧}. زادف تكندي بين (أوتر) و(أقدم) في جملتين بالقطعة الأولى. وزادف مصطفى محمود في جملتين من القطعة الأخيرة بين (دين) و(ملة). في الحال الأولى وقع المترادفان بصدر الجملتين. ووقعا بجزء الجملتين في الحال الأخيرة.

(النوع الثالث) وهو تكرار مفردتين في ثنائية. يمثل هذا النوع حوالي ١٧٪ من مجموع الأنواع الأخرى. أي ما يقل كثيراً عن ستمس تلك الأنواع. بينما وقوع ذلك النوع كثير نسبياً في النصوص الحجاجية القديمة إذا بالنصوص الحجاجية الحديثة يقل فيها أن يقع تكرير المضمون على مستوى ثنائية لفظية من جملة واحدة. من أمثلة هذا النوع قول الكندي في دفع دعوى خصومه: «وزعمت أننا سمينا البطل [صلاحاً والشح اقتصاداً. كما سمى قوم البريمة انحيازاً والبذاء عارضة ...»^{١٨}.

ومنه قول إخوان الصفا في سياق القياس على النظر دعماً للدعوى: «وعلى هذا المثال حكم سائر الأعمال الصعبة والأفعال الشاقة»^{١٩}. ومنه أيضاً قول الإخشيد في سياق شرح مذهب من في الأسر من رعيته: «فوزي في الأسرى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر، وشدة المساء. على نعم الدنيا وخيرها. لحمن منقلبه، وحمد عاقبته»^{٢٠}.

تدلنا عينات الدراسة على أن تكرير المضمون من هذا النوع يمثل غالباً إلى حل الطرف الثاني في الثنائية المنطوية أعم وأقوى من الطرف الأول فيها. ومما تحذر الإشارة إليه هنا أن تكرير المضمون من هذا النوع يبدو آلية أساسية من آليات تشييد النص وإقناع المستقبل على وجه خاص في بعض نصوص هذه الدراسة. لا سيما مكانة الإخشيد. هذه المكانة هي الأكثر احصاءاً. لذلك التوجه سائر نصوص الدراسة.

مثل تكرير المضمون على مستوى الثنائيات المنطوية في تثنى شكرية «والذي ...»^{٢١}. هذه دلالة في النصوص الأخرى خصوصاً وهو يبرز وحده

^{١٧} مصطفى محمود، «الدين والجملة»، ص ١٠٠.

^{١٨} ص ١٠٠.

^{١٩} ص ١٠٠.

^{٢٠} ص ١٠٠.

^{٢١} ص ١٠٠.

في تكرير المضمون في نص المكتوبة ذاتها بجميع أنواعه
تؤكد ثنائيات تلك المكتوبة فكرة المكاشرة أو المقابلة التي اختصها
احتجاج الإخشيدي لثرائته. محور ذلك الاحتجاج، مثل: «عظم الشأن وهفامة
الأمر، وكبير الأعلام وبعد المرامي» ... إلخ. وترتبط هذه الثنائيات من ناحية
أخرى - على نحو ما سنفصل فيما بعد - باستراتيجية التوازن الغالبية على
حر المكتوبة غلبة قوية، بما يجعلها من النماذج المتميزة بين النصوص
الحجاجية العربية على الجمع بين تكرير المضمون من ذلك النوع وبين
توازن.

(النوع الرابع) وهو تكرير المضمون على مستوى الجمل والعبارات. وهذا
نوع - كما ثبتت نصوص الدراسة - يمثل ما يقرب من ربع حالات تكرير
المضمون في النص الحجاجي العربي، فهو يمثل ٢٤.٣٪ من جملة الأنواع.
من أسئلة هذا النوع قول الكندي: «فالل من حفظه، والحسرة لمن آتفه،
وإنفاقه هو إنفاقه، وإن حسنتموه بهذا الاسم وزينتموه بهذا اللقب»^(١) -
الجلتان الأخيرتان مستخدمتان لمضمون واحد. وربما عبر عن المعنى أو
التعبير بتكرير جمل عدة متوالية: كقوله أيضاً: «فإن للنفس عند كل
طارف نزوة، وعند كل هاجم بدوة، وللقادم حلاوة وفرحة، وللجديد بشاشة
وغرة، فإن متى رددتها ارتدت، ومتى رددتها ارتدعت»^(٢).

ومما يلاحظ هنا أن تكرير المضمون على مستوى الجملة وأشباهاها في
النصوص الحجاجية العربية الحديثة أقل بعمامة منه في النصوص الحجاجية
العربية القديمة، بينما النسبة الأعلى في النصوص القديمة هي ٤٠٪ تقريباً
لذلك في حجاج الكندي ليطغى إذا بالنسبة الأعلى في النصوص الحديثة لا
تجاوز ٣٣.٣٪ (عند طه حسين).

تبين المقارنة بين النسبتين - من ناحية أخرى - دنو طه حسين من الأسلوب
العربي القديم في الحجاج؛ وهو أسلوب يحتفي احتفاءً خاصاً بإعادة صياغة
النص وإيقاعية التوازن اللذين يعكسان تفكيراً مطولاً، تغلب فيه السلاسة
والسهولة على الانتقالات المفاجئة أو السريعة.

ومن الملائم هنا الإشارة إلى ما لاحظته والتر أونغ Walter Ong في قوله:

١٨٨
١٨٩
١٩٠

او يميل للتصغير الطول دو الأساس الشفاهي - حتى عندما لا يكون في شكل شمري - إلى أن يكون إيقاعيا بشكل ملحوظ: لأن الإيقاع - حتى من الناحية الفسيولوجية - يساعد على التذكير¹¹¹.

ولعل طه حسين أدنى المحدثين إلى النمط الشفاهي: فهو متأثر أشد التأثر بالنمط التعبيري القديم، فضلاً عن اعتماده على التأثير الإيقاعي عند سبكه جملة والربط بينها، وكأنما جمل من ذلك كله تمويضا عن نقل كلامه بوساطة الإملاء.

ومهما يكن من أمر، فإن تأمل حالات ذلك النوع¹¹² يدلنا على أن الجملة الثانية نمل غالباً إلى أن تكون أعم وأقوى في دلالتها من الجملة الأولى التي تشترك معها في الدلالة العامة. ولعل طه حسين والعقاد أحرص المحدثين - ممن اخترنا لهم في هذه الدراسة - على اطراد هذه العلاقة بين الجملتين، مما يجعل لذلك النوع عندهما أهمية خاصة في دفع المعنى إلى درجة أقوى، وهو ما يزيد من فاعلية هذه الآلية اللغوية في إقناع المخاطب واستمالاته. يقول طه حسين - في سياق رده على الراجحي دعواه أنه كان يحسن اللفظ حتى خاف منه خصمه طه حسين: «لقد يكون من الحق على الراجحي لو أنصف نفسه أني أعلم أن من قوم قد بلوا السفهاء، فأحسنوا بلاهم، وصبروا لهم واحتملوا منهم»¹¹³.

التكرير في (صبروا لهم واحتملوا منهم). ويقول العقاد في سياق دفع دعوى بعض الناس بأن الرقة هي الصفة الأولى للشعر: «ويعلم (الماشق) حينئذ أن السعادة التي سمع بها هي تلك القوة التي كانت تصطرع للظهور، وتتأجج للسطوع»¹¹⁴.

والتكرير في (تصطرع للظهور وتتأجج للسطوع). هذان مثالان للفناب في تكرير المضمون من ذلك النوع عند هذين الكتاتين، وهو الانتقال إلى الأعم والأقوى. وربما بدا تكرار المضمون على مستوى جملتين أو أكثر في هيئة إيضاح أو شرح الثانية للأولى.

¹¹¹ راجع: «النغمات الشعرية والكتابة» ترجمة حسن عبد الرحمن، مجلس ترويض الثقافة والصور والأدب - الكويت (1982) ص 92.

¹¹² طه حسين، «الخطبة» ص 103.

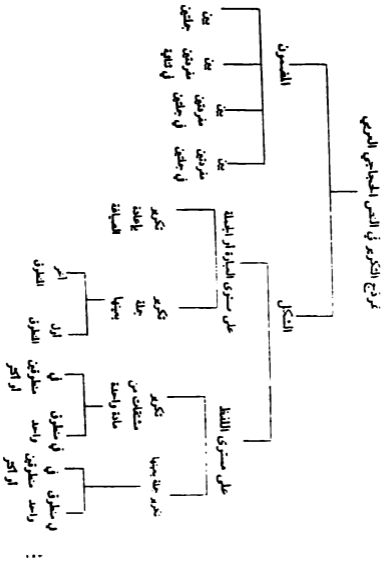
¹¹³ «الخطبة» طه حسين، ص 103.

عبر حصار لاصح
نص شد بعد جرحي في البيت الذي لا
عرب مثلاً غير ذلك قول العقاد في سياق شعبيه دعواه بأن التوفيق لا
تسبح في شعر كتبه. وإنما عدت في غير موضعها. فمن ذا الذي يسمع
لأعبي لتأتمته في أيام هذه من استقامت فطرتهم وسلمت من المسخ
أذواقهم. فلا يحسنه أن يكون هذا الضنين الخافت صدى نفوس أدمية
ينسب إليهم وتتشبب إليهم.

ويقول مصطفى محمود في سياق شرح دعواه بأن الدين هو الحب القديم
والحنين الدائم إلى الوطن الأصل. وأنه ليس - كما يفهم الناس - مجموعة
أوامر والنواهي وثواب العقاب. ولا نفيق على هذا الحنين إلا لحظة يحيطنا
تفجع وظلمة والمبت والفوضى والاضطراب في هذا العالم. فنشعر أننا غرباء
عنه. وأتينا لسنا منه وإنما مجرد زوار وعابري طريق.

في كلام العقاد كانت اسلمت من المسخ أذواقهم، توضيحاً لـ استقامت
مضرتهم. وفي كلام مصطفى محمود كانت أننا لسنا منه وإنما مجرد زوار
وعابري طريق، توضيحاً لـ أننا غرباء.

تكرير المضمون على مستوى جملتين أو أكثر أوسع من غيره مدى في
حسن الخطاب. وأعله - من أجل ذلك - أبلغ أثراً في إقناع المخاطب بوجهة نظر
متكلم أو دعواه أو مصداقيته أو دحض دعوى الخصم مرة بعد أخرى
مع سبق يمكن عرض نموذج التكرير في النص الحجاجي العربي على
النحو التالي :



نوع الخطاب والاختصاص
العصر ثلث عشر حصار عمري - دراسة في وسائل الإيضاح

ويجد في جدول تفصيلية بإحصاءات الأنواع المختلفة لتكرير المفردات:
الكسبي (المعد ١٥)

النسبة	العدد	النوع
٪٢٦,٦	٤	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
٪٢٠	٣	بين مفردتين في ثنائية
٪١٣,٣	٢	بين مفردتين في جملتين
٪٤٠	٦	بين جملتين أو أكثر

إخوان الصفا (المعد ٣)

النسبة	العدد	النوع
٪٦٦,٦	٢	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
٪٣٣,٣	١	بين مفردتين في ثنائية
×	×	بين مفردتين في جملتين
×	×	بين جملتين أو أكثر

مكتبة الإخشيد (المعد ٢٥)

النسبة	العدد	النوع
٪٢٦,٦	٤	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
٪٢٠	٣	بين مفردتين في ثنائية
٪١٣,٣	٢	بين مفردتين في جملتين
٪٤٠	٦	بين جملتين أو أكثر

طه حسين (المعد ١٥)

النسبة	العدد	النوع
٪٦٦,٦	١٠	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
×	×	بين مفردتين في ثنائية
×	×	بين مفردتين في جملتين
٪٣٣,٣	٥	بين جملتين أو أكثر

• المقاد (العدد ٢٢)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٠	%٤٥,٤
بين مفردتين في ثنائية	٣	%١٣,٦
بين مفردتين في جملتين	٣	%١٣,٦
بين جملتين أو أكثر	٦	%٢٧,٣

• المازني (العدد ٢)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١	%٥٠
بين مفردتين في ثنائية	١	%٥٠
بين مفردتين في جملتين	x	x
بين جملتين أو أكثر	x	x

• خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٢	%٦٦,١
بين مفردتين في ثنائية	x	x
بين مفردتين في جملتين	x	x
بين جملتين أو أكثر	١	%٣٣,٣

• خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٥	%١٠٠
بين مفردتين في ثنائية	x	x
بين مفردتين في جملتين	x	x
بين جملتين أو أكثر	x	x

نرى هنا علاقة توازي بين «سأفعل إن استطمت» و«لكنني لن أستطيع».
وتبين هذه العلاقة هكذا: ١ ٢. ونرى أيضاً علاقة تراكب بين «سأفعل» و«إن
استطمت». وتبين هذه العلاقة هكذا: أ ب .

يحدد هالهداي العلاقات الدلالية - المنطقية التي تقع بين المنصرين:
السابق واللاحق - في بنية التوازي - في علاقته رئيسيتين اثنتين:
(١) علاقة التمديد Expansion، وتعني تمديد الجملة الثانية للجملة الأولى

بإحدى الطرق الثلاث التالية:

(الطريقة الأولى) الإحكام - (« مساو »): فالجملة الثانية تحكم الأولى
ككلية أو تحكم جزئاً منها. وذلك بأن تقررها بمباراة أخرى، أو بأن تحددها
على نحو أكثر تفصيلاً، أو بأن تعقب عليها، أو بأن توضحها بمثال:

فلان لم ينتظر: جرى بميدا
١ = ٢

الجملة الثانية لا تدخل عنصراً جديداً إلى الصورة، بل تشخص عنصراً
مذكوراً بالفعل تشخيصاً أكثر. بأن تقرره أو توضحه أو تتقنه، أو بإضافة
خاصة أو تعليق وصفيين.

(الطريقة الثانية) الإطالة + (« يضاف إلى »): وذلك بأن تمد الجملة
الثانية الجملة الأولى بإطالتها عن طريق إضافة عنصر جديد، أو بأن تستش
منها شيئاً. أو بأن تعرض بديلاً (الواو، أو):

فلان جرى بميدا، واختبأ فلان وراءه
١ + ٢

(الطريقة الثالثة) التعظيم = (« تكاثر بواسطة »): وذلك بأن تمد الجملة
الثانية الجملة الأولى بتمحيقها بواسطة تكبيفها مع ظرف زمني أو مكاني أو
علة أو شرط (هكذا، كذلك، لهذا السبب، مع ذلك، مع أن، على أن،
ولكن، إن، من ثم، حينئذ، إذ ذاك ...):

سكان فلان مذعورا: ولهذا جرى بميدا.
١ ٢

(٢) علاقة التصميم Projection: وتعني أن الجملة الثانية تصمم من خلال
الجملة الأولى والجملة المصممة حالتان:

الحالة الأولى: أن تكون ملفوظاً («قال») (أي تخصيص مردوج):
«فلان لم يسمع لديه من جد مسطوح» (الجملة الأولى) «و...» (الجملة الثانية)

- قال فلان: «سأجرب بعيداً»

١
٢

(الحالة الثانية) أو تكون فكرة (يفكر) (أي تخصيص مفرد):
وذلك بأن تصمم الثانية على أنها فكرة أو بناء معنوي:

- فكر فلان في نفسه: «سأجرب بعيداً»

١
٢

العلاقات المنطقية - الدلالية التي تحكم علاقة التوازي وطرق هذه العلاقات، هي ذاتها التي تحكم علاقة التراكم، ولكن طبيعة علاقة جزأى المنطوق أو المركب الجملي أو العبارة أحدهما بالآخر تميز بين التوازي والتراكم. الجدول التالي يبين هذا التمايز:

العلاقة	الطريقة	التوازي	الترابك
التعليق	الإحكام	س لم ينتظر، أجرى بعيداً	س جرى بعيداً، كما فلانيا الجبس
		١ = ٢	١ = ب
	الإضافة	س جرى بعيداً، وانتبها من وراء	س جرى بعيداً، بينما من انتبها وراء
		١ + ٢	١ + ب
التكثيف	كان س ملحوراً ١ ولها جرى بعيداً	س جرى بعيداً، لأنه كان ملحوراً	
		١ × ٢	١ × ب
التصميم	التلطف	قال س: «سأجرب بعيداً»	قال س بأنه كان يجرب بعيداً
		١ = ٢	١ = ب
	الفكرة	فكر س في نفسه: «سأجرب بعيداً»	فكر س أن يجرب بعيداً
		١ = ٢	١ = ب

يتضح من الأمثلة بالجدول السابق:

- ١- أن الرقم ١ يشير - في علاقة التوازي - إلى الجملة السابقة، وأن الرقم ٢ يشير إلى الجملة اللاحقة. وكل منهما يماثل الآخر.
 - ٢- أن الحرف أ يشير - في علاقة التراكب - إلى الجملة الحاكمة، وأن الحرف ب يشير إلى الجملة المحكومة؛ أي أن الجملة الحاكمة تقوم على تكهيف الجملة الأخرى المحكومة.
- في تقصيل أنماط التمديد، يبدأ هاليداي بالإحكام Elaborating، فهجمل له ثلاث صور:

(الأولى) المرض Exposition: وفي المرض تربط الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بتعبير آخر، لتقديمها من وجهة نظر أخرى. وربما لا يكون ذلك إلا لتقوية الرسالة، نحو:

- تلك الساعة لا تعشي، إنها لا تعمل.
 - ليست ككلية استمراض، لا أبيعها على أنها ككلية استمراض.
 - تدحض إحدى الحججتين الأخرى، ككلاهما ليست صحيحة.
- يمكن أن تكون العلاقة بين الجملتين صريحة، وذلك إذا استخدمت الروابط مثل: أو، بالأحرى، بعبارة أخرى، ويمكن أن يقال، أي.
- (الثانية) الشرح بالتمثيل Exemplification: وذلك بأن تطور الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بأن تخصصها أو تحددها على نحو أشد. وغالبا ما يكون ذلك بالتمثيل الفعلي، نحو:
- دخلنا في سباق. دخلنا في سباق المجموعات.
 - وجهك مثل وجه سائر الناس. هكذا العنان، وأنف في الوسط، وقم أسفل منه.

في هذه الصورة، تستخدم الروابط الصريحة: مثلا، على سبيل المثال، على سبيل الاستشهاد، نحو، مثل، خاصة.

(الثالثة) التوضيح Clarification: في هذه الصورة توضح الجملة الثانية الفرضية الموجودة بالجملة الأولى بإحدى أساليب التوضيح أو بتعقيب توضيحي:

- تظهر فلانة حائرة: كانت تفكر في الودينج.
- كانت حيوانات للاستمراض: اشتريتها محط لأنها البقة.
- لم يقل لها شيئا قط: الحق أن ملحوظتها الساقطة كانت نحو الشجرة.

التي توسلت بها للإقناع والاستمالة .

وفيما يلي توصيف عام للنصوص المختارة ومكوناتها الحجاجية:

١- من قصة الكندي: احتجاج الكندي لبخله (من قوله: تسمون من منع المال-

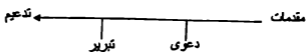
إلى قوله: بجمل حظ الموسر أكثر وإن كان في كل شيء فوق أصحابه):

(كتب البخلاء للجاحظ ص ٧٨ - ٨١) :

لادعوى (مذكورة): المال لمن حفظه ، والحسرة لمن أنفقه ، وإنفقه من

تألفه .

شكل الحجج:

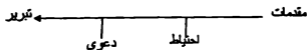


٢- ٤ : ثلاثة نصوص من رسائل إخوان الصفا:

النص ٢: في بيان سبب لاختلاف العلماء في الإمامة (٣٠/٤-٣٤).

لادعوى الرئيسية (مذكورة): جمع محمد x خصال النبوة وخصال الملك -

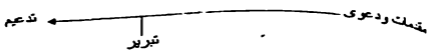
شكل الحجج:



النص (٣) : بعض أخلاق الملوك مضادة لخصال النبوة (٣٤/٤).

لادعوى الرئيسية (مذكورة): هي الدعوى السابقة .

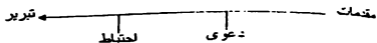
شكل الحجج:



النص (٤): في مسألة الجبر (٣٦-٣٥/٤).

الدعوى الرئيسية (مذكورة): ليس أحد من المخلوقين يقدر على شيء من الأشياء ولا عمل من الأعمال إلا ما قدره الله عليه.

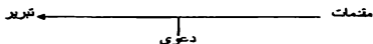
شكل الحجاج:



د. كتاب الإخشيد إلى لرماتوس ملك الروم (جمهرة رسائل العرب ٤/٤١٤-٤٢٥).

الدعوى (مضمنة): الإخشيد لا تقصر منزلته عن منزلة من يكتبه: لرماتوس.

شكل الحجاج:



٦- ٧: نصان لطلح حسين من كتابه (حديث الأربعاء ج ٣):

النص (٦): القديم والجديد (٣٦-٣١/٣).

الدعوى (مذكورة): ليس لتقديم لخصر ؛ أي أن لخصر القديم ليسوا

تصل ثلاث نهر احصاه لغوي - فرائد في وسائل الارجح

- الثوره عرض والانعطاط عرض . كلاهما يروول

٢-

فيما سبق استخدمت الروابط مثل : انواو ، أي . ولكن كثير إسقاطها في حالات أخرى

ثانياً) الإحكام في صورة الشرح: ومنه قول طه حسين :

- (أنصار القديم) يحيون حياتهم كبارهمين :

١

ياخذون بلداتها ويحتملون الامها دون أن يكون لهم في شيء من ذلك

٢-

زأي

وقوله عن الراضي :

- هو متكلف يمرض لما لا يعلم ويصف ما لا يحسن^١

وقول محمد زكي عبد القادر :

- تستبد به النزوات ، نزوات المال أو السلطان^٢

٢-

ثالثاً) الإحكام في صورة التوضيح: ومنه قول إخوان الصفا:

- (مسألة الإمامة) باقية إلى يومنا هذا ، لم تفصل ...^٣

٢-

وقول طه حسين :

- لم ينكر الفرنسيون ذلك (أن يضيف غيرهم إلى لشتهم) ، وإنما

٢-

قلوب^٤

وقوله :

^١أصل نفس والخميد . من كتابه حديث الأرحاء ٣٤/٣

^٢ترجم لسان ٣٠٣

^٣مفاتيح أسرار أي . من كتابه حديث الأرحاء ١٢٠/٢٢

^٤أصل تصدق حة لإسراء من كتابه لغوي لإسراء ص ١٣

^٥استشرق من تصدق ٣٠٠٤

^٦مفاتيح أسرار . حديث الأرحاء ٣٤/٣

- اللغة ليست من وحى السماء، وإنما هي ظاهرة من ظواهر الاجتماع الإنساني^(١).

٢٠

ومما يلاحظ في التعميد بالإحكام أن النص الحجاجي العربي يعول إلى الإحكام بالتوضيح والإحكام بالمرض مهلاً أقوى، وإن كان مهله إلى الإحكام بالتوضيح هو الأقوى على الإطلاق.
(ب) وأما التعميد بالإطالة، فترى له أيضاً نماذج مختلفة من صورته: الإطالة بالإضافة، والإطالة بالتنوع.

(أولاً) من الإطالة بالإضافة: قول مصطفي محمود:

- الابن يقتل اماء، والام تقتل ابنها^(٢).

٢٠

والإطالة بالإضافة نمط بارز جداً عند مصطفي محمود بوجه خاص.

(ثانياً) ومن الإطالة بالتنوع: قول محمد زكي عبد القادر:

- من الألم ينبع كل شيء عظيم، ولكن ليس كل ألم ينبع منه شيء عظيم^(٣).

٢٠

يمر عن الصورة السابقة من الإطالة بالتنوع هكذا:

س ولكن ليس كل س: أي هي إطالة باستثناء شيء ما من العنصر السابق.

ومن الإطالة بالتنوع أيضاً قول إخوان الصفا:

- لم يصف الله إلى نبوة محمد الملك لرغبته في الدنيا،

١

ولكن أراد الله أن يجمع لأمته الدين والدنيا جميعاً^(٤).

٢٠

(١) المرجع نفسه ٣٣، ٣٤

(٢) مقال "شجرة الألم" من كتاب "كلية شعر" ص ١٥

(٣) مقال "عسر الحظ" ص ٣٣

(٤) المرجع نفسه ص ٣٣

ويصبر عن هذه الصورة هكذا: نيس من ولكن ص.
(ج) وأما التمديد بالتمظيم، فنرى له في نصوصنا الحجاجية المختارة
سورا عدة، من أهمها ما يلي:

(أولاً) التمظيم بالإشارة إلى الزمان، ومنه قول إخوان الصفا:
- أقام النبي بمكة نحواً من اثنتي عشرة سنة،

ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة (١)

٣*

وتسمى هذه الصورة بالتمظيم الزماني المتقدم: أي: أ قبل ب.
(ثانياً) التمظيم بالطريقة، ومنه قول إخوان الصفا أيضاً:
- كان يوسف الصديق من الزاهدين في الدنيا،

ومكثاً كان داود (عليه السلام) وسليمان (عليه السلام) (٢)

٣*

ما سبق يمثل التوازي في علاقة التمديد بالتمظيم في هيئة الطريقة من
نوع الثاني وهو المقارنة. وهكذا فيما سبق نمنى: «بهذه الطريقة»، ويقصد
بها في هذه البنية من بنى التوازي المقارنة. هذه العلاقة نراها شائعة شبيهاً
خاصاً في نصوص إخوان الصفا.

(ثالثاً) التمظيم في هيئة العلاقة: سبب ← اثر، ومنه قول طه حسين:
- كان القدماء صادقين حين يكتبون، ومن هنا فهمنا القدماء (٣)

٣*

نبرهن نصوص الدراسة على أن طه حسين أكثر الحجاجيين اعتماداً
شرفه العلاقة.

(٢) علاقة التضمين:

كان الاعتماد الرئيس في بنية التوازي بالنصوص الحجاجية التي بين

أبدينا على علاقة التمديد. أما حالات التصميم، فمعددها يمدد حالات مقول القول، سواء أكانت لصاحب النص أم لغيره. وهي قليلة جداً إذا قورنت بعلاقة التمديد.

من التصميم بالقول قول إخوان الصفا :

- قال أزدشير: إن الملك والدين أخوان توأمان^(١).

٢٥

١

ومنه قول الكندي :

- قال (صاحبنا لبني تغلب): إني والله كنت أجرى ما جرى هذا النبل^(٢).

٢٥

١

ومن التصميم بالمشكرة قول طه حسين :

- قدرته في نفسي (شيئاً آخر): لو أن للراضي حظاً من الإنصاف ..^(٣).

٢٥

١

ومما تجدر الإشارة إليه هنا ندرة التصميم بالمشكرة في النصوص الحجاجية العربية ندرة بالغة .

التوازي بالمفهوم الاصطلاحي عند هاليداي بنية تركيبية أثيرة في خطاب الحجاج العربي. في هذا الخطاب تعد تلك البنية استراتيجية مهمة من استراتيجيات الإقناع بوجهة النظر. فضلاً عن تقاطع بنية التوازي أحياناً مع بنية التكرير المضموني، على نحو ما يمكن أن نرى في بعض نماذج طرائق التمديد: كقول الكندي: «فاحذروهم ... ولا تأمنوهم»، أو قول طه حسين: «الثورة عرض والانحطاط عرض، كلاهما يزول»، نرى كذلك إطناباً قصد به الإقناع في بعض حالات التمديد بالمرض والشرح والتوضيح. وعندما يقول محمد زكي عبدالقادر مثلاً: «من الألم ينبع كل شيء عظيم ... ولكن ليس كل ألم ...»، فإنه يستعين بالنسق: س ولكن ليس كل س، على إقناع القارئ بمصداقيته: الكاتب يظهر استقصاءه الذي لا يشك في دقته، إذن

(١) رسالة إخوان الصفا ١/ ٣٢

(٢) حنبل، ص ٢٩

(٣) مقال: أحسن شيء من كتابه: حديث الأربعاء، ٣/ ١٢٥

ومهما يكن من أمر، فإن استقراء نصوص الدراسة من حيث الاعتبارات المختلفة التي توفر للمباراة المزدوجة توازنا، يدلنا على إمكان تصنيف التوازن في أنواع ثمانية، يمرضها الجدول التالي (الملاحة + تعني توهر الخاصة) :

الاتفاق في الفاصلة	الاتفاق في الترتيب	الاتفاق في الزنة	
		ناقص	تام
+	+		+
	+	+	
	+	+	
	+		+
	+	+	

وفيما يلي تفصيل تلك الأنواع :

(النوع الأول) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق التام في زنة الوحدات وعددها وهيئة ترتيبها، وفي الفاصلة: ومن ذلك قول الكندي في سياق تبريره دعواه: «اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوانئه، وعن باكورات الفاصحة ! فإن للنفس عند كحل طارف نزوة وعند كحل هاجم بدوة»^(١).

(النوع الثاني) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في زنة وحدانها اتفاقا ناقصا، فضلا عن الاتفاق في الترتيب والفاصلة: ومن ذلك قول الإخشيدي مخاطبا أرماتوس: «والذي تجشمته من مكاتبنا إن كان كعما وصفته، فهو أمر سهل يسير، لأمر عظيم خطير»^(٢).

(النوع الثالث) التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في الترتيب والفاصلة دون زنة الوحدات: ومن ذلك قول العقاد: «كأنك تسمع أكثر الأصوات لتوع ثبرات، وتقاوت مقاماته»^(٣).

(١) حلاص ص ٤٠

(٢) مهرة رسائل العرب ١/١٦٦

(٣) مقال العزل الطبيعي، ص ١١٥ - حصر ص ٩٥

الحسن الذي يكرر فيه بعض الوحدات مع تقوية فعل نهاية الجرس. من ذلك مثلا قول طه حسين في سياق تدعيم تبريره: «ولئن أنصم ليمسوا أهل الناس استمتاعا بلذات الحياة، وليمسوا أهل الناس استنشاقا لما فيها من بضع»¹¹.
 مما يلاحظ هنا أن الأنواع المانحة من 1 - 2 أكثر وقوعا في النص الصحاحي العربي القديم منه في النص الصحاحي الحديث يرتبط هذا بالطبع بسمات النسق السكتاني العامة أو الغالبة بين شكلتا العهدين. ويلاحظ - من ناحية أخرى - أن الأنواع من 1 - 8 أكثر من سابقاتها وقوعا في النصوص الصحاحية العربية بعامة، وإن كان النص الصحاحي العربي الحديث يبدى باحتمالها ميلا أقوى.

ينبغي الإشارة أيضا إلى أن نصوص الصحاح الحديثة تتفاوت فيما بينها استثناء بنية الأزواج. يقل الأزواج عند المقاد، ويندر عند المازني وخالد، محمد خالد ومحمد زكي عبد القادر ومصطفى محمود. ولغته أكثر من ذلك وقوعا في سورة الأربعة الأخيرة مما سبق عند طه حسين. وإذا نظرنا إلى الأزواج من منظور الوحدة التركيبية التي يقع فيها، فكان يتكرر أزواجا بين عبارات من جملة واحدة، أو أزواجا بين جملة ثالثة بدواتها، لرأينا طه حسين أكثر ميلا إلى استخدام الأزواج بين الجملة وإذا فارقنا بين نصوص اثنين من القدماء هما السخندى والإشعبد (الذي يعكس له شكله في رسالته في رسالة إلى أرماتوس طراز المصير في الاستجابة الصحاحية) والشين من الحديث فما طه حسين والمقاد. لرأينا أن الأزواج في النصوص الصحاحية القديمة يتعاد بعموم نسبة بين وقوعه في العبارات ووقوعه في الجملة. ولحسن الحظ في النصوص الصحاحية الحديثة تبدو للأزواج بين جملة ثالثة، والحدوث الإحصائي التالي يبين ذلك:

بين جملة ثالثة	بين عبارات من جملة	طه حسين المقاد
٪٧١,٤	٪١٨,٦	
٪٨٣,٣	٪١٦,٦	

من الناحية الدلالية، تتقاطع حالات التوازن مع حالات منتظمها تكرير الضمون أو التقابل أو التخالف. تجمع الجملتان: اخارت عزائمها ومارت دعائمها في كلام المقاد بين التوازن والتكرير المضموني. ويجمع الجزآن في جملتين: فمدحتهم من مدح صنوف الخطا، وذممتهم من جمع صنوف الصواب، في كلام الكندي بين التوازن والمقابلة. وتجمع الجملتان: يقرؤون مثل هذا لشر ويحتلمون مثل هذا المنكره في كلام طه حسين بين التوازن والمخالفة في النص.

ومما ينبني الإشارة إليه هنا أن حالات تقاطع التوازن بالتكرير المضموني يمثل ما يقرب من ثلاثة أرباع حالات تقاطعه مع العلاقات الدلالية الأخرى بين الأجزاء المتوازنة. وهذه مسألة مهمة للغاية لكل من التوازن والتكرير المضموني. نحن أمام مثل هذا القدر من العبارات والجمل المتوازنة على مستوى الشكل والمترادفة أو شبه المترادفة على مستوى المضمون. وهذه هي المنطقة المركزية الأهم التي تتفاعل فيها البنية والدلالة وتشتغلان مما في النص الحجاجي العربي وقد تهيأت له مكوناته الحجاجية المختلفة قصداً إلى تشبيث تسيير أو إقناع الخصم والمخاطب بعامة بصدق دعوى الحجاج.

إذا كان التوازي - بمفهومه الاصطلاحي الذي رأيناه آنفاً - بنية تركيبية تربط بين عنصرها علاقات دلالية منطقية، فإن التوازن على نحو ما نرى بنية تركيبية تربط بين عنصرها علاقات سمعية من طول وزنة وفاصلة تحس فكراً مرتباً منزناً مقنناً.

والحق أن بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين قد خلطوا خطأً دليماً بين التوازي والتوازن. أولى بما ذكره عدنان جبوري وباربرا جونسون سكوتش من حالات للتوازي أن تعد من حالات التوازن:

حلل عدنان جبوري نصاً حجاجياً لمصطفى أمين في عموده الذي كان مدوفاً تحت عنوان «فكيرة». من أمثلة جبوري على التوازي في هذا النص قول مصطفى أمين: «وكفه من أحزاب حكمت ثم حوكت». وتولت ثم اندثرت. وترسعت ثم سقطت».

وحللت نابيرا جونستون عددًا من النصوص الحجاجية تقع في النصف الثاني من القرن العشرين. من أمثلة نابيرا على التوازي الصان التاليان (١) وظل الألمان منقسمين بين عشرات الدول والدويلات المستقلة، وظل انطليان موزعين على شمالي وحدات سياسية، والبولونيون مقسومين بين ثلاث دول قوية، واليوغوسلافيون خاضعين إلى حكم دولتين عظيمتين.

وتسمى نابيرا هذا النوع باسم التوازي الكاشف Listing parallelism، وهو - كما تقول - نوع من التوازي الضيق المحكم بين عبارات كاملة، تتميز بأنها أجزاء من النص، تكشف عن أمثلة وتفاصيل.

(٢) «سكان من الطبيعي أن تنشأ الفكرة القومية، وتترعرع وتقوي بسرعة كبيرة في البلاد الألمانية بعد النكبات التي توالى عليها خلال تلك الحروب. وسكان من الطبيعي أن ينتشر فيه الإيمان بوحدة الأمة الألمانية. وسكان من الطبيعي أن يدفع هذا الإيمان مضكري ألمانيا وساستها إلى مكافحة النزعات الإقليمية بكل قوة وحماسة».

وتسمى هذا النوع باسم التوازي التراكمي Cumulative parallelism، وتعرفه بأنه نوع من التوازي غير التام على نحو ما كان في المثال الأول. وهو تراكمي لأن العناصر الثلاثة «سكان من الطبيعي» من نوع التأثير التراكمي؛ وذلك أن كل عنصر يبنى على المنصر الذي يسبقه^(١).

نرى أن حالات التوازي عند هذين الباحثين ينبغي لها أن تدرج في حالات التوازن. هي ليست من التوازي بمفهومه الاصطلاحي في شيء، إلا إذا التمسنا لها وجهًا من كلام القدماء. أورد أبو هلال العسكري أمثلة عدة على المزدوج من كلام الأعراب، حوفظ فيها غالبًا على الطول والترتيب والفاصلة، ثم علق عليها قائلاً: «فهذه الفصول متوازية لا زيادة في بعض أجزائها على بعض بل في القليل منها، وقليل ذلك مفتقر لا يمتد به»^(٢). قصد بالتوازي هنا - فيما يفهم السياق - سوق كل جزء بإزاء الآخر وعلى شاكلته في الطول والفصل والترتيب، ولكننا الآن. وقد صار التوازي يعني في المفهوم الاصطلاحي شيئاً

(١) Koch, Barbara. Johnstone Presentation a Ph.D. ٥٧. ٥١. ٦ 5٧

أخر صفتنا، لا نرى للخلط بينهما وتسمية أحدهما باسم الآخر وجها سائفا.
 ونرى عكس جهود ويلبريا، فهتت شيرلي أوستلر Schirley Ostler
 تتوزن على حقيقتها من الناحية النحوية، تبدو العربية - وفقا لشيرلي -
 صاعدة من أجل تحقيق التوازن Balance، على معنى التوافق الإيقاعي بين
 عناصر مترانسة وهي ترى هذا التوافق (أو السيمتريّة) على مستوى نظم
 الكلمة، وبه تساوي عدد الوحدات المصمّية بين الجمل والمبارات¹¹.



الفصل الرابع
تعديل القوة الإنجازية
دراسة في التحليل التداولي للخطاب

١- توطئة :

على رغم تواصل الخطب النقدي العربي المعاصر مع نظريات النقد الأدبي في الغرب الأوروبي والأمريكسي تواصلًا حارًا، تبدى في محاولات عدة للإفادة من مبادئ الاتجاهات الشكلانية والبنوية والأسلوبية والسيميائية والشعرية وغيرها من الاتجاهات ذات الأصول اللسانية في مجالات النقد النظري والتطبيقي. فإن التداولية Pragmatics باتجاهاتها المختلفة ما زالت على هامش النقد العربي، في الوقت الذي تبدو فيه تحولاً كبيراً في مسيرة النظرية الأدبية المعاصرة، يقترب يوماً بعد يوم من مركز الاهتمام في نظريات الخطاب والتأويل الأدبي. قامت اللسانيات التداولية على تحليل مقاميات الخطاب ومقاصده؛ إذ عنيت بدراسة معاني المنطوقات في علاقتها بالمنكلم، ودراسة الاستلزام الحوارية، ودراسة كفاءته ككون الاتصال شيئاً أوسع من مجرد القول، ودراسة الشروط التي تجعل المنطوقات مناسبة وناجحة إنجازياً، ودراسة العلاقة بين أعمال الكلام وسياقاتها غير اللغوية. نهضت اللسانيات التداولية على مكونات ثلاثة: فضلاً عن تحليل الحادثات، وتحليل الفروق الحضارية والتفاعلات اللغوية من منظور العلوم الاجتماعية، نهضت اللسانيات التداولية على فلسفة اللغة، وعلى تداولية أعمال الكلام بوجه خاص. إذا كانت نظرية تحليل الخطاب ونظرية التأويل الأدبي ركيزتين قويتين في النظرية الأدبية المعاصرة، فقد كانت تداولية أعمال الكلام من أهم الدعائم اللسانية التي ساعدت هاتين النظريتين على النمو والازدهار.

لقد أتاحت تداولية أعمال الكلام لتحليل الخطاب منهجية لسانية جديدة، من حيث إنها نظرت إلى الكلام الأدبي وغير الأدبي بوصفه "فعلًا لغويًا" Speech Act، يدل عليه قصد المنكلم، ومن حيث إنها برهنت على أن إدراك المعاني الحقيقية للمنطوقات اللغوية إنما يتحقق في سياقات الاتصال الفعلية. من ثم أفضحت أدبيات النظرية الأدبية المعاصرة المنيرة مجالاً واسعاً للتعريف بتداولية أعمال الكلام وتكبييف بعض مفاهيمها لأهداف التحليل الأولى الخاصة، ورأتها ضرورية لاكتمال دائرة فهم المنطوقات والنصوص مرتبطة بوظائفها وسياقاتها الحقيقية. لقد عولت دراسات سيميائية عدة على

منهجية تداولية أفعال الكلام، من أهمها سيمياء المسرح والدراما ١٩٨٠ -
 الذي أفاد فيه كبير إيلام Keir Elam من بعض الأسس المنهجية التي قامت
 عليها تداولية أفعال الكلام. انتهى إيلام إلى أن قدرة اللغة الاجتماعية
 والتواصلية والأدائية - أو تداولية فعل الأشياء بالكلمات هي التي تسيطر في
 الدراما: وذلك أن الخطاب الدرامي كناية عن شبكة من الأقوال والأفعال
 الإيجازية، وهذا يعني أن التفاعل اللغوي ليس تفاعلاً وصفيماً بقدر ما هو
 أدائي وأن الحوار ضرب من الفعل الذي يؤدي إلى تضارب قوى العالم الدرامي
 الشخصية والاجتماعية والأخلاقية^{١١} ومن أهم ما عني به إيلام كذلك هو
 بيان كيفية انبثاق الصراع الدرامي من خلال تصادم استراتيجيات الأفعال
 اللفظية Locutionary Acts باستراتيجيات الأفعال الإيجازية Illocutionary Acts^{١٢}

كان ديتر فوندرليش Dieter Wunderlich قد عني ببيان ما تقدمه
 تصويص - أو مقاطع منها - من مساعدة في تحديد الأفعال الكلامية
 تفصيلاً. يرى فوندرليش أن الفعل الكلامي يمكن أن يشغل وظائف عدة في
 وقت واحد. يمكن المصطوق أن يكون إقراراً من الناحية الدلالية وفقاً
 لشروط اتساح المحددة للمصطوق) ولكنه من الناحية التداولية (أي وفقاً
 لوظيفته في الخطاب) استتكار شرح فوندرليش هذه الفكرة من خلال
 حوار التالي:

- ١- الأم: كلاوس! ألا تأتي إلي؟
 الابن: لماذا؟
 الأم: أم، ما رلت هناك، لتناولني الوسادة!
 الأم: عندما تفرغ مما بيدك، تعال إلي، نعم.
 الابن: لماذا؟
 الأم: لتنظف أسناننا.
 الابن: لماذا؟ هذا ما يفعله أبي لي.
 الأم: نعم، يفعله

^{١١} Keir Elam, *Visual Pleasure and Narrative Cinema*, London: Methuen, 1984, p. 100.
^{١٢} Keir Elam, *Visual Pleasure and Narrative Cinema*, London: Methuen, 1984, p. 100.

- ١٠- الأثر: أي: الخطب في السبب.
- ١١- الأثر: تستطيع أن تفهم عدد وحدات
- ١٢- الأثر: لا. عمل هذا في
- ١٣- الأثر: طيباً.
- ١٤- الأثر: تعال يا سي.

لاحظ فوندرليش أن المنطوق رقم ٧ في العبارة السابقة يمد من الناحية التداولية إثباتاً أو إقراراً ونكته رفض أو استنكار من الناحية الاتصالية التداولية^(١)

وفي كتابه المعروف "النص والسياق" ١٩٨٠^(٢) عني فان دايلك Van Dijk بتطوير تداولية أفعال الكلام عن طريق توجيهها من مجال الجملة (أو شطوق) عند مؤسسها جون أوستين John Austin إلى طريق النص. وكان من أهم ما صنعه في ذلك الكتاب تحليله ما أسماه "أفعال الكلام الكبرى Marco-Speech Act" الفعل الكلامي الأكبر عند فان دايلك هو فعل الكلام الإجمالي الذي يؤديه منطوق الخطاب الكلي والذي تجرزه سلسلة من أفعال الكلام المختلفة. انتهى فان دايلك هنا إلى أن سلسلة الأفعال الكلامية تقسم بأنها فعل كلامي واحد. إذا كانت تشير إلى مقصد إجمالي واحد. ويمكن لهذا الفعل الكلامي - على مستوى أعلى - أن يكون بدوره شرطاً أو نتيجة لأفعال كلامية أخرى^(٣). أطلق فان دايلك على أفعال الكلام المفردة (أو البنية الطولية لسلاسل أفعال الكلام) اسم "التداولية الصغرى"، وأطلق على دراسة التنظيم الكلي للتفاعل الاتصالي: أي التنظيم الكلي لمتواليات الأفعال الكلامية والسياقات وعلاقتها ببنية الخطاب، اسم "التداولية الكبرى". الفعل الكلامي الذي تؤديه متوالية من الأفعال الكلامية هو إذن فعل كلامي إجمالي Global Speech Act أو فعل كلامي أكبر Marco-Speech Act تقسم متوالية الأفعال الكلامية فيما يلي مثلاً بأنها فعل إجمالي واحد هو

(١) Wunderlich, Dieter: Was ist das für ein Sprechakt? In Günther Grewendt (Hrsg.) Sprechaktheorie und Semantik Suhrkamp Verlag Frankfurt (1979) S. 275-374, SS.290-291

(٢) Van Dijk, Teun A. Text and Context: Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse Longman, London and New York, (1960), P.277

- بعد تولد يتأمل ما رسمه ولده الصغيراً
- ونكس هذا رسمه خراباً على أنت الذي رسم هذا؟
- تطبيع، أنا ندي رسمه
- مثال، حبه نكسني أرى أنك بحاجة إلى ألوان أكثر
- نعم، كعاد الأرق أن يعد
- إبن ساشوري لك بعض الألوان الجديدة
- لا تسها ثانية.
- كلاهما أنساها أبدأ

يوجد من ذلك أن هذه الحادثة قد اشتملت على أفعال كلامية عدة
كفردج والسؤال والتصريح والاقتراح والتوكيد والعدد، ولكن التوضيح
الإجمالية هي الوعد، وربما كانت الوعد في شأه

أهم بكثير من محلي الخطاب في توظيف تدولية أفعال الكلام في
معال خطاب محددة. وضع ميخائيل ستوبس Michael Stubbs يدرس
سوء أفعال الكلام لتعاطية Cooperative Speech Act. وقد أضاف
مستنداً أن أكثر من ستطعم بين ستوبس أن محادثات شبي - مصر
عمر ستك لأفعال جديديه شبي جسد في مجموعته في علم الاجتماع
أحبه ويررد حل الخطاب ذاته

في كتابه المعروف النظرية الأدبية 1997 يورد جوناثان كوفور
Jonathan Koffor مقالاً كصلاً مفهوم "المنحرفات الأدبية" Performatives
كقولك كيف رجحت النظرية الأدبية المعاصرة بذلك المعهود، وكيف أمثل عد
كأن نظرية الأدبية بوصفها شيئاً يساعد على تغيير عناصر حديث
كسي وكيف أعدد النظرون ضويلاً أنه يجب أن يعرف كيف تعلمه كذا
كيف تعلمه كيف تعلمه بين وجود كذا من الأدبية وكلمة الأدبية
وكيف تعلم كذا أدبية لغة أدبية وكيف تستخدم الأدبية على
كلمة كذا بوصفه كعدلاً أو حديثاً، وأن تصار الأدب بوصفه كصلاً

تدبر بأنواع من الأدب اللغوي ليس مفردات راسخة وإنما هي وتلكم
 بعد ما قد بين عمل لغة شعر حول اللغة حائقة لاتباعه حتى تتسببا
 مع تطور موقعية نفس على خريطة نظرية لادبية لغوية، والنظر إلى
 نفس في نظريات النص والتأويل بوصفه - كما يقول راسل حكومي
 Russell Jackson - منتج لشكك بين نص وفارق أو مجموعة من القراء .
 مصدر
 لتسبب التداولي بعامة وتداولية أعمال الكلام بحاصة دور مهم في منهجية
 التأويل وفلسفته العامة. عيمد يسمى بتداولية التأويل Pragmatics of Interpretation
 ضربت حدود تداوليه في حقل نظرية الاستقبال الأثنائية Rezeptionstheorie
 ممثلة في مدرسة كوستانس عند باوس وإيبرز، تلك النظرية التي تعاملت مع
 موضوع التأويل الأدبي، وهتمت التأويل داخل نموذج اتصالي تداولي، وسلمت
 مرحميت تشارلز موريس Ch Morris - وهو من جعل للتداولية معناها
 معروف - والتي سلمت بتحليلات جون أوستن.

سواء على ما تقدم، تأمل هذه الدراسة - من منطلق الاقتناع بأن كل
 تطور في النظرية اللسانية يؤدي بالضرورة إلى تطور في النظرية الأدبية مساو
 له في قوة والاتجاه - تأمل في أن تكون فاتحة اتصال بتداولية أطفال
 لكلام وتطبيقها على العربية من خلال أحد مفاهيمها المركزية الفاعلة في
 حقل تحليل الخطاب، وهو مفهوم تعديل القوة الإنجازية Modifying
 Illocutionary Force، الذي أراه جديراً بأن تفتح له دراساتنا اللسانية والأدبية
 أبواب الاهتمام والرعاية.

٢- القوة الإنجازية :

وضع الفيلسوف اللغوي البريطاني جون أوستن John Austin (1911-
 1960) دعائم نظرية أعمال الكلام بكتابه الذي صدر في عام 1962م: أي بعد
 وفاته بعامين كان أوستن قد جعل الفعل الكلامي Speech Act أنواعاً
 ثلاثة الفعل اللفظي Locutionary Act، والفعل الإنجازي Illocutionary Act،

جون أوستن: أساس من حجة أدبية، ترجمة مصطفى سوري، منشور في دار الفكر للطباعة والنشر
 في بيروت، 1960، ص 10-11
 أوستن: أساس من حجة أدبية، ترجمة مصطفى سوري، منشور في دار الفكر للطباعة والنشر
 في بيروت، 1960، ص 10-11

نفس التأثيري Perlocutionary Act في المنطوق: أعرض عن الجاهلين مثلاً،
 رد فعل اللفظي في الفعل الصوتي، وفي فعل التلفظ بمفردات تنتمي إلى
 محم بعينه وتخضع لقواعد بعينها في اللغة، وفي فعل استعمال تلك المفردات
 يتواءم لإبلاغ معنى ينتج عن المفهوم Sense والمرجع Reference في أن معاً. أما
 فعل الإنجازي، فهو: أمرني (أو نصحني أو نحو ذلك) أن أعرض عن
 جاهلين. وأما الفعل التأثيري، فهو ما ينتج عن الفعل الإنجازي من إقناع
 مخاطب بأن يعرض: أي: أقتمني - مثلاً - بأن أعرض عن الجاهلين⁽¹⁾.

من ناحية أخرى، جعل أوستين المنطوقات اللفوية نوعين: الأدائيات
 Performances والتبليغات Statements. الأدائيات منطوقات تؤدي أفعالاً كالكود
 وتحذير والأمر... إلخ. والتبليغات منطوقات تعرض أقوالاً كالإثبات والتقرير
 والإعلان... إلخ. للمنطوقات الأدائية بدورها نوعان: منطوقات أدائية أولية (أو
 صبة)، وهي التي تخلو من الأفعال الأدائية في اللغة (كالممنطوق السابق:
 أعرض عن الجاهلين). ومنطوقات أدائية ثانوية (أو صريحة) وهي التي
 تنقل على فعل أدائي في صيغة المضارع المبني للمعلوم المسند إلى المفرد
 نكته كقولك: "أمرك أن تعرض عن الجاهلين". والأفعال الأدائية في
 اللغة لا حصر لها، منها مثلاً: وعد، أئذر، أكيد، شكر، أوصي... إلخ.

ما يعنينا هنا الآن هو الإشارة إلى أن الفعل الإنجازي هو الشاغل الأهم في
 تداولية أفعال الكلام منذ تأسيسها حتى الآن. عندما رغب جون سيرل John
 Searle - خليفة أوستين وأحد رواد هذه النظرية البارزين - في تعريف الفعل
 الكلامي، أشار إلى أن بحثه (ما الفعل الكلامي؟) (What is a speech Act?)
 ينبغي له أن يسمى (ما الفعل الإنجازي؟)⁽²⁾.

يرى سيرل أيضاً أن الفعل الكلامي من النوع المسمى بالفعل الإنجازي
 هو وحدة الاتصال الإنساني باللغة⁽³⁾. وكذلك الرأي عند دانيال فاندرهيفكن

1- مؤيد صبر، وأبو

Austin, John. How to do Things with Words. Oxford: Uni. Press (1962). PP. 107-108.

(2) Searle, John. 'What is a Speech Act?' In Pier Paolo Gighiol (ed.) Language and Social Context. Penguin Books, London (1990). PP. 146-154. P. 146.

(3) Searle, John. Expression and Meaning. Studies in the Theory of Speech. Cambridge: Uni. Press (1969). P. 175.

Daniet Vanderveken منضمعل لأنجاري - في رأيه - هو الوحدة الأولية لمص
الحمنة، وهو وحدة أولية للاتصال

حقيقة الأمر إن أن تداولية أفعال الكلام هي تداولية الفعل الكلامي
الإنجاري. بالفعل الكلامي الإنجاري يؤدي أفعالاً لغوية كالإخبار وتوجيه
الأسئلة وإعطاء الأوامر وعمل الوعود والاعتذارات إلخ شكل من الأفعال
اللغوية السابقة كالإخبار والطلب ونحوهما يسمى باسم الفرض الإنجاري
Illoc Purpose أو المقصد الإنجاري Illoc Point وكل فعل إنجاري له محتوى
قضيوي Propositional Content عبارة عن القضية التي يعبر عنها ذلك الفعل في
كتابه (أفعال الكلام Speech Acts ١٩٦٩) يذكر جون سيرل أن المحتوى
القضيوي قاسم مشترك بين أفعال إنجارية مختلفة في أشكالها ووظائفها مثل:

- هل يترك س الفرقة؟ (سؤال).
 - س سيترك الفرقة. (إخبار).
 - س اترك الفرقة (أمر).... إلخ^(١).
- المحتوي القضيوي سمة مشتركة بين المنطوقات الثلاثة السابقة: وهو أن
يترك س الفرقة.

ما يعنينا هنا - بعد تلك التمهيدات - هو بيان مفهوم القوة الإنجارية،
وعلاقة القوة الإنجارية بالمقصد والسياق، والفرق بين القوة الإنجارية والفرض
الإنجاري، وعلامات القوة الإنجارية، ونسبية القوة الإنجارية. لا يمكن بحث
مشكل "تمديد القوة الإنجارية"، وهو موضوع هذه الدراسة الرئيس، إلا
ببيان المفاهيم والفرق والعلاقات السابقة.

(١) مفهوم القوة :

قوة المنطوق الإنجارية جزء من نيته الدلالية منذ أوائل الثمانينات وكانت
قوة المنطوق هدفاً لهجوم عنيف متزايد قاده أصحاب نظرية تحليل الخطاب
سكانت حجبتهم أن معظم المنطوقات لا يمكن أن تدرك حقيقتها إدراكاً

(١) Vanderveken, Daniel Meaning and Speech Acts Vol.1 Principles of Language
Use Cambridge Uta Press (1990) P 7.

(٢) Searle, John: Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language Cambridge
Uta Press Cambridge-New York (1969) pp 141 142

مفهوم التيسر: وذلك لأن لكل منطوق ملاسبات استعمال مختلفة. قولك مثلاً: "رصاصه ما زالت في جيبي" يمكن أن يكون إخباراً بحقيقة، ولكنه يمكن - في سياق مناسب - أن يكون تحذيراً أو تهديداً. عولجت هذه المسألة في تداولية أعمال الكلام، ولكنها كانت معالجة تنبئية شجعت على الهجوم والانتقاد.

على أي حال، فإن قراءة أدبيات تداولية أعمال الكلام تدلنا على أن عمل الكلامي يمتلك أغراضاً إنجازية متباينة بتباين ملاسبات استعماله. يربط عرض الطلب الإنجازي قوى تعبيرية عدة، تمتد من الأمر المباشر حتى تنهي أضرب مثالا على ذلك ما حكاه أبو عثمان بن بحر الجاحظ سنة ٢٤٤هـ في كتابه المعروف (البخلاء) قائلاً: "وحدثني عمرو بن نهيو قال: نبت يوماً عند الكندي، فدخل عليه رجل كان له جارا، وكان من أبخل من الله! قال: فاستحييت منه، فقلت: سبحان الله! لو دنوت، فأصبت معنا من ناكل! قال: قد والله فقلت! فقال الكندي: ما بعد الله شراً!"^(١). في نحو السابق، نرى أن المنطوق:

- لو دنوت، فأصبت معنا مما ناكل!
- يمكن أن يعرض محتواه القضوي بقوى إنجازية عدة، نحو:
- ابن، فأصب معنا مما ناكل!
- هل دنوت، فتصيب معنا مما ناكل؟
- ألا دنوت، فتصيب معنا مما ناكل؟
- لو دنوت، فأصبت معنا مما ناكل!

تختلف هذه الأفعال الكلامية الإنجازية الأربعة في القوة التي يعرض بها يربط إنجازي واحد، هو الطلب عرض الأول بقوة الأمر، وعرض الثاني بقوة التضرع والدعوة، وعرض الثالث بقوة المرض، وعرض الرابع بقوة التمني. ثم هذا أن القوة الإنجازية خاصة المنطوقات لا الجمل؛ فالمنطوق الواحد يمكن أن يمتلك قوى إنجازية مختلفة، في ملاسبات استعمال مختلفة. القوة

معلم فرج: دراسة في المنطق العربي للمعلم. ص ٢٣

الإنجازية إذن هي الشدة أو الضعف اللذان يمكن أن يعرض بأحدهما معرض إنجازي واحد. في سياق بعينه من سياقات استعمال المنطوق.

(ب) القوة والمقصد والسياق :

إذا كان الأمر ينتمي إلى أحد الأغراض الإنجازية الكبرى: وهو الغرض الإنجازي التوجيهي *directional illocutionary point*، فإنه - كما رأينا آنفاً - يتوزع إلى أغراض إنجازية فرعية، تمسك باختلافاً في القوى الإنجازية، بين غرض فرعي وآخر. وفقاً للمقصد والسياق.

كان أوستين جعل لمقصد المتكلم أهمية كبرى، ورغب بعض مطلبي الخطاب - مثل سالكس *Sacks* وزملائه - في أن يبرهنوا على أن قوة المنطوق الإنجازية، هي ما يمدد إليه المستمع، لا ما يقصد إليه المتكلم؛ وذلك أحداً من المستمعين أو مطلبي الخطاب، لا يمكنه أبداً أن يتأكد من مقصد المتكلم؛ لأنه لا يقبل الفحص. أما تفسير المستمع، فإنه يتجلى في استجابته، وهذا ما يحدد تقدم التفاعل اللغوي أو نجاحه⁽¹⁾. غني عن البيان أن فكرة تفسير المستمع واستجابته قد صار لها الآن امتدادات قوية في نظرية التاويل الأدبي.

في تداولية أفعال الكلام كان توليد قوة المنطوق الإنجازية مظهراً من مظاهر الاختلاف بين اثنين من مؤسسيها وهما: أوستين وسيرل. يرى أوستين أن قوة المنطوق الإنجازية تحقق لمقصد المتكلم تحقيقاً ناجحاً، ولكن سيرل يرى أن القوة حاصل تفسير المستمع للمنطوق.

يرتبط مقصد المتكلم بالسياق. يوضح السياق ما يفعله المتكلم على نحو أفضل؛ أي إن كان يريد بمنطوقه التهديد أو التحذير أو نحوهما. ومن الضروري أن يكون السياق - كما يقول هولدمكروف *Holdcroft* - على النحو الذي يراه فيه المتكلم؛ فمثلاً ينبغي للمتكلم أن يكون في موقع السلطة حتى يصبح منطوقه طلباً حقيقياً. وينبغي له أن يمتلك موقع الملاحظة حتى يصبح منطوقه تليفاً حقيقياً.... وهكذا⁽²⁾. يستتبع من ذلك أن دراسة

(1) Coulter, Malcolm: An Introduction to Discourse Analysis Longman Group Ltd 6th Impression (1983) P.20

(2) Holdcroft, David Words and Deed: Problems in the Theory of Speech Act Clarendon Press: Oxford (1978) P.157

فعل الكلام ينبنى لها أن تكون عملاً لغوياً اجتماعياً؛ وذلك أن هناك دائماً صلة وثيقة بين الفعل الكلامي ودور المتكلم الاجتماعي. وهذا يدعونا بدوره إلى القول بأن تفسير كل من الفرض والقوة الإنجازيتين تفسيراً صحيحاً، يند على صفة المنطوق اللغوية وعلى فهم الشبكة الاجتماعية في آن معاً.

من الإشكاليات المركزية في تداولية أفعال الكلام إشكالية "أفعال كلام غير المباشرة Indirect Speech Acts". جوهر هذه الإشكالية المسافة بين القول والمقصد وطبقات المعنى الممتدة، بين معنى قضوي حريه Literal Propositional Meaning والفعل الذي ينجزه المتكلم في السياق. المتكلم لا يقول ما يمني في كل مناسبات المنطوق على نحو مباشر. إذا كانت الأفعال الإنجازية الإعلانية والاستهامية والأمرية تستعمل عادة -على الترتيب- تبليغ والسؤال والطلب، فإن هذا لا يمني وجود تناظر كلي بين الفعل ووظيفته. مثال ذلك أن الفعل الإنجازي الإعلاني: "أنت آت غداً"، يمكن -إذ لم يتبد السياق الخاص: اللغوي وغير اللغوي - يمكن أن يفسر بأنه: "أنت آت غداً"، أو استهامة: "أنت آت غداً؟" أو طلب: "أنت آت غداً".

وإذا كان العرف اعتباراً تداولياً، فإن منطوقاً مثل: "هل يمكنك أن تفتح الباب؟" أو "هل يمكنك أن ادخل؟"، سوف يدل على ارتباط التمييز بين أفعال الكلام المباشرة وأفعال الكلام غير المباشرة بالعرف ارتباطاً قوياً. إذا كان الاستهامة يستعمل فعلاً كلامياً مباشراً للسؤال، فإنه يستعمل أيضاً فعلاً كلامياً غير مباشر للطلب. من اليسير أن نلاحظ أن المنطوقين الأخيرين لا يتماثلان تماثلاً تاماً مع الاستهامة العادي. يبين العرف أن الإجابة عن أحد المنطوقين ليست بـ "نعم" ولا بـ "لا". ويبين العرف أن الصيغة الدالة على الإمكان (وهي فيها الفعل المساعد "يمكن") لا تسأل عادة عن معلومة. بل علامة على الالتماس بالفعل في المنطوق الأول (ولهذا تصحب غالباً بالمعبرة "مر فضلك") وعلامة على الالتماس بالإذن في المنطوق الثاني. من أجل ذلك، لا يمكن أن يفسر المنطوق الثاني مثلاً بأنه يمني: "هل هذه هي الحال التي أنت فيها إننا بالدخول؟" ولكنه يفسر بأنه يمني: "أسألك أن تعطيني إذناً لدخول".

أبلى جون سيرل بلاه حسناً في تحليل أفعال الكلام غير المباشرة. كل من جاء بعده عالة عليه في ذلك الباب، سواء من سكان منهم من اصحاب تداولية أفعال الكلام أم من اصحاب تحليل الخطاب تحليلاً عاماً أو تحليلاً تقابلياً. في باب "أفعال الكلام غير المباشرة" أدخل جون سيرل الإلماع Hint، والتلميح Insinuation، والمفارقة Irony، والاستمارة Metaphor. في تلك الصور جميعاً ينفك معني منطوق المتكلم Speaker's Utterance Meaning عن معنى الجملة Sentence Meaning. هناك حالات ينطق فيها المتكلم جملة ويعني ما يقوله، ولكنه يعني في الوقت نفسه فعلاً إنجازياً آخر ذا محتوى قضوي مختلف. مثال ذلك أن ينطق المتكلم الجملة: "هل يمكنك أن تتولني الملح؟" وهو لا يعني سؤالاً مجرداً، بل يعني التماس مناولته الملح⁽¹⁾. انتهى سيرل في تحليل أفعال الكلام غير المباشرة إلى عدد من الملحوظات والنتائج المهمة التي صار لها صدى واسع في أدبيات نظرية التأويل. نوجزها فيما يلي:

- ١- يمتلك المنطوق الواحد - في مثل تلك الحالات السابقة - قوتين إنجازيتين اشتريتين. إذ يؤدي فعل إنجازي أداء غير مباشر عن طريق أداء فعل آخر.
- ٢- تبدو بعض الجمل من النوع السابق مستعملة غالباً استمعلاً عرفياً Conventionally Used على أنها التماسات غير مباشرة.
- ٣- في أفعال الكلام غير المباشرة يبلغ المتكلم المستمع أكثر مما يقوله عن طريق الاعتماد على خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة بينهما: لغوية وغير لغوية، بالإضافة إلى اعتماده على قوى الإدراك والاستدلال العامة عند المستمع.
- ٤- بناء على ذلك، فإن الجهاز الضروري لشرح الجانب غير المباشر من أفعال الكلام غير المباشرة سوف يشتمل على نظرية أفعال الكلام، وعلى بعض الأسس العامة للمخاطبة، وعلى خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة بين المتكلم والمستمع، فضلاً عن مقدرة المستمع على الاستدلال.

(1) Searle, John: Expression, op. cit. p. 71

الكلام ومنظرها منذ أوستين حتى اليوم. في مواضع عدة من كتابه المشار إليه آنفاً استخدم جون أوستين مصطلح "القوة Force" وهو يعني ما ينفي أن يعنيه مصطلح "الفرض" أو الغاية من الفعل الكلامي Purpose⁽¹⁾. وقد وقع في هذا الخلط نفسه آخرون منهم هارولد صادوك Harold Sadock⁽²⁾، وأنا وبرزبيكا Anna Wierzbicka⁽³⁾، وغيرهما. انتقلت عدوى الخلط بين هاتين المفهومين إلى الدكتور/أحمد المتوكل، في محاولته الإفادة من بعض معطيات تداولية أفعال الكلام في دراسة بعض أبواب النحو العربي دراسة وظيفية⁽⁴⁾.

ميز آخرون بين القوة والفرض، على رأسهم جون سيرل، وفاندرفيكن، وجانيت هولمز وغيرهم. الفرض الإنجازي عند سيرل مثلاً جزء من القوة الإنجازية. الفرض الإنجازي للالتماس هو ذاته الفرض الإنجازي لأنواع الطلب Commands؛ لأن كلاً منهما محاولة لجعل المستمعين يفعلون أشياء محددة، ولكن القوى الإنجازية بينهما مختلفة اختلافاً بيناً. بناء على ذلك، يرى سيرل أن القوة الإنجازية حاصلة عناصر عدة، الفرض الإنجازي عنصر واحد فقط منها، وإن كان - كما يمتد - أهم هذه العناصر⁽⁵⁾.

جدير بالإشارة هنا أن سيرل كان يري القوة بعداً من أبعاد التمييز بين الأفعال الإنجازية⁽⁶⁾. ولكنني أرى الأخرى أن تكون القوة بعداً من أبعاد التمييز بين الأغراض الإنجازية الفرعية لفرض إنجازي أكبر واحد؛ فالافتراح والإصرار فعلان إنجازيان يمثلان غرضاً إنجازياً واحداً، هو الفرض الإخباري ولكن درجات القوة بينهما مختلفة.

من ناحية أخرى يرى سيرل أن القوة جزء من المعنى، وأن المعنى يعين قوة

(1) نظراً: أوستين، ص 99، 128، 129، 131، 132، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 144، 145، 146، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 173، 174، 175، 176، 177، 178، 179، 180، 181، 182، 183، 184، 185، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 210، 211، 212، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 229، 230، 231، 232، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 282، 283، 284، 285، 286، 287، 288، 289، 290، 291، 292، 293، 294، 295، 296، 297، 298، 299، 300، 301، 302، 303، 304، 305، 306، 307، 308، 309، 310، 311، 312، 313، 314، 315، 316، 317، 318، 319، 320، 321، 322، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 329، 330، 331، 332، 333، 334، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353، 354، 355، 356، 357، 358، 359، 360، 361، 362، 363، 364، 365، 366، 367، 368، 369، 370، 371، 372، 373، 374، 375، 376، 377، 378، 379، 380، 381، 382، 383، 384، 385، 386، 387، 388، 389، 390، 391، 392، 393، 394، 395، 396، 397، 398، 399، 400، 401، 402، 403، 404، 405، 406، 407، 408، 409، 410، 411، 412، 413، 414، 415، 416، 417، 418، 419، 420، 421، 422، 423، 424، 425، 426، 427، 428، 429، 430، 431، 432، 433، 434، 435، 436، 437، 438، 439، 440، 441، 442، 443، 444، 445، 446، 447، 448، 449، 450، 451، 452، 453، 454، 455، 456، 457، 458، 459، 460، 461، 462، 463، 464، 465، 466، 467، 468، 469، 470، 471، 472، 473، 474، 475، 476، 477، 478، 479، 480، 481، 482، 483، 484، 485، 486، 487، 488، 489، 490، 491، 492، 493، 494، 495، 496، 497، 498، 499، 500، 501، 502، 503، 504، 505، 506، 507، 508، 509، 510، 511، 512، 513، 514، 515، 516، 517، 518، 519، 520، 521، 522، 523، 524، 525، 526، 527، 528، 529، 530، 531، 532، 533، 534، 535، 536، 537، 538، 539، 540، 541، 542، 543، 544، 545، 546، 547، 548، 549، 550، 551، 552، 553، 554، 555، 556، 557، 558، 559، 560، 561، 562، 563، 564، 565، 566، 567، 568، 569، 570، 571، 572، 573، 574، 575، 576، 577، 578، 579، 580، 581، 582، 583، 584، 585، 586، 587، 588، 589، 590، 591، 592، 593، 594، 595، 596، 597، 598، 599، 600، 601، 602، 603، 604، 605، 606، 607، 608، 609، 610، 611، 612، 613، 614، 615، 616، 617، 618، 619، 620، 621، 622، 623، 624، 625، 626، 627، 628، 629، 630، 631، 632، 633، 634، 635، 636، 637، 638، 639، 640، 641، 642، 643، 644، 645، 646، 647، 648، 649، 650، 651، 652، 653، 654، 655، 656، 657، 658، 659، 660، 661، 662، 663، 664، 665، 666، 667، 668، 669، 670، 671، 672، 673، 674، 675، 676، 677، 678، 679، 680، 681، 682، 683، 684، 685، 686، 687، 688، 689، 690، 691، 692، 693، 694، 695، 696، 697، 698، 699، 700، 701، 702، 703، 704، 705، 706، 707، 708، 709، 710، 711، 712، 713، 714، 715، 716، 717، 718، 719، 720، 721، 722، 723، 724، 725، 726، 727، 728، 729، 730، 731، 732، 733، 734، 735، 736، 737، 738، 739، 740، 741، 742، 743، 744، 745، 746، 747، 748، 749، 750، 751، 752، 753، 754، 755، 756، 757، 758، 759، 760، 761، 762، 763، 764، 765، 766، 767، 768، 769، 770، 771، 772، 773، 774، 775، 776، 777، 778، 779، 780، 781، 782، 783، 784، 785، 786، 787، 788، 789، 790، 791، 792، 793، 794، 795، 796، 797، 798، 799، 800، 801، 802، 803، 804، 805، 806، 807، 808، 809، 810، 811، 812، 813، 814، 815، 816، 817، 818، 819، 820، 821، 822، 823، 824، 825، 826، 827، 828، 829، 830، 831، 832، 833، 834، 835، 836، 837، 838، 839، 840، 841، 842، 843، 844، 845، 846، 847، 848، 849، 850، 851، 852، 853، 854، 855، 856، 857، 858، 859، 860، 861، 862، 863، 864، 865، 866، 867، 868، 869، 870، 871، 872، 873، 874، 875، 876، 877، 878، 879، 880، 881، 882، 883، 884، 885، 886، 887، 888، 889، 890، 891، 892، 893، 894، 895، 896، 897، 898، 899، 900، 901، 902، 903، 904، 905، 906، 907، 908، 909، 910، 911، 912، 913، 914، 915، 916، 917، 918، 919، 920، 921، 922، 923، 924، 925، 926، 927، 928، 929، 930، 931، 932، 933، 934، 935، 936، 937، 938، 939، 940، 941، 942، 943، 944، 945، 946، 947، 948، 949، 950، 951، 952، 953، 954، 955، 956، 957، 958، 959، 960، 961، 962، 963، 964، 965، 966، 967، 968، 969، 970، 971، 972، 973، 974، 975، 976، 977، 978، 979، 980، 981، 982، 983، 984، 985، 986، 987، 988، 989، 990، 991، 992، 993، 994، 995، 996، 997، 998، 999، 1000.

(2) Sadock, Harold, M. *Toward a Linguistic Theory of Speech Acts*. Academic Press New York- San Francisco- London (1974) P 10

(3) Wierzbicka, Anna. *A Semantic Meta Language for the Description and Comparison of Illocutionary Meanings in Journal of Pragmatics* 10 (1986) pp 67-107. P 67

(4) في اللغة العربية، ص 10، ص 11، ص 12، ص 13، ص 14، ص 15، ص 16، ص 17، ص 18، ص 19، ص 20، ص 21، ص 22، ص 23، ص 24، ص 25، ص 26، ص 27، ص 28، ص 29، ص 30، ص 31، ص 32، ص 33، ص 34، ص 35، ص 36، ص 37، ص 38، ص 39، ص 40، ص 41، ص 42، ص 43، ص 44، ص 45، ص 46، ص 47، ص 48، ص 49، ص 50، ص 51، ص 52، ص 53، ص 54، ص 55، ص 56، ص 57، ص 58، ص 59، ص 60، ص 61، ص 62، ص 63، ص 64، ص 65، ص 66، ص 67، ص 68، ص 69، ص 70، ص 71، ص 72، ص 73، ص 74، ص 75، ص 76، ص 77، ص 78، ص 79، ص 80، ص 81، ص 82، ص 83، ص 84، ص 85، ص 86، ص 87، ص 88، ص 89، ص 90، ص 91، ص 92، ص 93، ص 94، ص 95، ص 96، ص 97، ص 98، ص 99، ص 100، ص 101، ص 102، ص 103، ص 104، ص 105، ص 106، ص 107، ص 108، ص 109، ص 110، ص 111، ص 112، ص 113، ص 114، ص 115، ص 116، ص 117، ص 118، ص 119، ص 120، ص 121، ص 122، ص 123، ص 124، ص 125، ص 126، ص 127، ص 128، ص 129، ص 130، ص 131، ص 132، ص 133، ص 134، ص 135، ص 136، ص 137، ص 138، ص 139، ص 140، ص 141، ص 142، ص 143، ص 144، ص 145، ص 146، ص 147، ص 148، ص 149، ص 150، ص 151، ص 152، ص 153، ص 154، ص 155، ص 156، ص 157، ص 158، ص 159، ص 160، ص 161، ص 162، ص 163، ص 164، ص 165، ص 166، ص 167، ص 168، ص 169، ص 170، ص 171، ص 172، ص 173، ص 174، ص 175، ص 176، ص 177، ص 178، ص 179، ص 180، ص 181، ص 182، ص 183، ص 184، ص 185، ص 186، ص 187، ص 188، ص 189، ص 190، ص 191، ص 192، ص 193، ص 194، ص 195، ص 196، ص 197، ص 198، ص 199، ص 200، ص 201، ص 202، ص 203، ص 204، ص 205، ص 206، ص 207، ص 208، ص 209، ص 210، ص 211، ص 212، ص 213، ص 214، ص 215، ص 216، ص 217، ص 218، ص 219، ص 220، ص 221، ص 222، ص 223، ص 224، ص 225، ص 226، ص 227، ص 228، ص 229، ص 230، ص 231، ص 232، ص 233، ص 234، ص 235، ص 236، ص 237، ص 238، ص 239، ص 240، ص 241، ص 242، ص 243، ص 244، ص 245، ص 246، ص 247، ص 248، ص 249، ص 250، ص 251، ص 252، ص 253، ص 254، ص 255، ص 256، ص 257، ص 258، ص 259، ص 260، ص 261، ص 262، ص 263، ص 264، ص 265، ص 266، ص 267، ص 268، ص 269، ص 270، ص 271، ص 272، ص 273، ص 274، ص 275، ص 276، ص 277، ص 278، ص 279، ص 280، ص 281، ص 282، ص 283، ص 284، ص 285، ص 286، ص 287، ص 288، ص 289، ص 290، ص 291، ص 292، ص 293، ص 294، ص 295، ص 296، ص 297، ص 298، ص 299، ص 300، ص 301، ص 302، ص 303، ص 304، ص 305، ص 306، ص 307، ص 308، ص 309، ص 310، ص 311، ص 312، ص 313، ص 314، ص 315، ص 316، ص 317، ص 318، ص 319، ص 320، ص 321، ص 322، ص 323، ص 324، ص 325، ص 326، ص 327، ص 328، ص 329، ص 330، ص 331، ص 332، ص 333، ص 334، ص 335، ص 336، ص 337، ص 338، ص 339، ص 340، ص 341، ص 342، ص 343، ص 344، ص 345، ص 346، ص 347، ص 348، ص 349، ص 350، ص 351، ص 352، ص 353، ص 354، ص 355، ص 356، ص 357، ص 358، ص 359، ص 360، ص 361، ص 362، ص 363، ص 364، ص 365، ص 366، ص 367، ص 368، ص 369، ص 370، ص 371، ص 372، ص 373، ص 374، ص 375، ص 376، ص 377، ص 378، ص 379، ص 380، ص 381، ص 382، ص 383، ص 384، ص 385، ص 386، ص 387، ص 388، ص 389، ص 390، ص 391، ص 392، ص 393، ص 394، ص 395، ص 396، ص 397، ص 398، ص 399، ص 400، ص 401، ص 402، ص 403، ص 404، ص 405، ص 406، ص 407، ص 408، ص 409، ص 410، ص 411، ص 412، ص 413، ص 414، ص 415، ص 416، ص 417، ص 418، ص 419، ص 420، ص 421، ص 422، ص 423، ص 424، ص 425، ص 426، ص 427، ص 428، ص 429، ص 430، ص 431، ص 432، ص 433، ص 434، ص 435، ص 436، ص 437، ص 438، ص 439، ص 440، ص 441، ص 442، ص 443، ص 444، ص 445، ص 446، ص 447، ص 448، ص 449، ص 450، ص 451، ص 452، ص 453، ص 454، ص 455، ص 456، ص 457، ص 458، ص 459، ص 460، ص 461، ص 462، ص 463، ص 464، ص 465، ص 466، ص 467، ص 468، ص 469، ص 470، ص 471، ص 472، ص 473، ص 474، ص 475، ص 476، ص 477، ص 478، ص 479، ص 480، ص 481، ص 482، ص 483، ص 484، ص 485، ص 486، ص 487، ص 488، ص 489، ص 490، ص 491، ص 492، ص 493، ص 494، ص 495، ص 496، ص 497، ص 498، ص 499، ص 500، ص 501، ص 502، ص 503، ص 504، ص 505، ص 506، ص 507، ص 508، ص 509، ص 510، ص 511، ص 512، ص 513، ص 514، ص 515، ص 516، ص 517، ص 518، ص 519، ص 520، ص 521، ص 522، ص 523، ص 524، ص 525، ص 526، ص 527، ص 528، ص 529، ص 530، ص 531، ص 532، ص 533، ص 534، ص 535، ص 536، ص 537، ص 538، ص 539، ص 540، ص 541، ص 542، ص 543، ص 544، ص 545، ص 546، ص 547، ص 548، ص 549، ص 550، ص 551، ص 552، ص 553، ص 554، ص 555، ص 556، ص 557، ص 558، ص 559، ص 560، ص 561، ص 562، ص 563، ص 564، ص 565، ص 566، ص 567، ص 568، ص 569، ص 570، ص 571، ص 572، ص 573، ص 574، ص 575، ص 576، ص 577، ص 578، ص 579، ص 580، ص 581، ص 582، ص 583، ص 584، ص 585، ص 586، ص 587، ص 588، ص 589، ص 590، ص 591، ص 592، ص 593، ص 594، ص 595، ص 596، ص 597، ص 598، ص 599، ص 600، ص 601، ص 602، ص 603، ص 604، ص 605، ص 606، ص 607، ص 608، ص 609، ص 610، ص 611، ص 612، ص 613، ص 614، ص 615، ص 616، ص 617، ص 618، ص 619، ص 620، ص 621، ص 622، ص 623، ص 624، ص 625، ص 626، ص 627، ص 628، ص 629، ص 630، ص 631، ص 632، ص 633، ص 634، ص 635، ص 636، ص 637، ص 638، ص 639، ص 640، ص 641، ص 642، ص 643، ص 644، ص 645، ص 646، ص 647، ص 648، ص 649، ص 650، ص 651، ص 652، ص 653، ص 654، ص 655، ص 656، ص 657، ص 658، ص 659، ص 660، ص 661، ص 662، ص 663، ص 664، ص 665، ص 666، ص 667، ص 668، ص 669، ص 670، ص 671، ص 672، ص 673، ص 674، ص 675، ص 676، ص 677، ص 678، ص 679، ص 680، ص 681، ص 682، ص 683، ص 684، ص 685، ص 686، ص 687، ص 688، ص 689، ص 690، ص 691، ص 692، ص 693، ص 694، ص 695، ص 696، ص 697، ص 698، ص 699، ص 700، ص 701، ص 702، ص 703، ص 704، ص 705، ص 706، ص 707، ص 708، ص 709، ص 710، ص 711، ص 712، ص 713، ص 714، ص 715، ص 716، ص 717، ص 718، ص 719، ص 720، ص 721، ص 722، ص 723، ص 724، ص 725، ص 726، ص 727، ص 728، ص 729، ص 730، ص 731، ص 732، ص 733، ص 734، ص 735، ص 736، ص 737، ص 738، ص 739، ص 740، ص 741، ص 742، ص 743، ص 744، ص 745، ص 746، ص 747، ص 748، ص 749، ص 750، ص 751، ص 752، ص 753، ص 754، ص 755، ص 756، ص 757، ص 758، ص 759، ص 760، ص 761، ص 762، ص 763، ص 764، ص 765، ص 766، ص 767، ص 768، ص 769، ص 770، ص 771، ص 772، ص 773، ص 774، ص 775، ص 776، ص 777، ص 778، ص 779، ص 780، ص 781، ص 782، ص 783، ص 784، ص 785، ص 786، ص 787، ص 788، ص 789، ص 790، ص 791، ص 792، ص 793، ص 794، ص 795، ص 796، ص 797، ص 798، ص 799، ص 800، ص 801، ص 802، ص 803، ص 804، ص 805، ص 806، ص 807، ص 808، ص 809، ص 810، ص 811، ص 812، ص 813، ص 814، ص 815، ص 816، ص 817، ص 818، ص 819، ص 820، ص 821، ص 822، ص 823، ص 824، ص 825، ص 826، ص 827، ص 828، ص 829، ص 830، ص 831، ص 832، ص 833، ص 834، ص 835، ص 836، ص 837، ص 838، ص 839، ص 840، ص 841، ص 842، ص 843، ص 844، ص 845، ص 846، ص 847، ص 848، ص 849، ص 850، ص 851، ص 852، ص 853، ص 854، ص 855، ص 856، ص 857، ص 858، ص 859، ص 860، ص 861، ص 862، ص 863، ص 864، ص 865، ص 866، ص 867، ص 868، ص 869، ص 870، ص 871، ص 872، ص 873، ص 874، ص 875، ص 876، ص 877، ص 878، ص 879، ص 880، ص 881، ص 882، ص 883، ص 884، ص 885، ص 886، ص 887، ص 888، ص 889، ص 890، ص 891، ص 892، ص 893، ص 894، ص 895، ص 896، ص 897، ص 898، ص 899، ص 900، ص 901، ص 902، ص 903، ص 904، ص 905، ص 906، ص 907، ص 908، ص 909، ص 910، ص 911، ص 912، ص 913، ص 914، ص 915، ص 916، ص 917، ص 918، ص 919، ص 920، ص 921، ص 922، ص 923، ص 924، ص 925، ص 926، ص 927، ص 928، ص 929، ص 930، ص 931، ص 932، ص 933، ص 934، ص 935، ص 936، ص 937، ص 938، ص 939، ص 940، ص 941، ص 942، ص 943، ص 944، ص 945، ص 946، ص 947، ص 948، ص 949، ص 950، ص 951، ص 952، ص 953، ص 954، ص 955، ص 956، ص 957، ص 958، ص 959، ص 960، ص 961، ص 962، ص 963، ص 964، ص 965، ص 966، ص 967، ص 968، ص 969، ص 970، ص 971، ص 972، ص 973، ص 974، ص 975، ص 976، ص 977، ص 978، ص 979، ص 980، ص 981، ص 982، ص 983، ص 984، ص 985، ص 986، ص 987، ص 988، ص 989، ص 990، ص 991، ص 992، ص 993، ص 994، ص 995، ص 996، ص 997، ص 998، ص 999، ص 1000.

(5) Searle, J-ty: *Expressions*, op. cit. P. 1

فما معنا خلق معه فيه، ومما يتفق معه فيه باحثون آخرون كثيرون. قوته بأن المعنى والقوة تسميتان مختلفتان لفعل واحد، وليسا فعلين متضامين. مما يأخذه عليه: وذلك أن تعيين المعنى للقوة، يعني أن المعنى ليس هو نفسه القوة، إنما هو أحد محدداتها. لا يمكن أن ننتهي إلى تعيين قوة الأمر مثلاً، دون فهم المعنى الدلالي والمعنى الوظيفي للمنطوق. ولا يمكن أن ننهي إلى فصل بين درجة من درجات قوة الأمر، دون فهم المعنيين السابقين مرتين بالسياق اللغوي والسياسي الواقعي. إن قوة المنطوق الإنجازية جزء مكمل لشعاع، بالمفهوم الدلالي. وهذا يعني أن المعنى أوسع من القوة؛ لأنه يضم القوة والحموى القضوي في آن معاً. استعمالات اللغة غير محدودة من جهة القوة الإنجازية، ولكنها محدودة بحدود ما نفعله بواسطة اللغة من جهة الفرض الإنجازي. وكان سيرل قد حصر استعمالات اللغة في أغراض رئيسية خمسة، هي: الإخبار، والتوجيه، والالتزام، والتعبير، والإعلان¹⁹.

خلاصة القول أن القوة والفرض عنصران مكملان للمعنى. القوة درجة وتدرس وطيفة. لكل غرض رئيسي أغراض فرعية؛ فالتوجيه مثلاً أحد الأغراض الرئيسية الخمسة في تصنيف جون سيرل. وله أغراض فرعية كالأمر والالتماس والمرض والتحضيض وغيرها. ولكل غرض درجات مختلفة من القوة وفقاً لسياقات الاتصال.

(د) علامات القوة :

جعل أوستين للقوة علامات ستا هي: الصيغة (أغلق الباب) تضاهي لمرتكب (وأغلق الباب إذا أردت تضاهي أذن لك) ونغمة الصوت (تختلف نغمة الاعتذار عن السؤال أو الاعتراض... إلخ) وأشياء الجملة (التي يقصد بها تكبير قوة المنطوق مثل: تكبير قوة: سوف أفعل "بإضافة" من المحتمل، لتوكبير قوة النهي بالطرف مثل: "لا تنس أبداً...") وأدوات الربط (مثل "من أجل ذلك") التي تستخدم في قوة "استنتج" و"على رغم ذلك" التي تستخدم في قوة "أسلم بان" ومصاحبات المنطوق (كان تجعل منطوقك مسحوباً بمرحفة حسية كإشارة الإصبع، أو غمزة العين... إلخ) وملابسات المنطوق

¹⁹ صحت القول في ذلك في موضع آخر. انظر طلبة الحدث المهدي مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل، سنة العربية لتسمية: مجلد 1 (1971-1970) ص 11-12 ص 11-12

(وهي تساعد مساعدا مهمة للغاية في تحديد الفرض؛ فالأمر يمكن أن يكون أمراً، أو إزناً، أو عرضاً، أو التماساً، أو توسلاً، أو اقتراحاً، أو توصية أو تحذيراً... الخ)⁽¹⁾.

في دراسات أخرى لاحقة امتدت علامات القوة إلى مستويات التحليل اللغوي ككافة، لا سيما العلامات الصوتية والتركيبية والخطابية.

أشرنا إلى أن القوة الإنجازية بمد من أبعاد التمييز بين أغراض فرعية لفرض إنجازي أكبر واحد، تنتج بتفاوت درجات القوى. يعني هذا أن الفرض الواحد تعرف منطوقاته قوى إنجازية عدة. في الفرض الإنجازي الإخباري مثلاً يمكن أن نقول: ضاع² و³ أظنه ضاع⁴ و⁵ وأأسفاه⁶ ضاع⁷. وفي الفرض الإنجازي التوجيهي، يمكن أن نقول: توقف عن الكلام⁸ و⁹ توقف عن الكلام¹⁰ من فضلك¹¹ و¹² توقف عن الكلام راضياً أو غير راضياً¹³. في كل من ضاع² و³ توقف عن الكلام⁸ نحصل على القوة الإنجازية الأسط ذات الفرض الإخباري أو التوجيهي. وفي⁴ أظنه ضاع⁴ و⁵ توقف عن الكلام¹⁰، من فضلك¹¹ تدخل علامة من علامات القوة هي فهما علامة إنفاص في درجة القوة؛ لأنها تضعف قوة التبليغ في الفرض الإخباري، وتضعف قوة الأمر إلى قوة الالتماس بصيغة خاصة للتأديب، في تحقيقها الفرض الإنجازي التوجيهي (فالمتكلم باستخدامه¹¹ من فضلك¹¹ يمنح المستمع حق الاختيار في عمل محاولته بجعله يفعل شيئاً ما)⁽¹⁴⁾.

وفي المنطوقين الأخيرين تدخل علامات القوة بالزيادة: تظن¹⁵ وأأسفاه⁶ عن أسف المتكلم الذي ينقله المحتوى القضوي، حتى يمتلك المنطوق قوة الأسف للوضع الراهن، وتلغي¹⁶ راضياً أو غير راض¹³ حق المستمع في الاختيار، فيصبح للمنطوق قوة الجبر أو الإرغام على الفعل.

(1) راجع في تفصيل ذلك أوستين من ص ٧٣ وما بعدها.

(2) يفهمنا المؤلف - سرحه عام - مرادفاً مشاعر الآخرين وكما نقول حينه مرتين، فإن التأديب يعني لعمري أن نلطف الآخرين على سوء علاقتهم بنا. أم الخيارات للتعريف غير المستند فيمكن أن تند حشرة أو لغة لعمه. وتشير صليوت إلى أن ما نحتاجه إلى أن نوجه القسم الاحتمالية فنضع ما نحن نتكلم على هو مؤدب ونسب حيث نلقاب المنطقين الذين معنا: التأديب الإيجابي Positive Politeness الذي يتجه إلى تحقيق للتنسك (Solidarity) وذلك أنه يقدم التلميحات والقدرة لشفقة والوسط تشاري هو التأديب السلبي negative politeness الذي يدفع فتنسك إلى أن يحسن خصوم خصم ولا يفتدي: عدمه على الآخر.

Holmes, Janet: An Introduction to Sociolinguistics. Longman and Co. London, 1991, pp. 249, 250.

علامات لقوة نسبية، سواء أكانت وسائل معجمية أم هيئات تركيبية قد تدل على نية تقوى إلى تعبير القوى الإنجليزية والتمييز بين درجاتها. يضاف ذلك للتدريج النعوية اعتبارات تداولية (بما في ذلك أعراف الاستعمال) نسبة كما شرحها سيرل⁽¹⁾. والاستراتيجيات الحوارية Conversational Strategies بما في ذلك المبادئ الخمسة التي قدمها جرايس والتي يتبناها تدركون في تخاطب⁽²⁾.

هـ. نسبية القوة:

كانت القوة الإنجازية لفعل كلامي تعني الشدة أو الضعف اللذين يترجم عن غرض إنجازي بعينه، في موقف اجتماعي بعينه، أي كان مجرد علامة الدالة على تلك القوة، وإذا كان لكل من الشدة والضعف مرات متتوية، فإن القوة الإنجازية ينفي لها أن توصف بأنها نسبية. يهان في الأمر - مثلاً - بوصف غالباً بأنه النمط الأقوى من أنماط الفرض الإيجابي التوجيهي، وأنه الأشد تحققاً ومباشرة. ولكن إذا تأملنا ذلك، في استعمال الفعل المرتبط بالواقعة الكلامية أو المقام، وجدنا ذلك ينحصر على التسليم. إذا قارنا مثلاً "الأمر" بالصيغة ذات الفعل المساعد "يس" أو "ينبغي" سيبدو "الأمر" من ناحية أقوى كثيراً عندما يكون متختم في كامل سلطته in full authority (كالكائد في الجيش) للتأكد من "أمر" قد صدر (في حال لا يصلح فيها استعمال أحد هذين الفعلين "يجب" أو "ينبغي") ومن ناحية أخرى، سيبدو "الأمر" أضعف كثيراً عندما يستعمل في "ش" "دخل" (في إجابة عن طرفة باب). إنه في الحال الأخيرة، يعطي إنذاراً. في حال لا يناسبها أبداً استخدام "يجب" أو "ينبغي".

يشرح ف. ر. بالمير F.R. Palmer المسألة السابقة بأن المستمع يمكنه أن يرد - ذلك - رداً فيه إهانة: "من أنت حتى تعطيني أوامراً؟". سيبقى الأفعال

(1) Searl, John: Speech Acts. Op. cit. P.23

(2) Grice, H.P.: Logic and Conversation. In: P. Cole and J. Morgan (eds) Syntax and Semantics 3: Speech Acts. New York (1975) pp. 44-45

معرض نويج لعلوم اللغة العربية - رسالة في تحليل عدوى محسن (1111-1111)

المساعدة ذاتها (نحو: "تقدر" و"تستطيع" و"يمكنك") المستخدمة للإعلان، أقل تأديباً - في هذه الملابس - من الأمر. يستطيع المستمع هنا أيضاً أن يرد في إهانة: "من أنت حتى تطعمني إنفاً؟" نتفق مع المترجمين لأن "الأمر" هنا لا عمل له إلا بالتعبير عن فكرة قصد المتكلم - في رضا - إلى الفعل *can*، على نحو أشد حيادية، إنه يمرض قضية فحسب. فكما هي الحال تماماً في الإعلان Declaration: ولكونه يمرضها من أجل الفعل، لا من أجل أن تكون مقبولة عند المستمع فحسب، لصدقها⁽¹¹⁾.

الأمر إذن اصطلاح حيادي داخل النظم الفرعي لأفعال الكلام التوجيهية. يقول المترجم: "ليس الأمر بالضرورة أقوى من صيغة الفعل المساعد 'يجب' أو 'ينبغي'". الأمر قضية واجبة الوجود فحسب *deontic proposition* وهو يترك للمستمع الحكم بقوة إلزامه بالفعل من خلال الملابس إذنا لكل قائد لجنوده: "قوا!". قلن يكون هذا المنطوق إلا أمراً. ولكنه محض تعبير عن إذن بالدخول في "ادخل". حيثما لا يكون استعمال "يجب" في هذه الملابس مناسباً، من ثم يتبين أن الأمر ليس أقوى من "يجب" ولا أضعف. كما أنه ليس أكثر تأديباً من "يجب" ولا أقل⁽¹²⁾.

3- تعديل القوة الإنجازية :

يمتلك المتكلم منطوقه أو يكلفه لمقصده في سياق اتصالي بعينه يمحض مبدأ تعديل القوة الإنجازية من البداية مبدأ مبرهناً عند جرابيس . هو: "كن مقتصدًا Be Brief" وذلك أن المتكلمين - كما يقول ميخائيل ستوس - لا يستعملون كلمات زائدة دون سبب لست هناك تعبيرات أسلوبية⁽¹³⁾.

يعد مبحث التعديل (أو التكييف) من أثرى حقول البحث وأكثرها فائدة في تداولية أفعال الكلام في النظرية اللسانية المعاصرة بعامتها صار مبحث التعديل دعامة لسانية تداولية أساسية في نظرية النص

(11) Palmer, F.R., Mood and Modality, Cambridge Univ. Press (1993) P.29

(12) فرج لسان ص 109 ويستعمل مترجم صطلح *deontic* بمعنى "لربح الجسم منه" لأنخذ من صيات المترجم "في قسم" أو "بهد سرس" - *Imperative* - لا لتفاد على مترجم "على قوماً أو الإلزام" *enjoining an element of will* : فرج ص 109

(13) Stubbs, Michael: Discourse Analysis of vol. P.157

تحليل الخطاب وصار تبعا لذلك من الدعامات اللسانية التبادلية
التي هي النظرية الأدبية المعاصرة بأسرها. إذا كنا نريد فهمها حقيقتها
نظرية الأدبية المعاصرة ومعطياتها في التحليل العلمي للنصوص الأدبية
فإننا نبدأ بالأسس اللسانية التي اعتمدت عليها في بناء برامجها وألياتها في
ذلك التحليل.

فمصرف غايته هنا إلى بحث تأثيرات الاستراتيجيات التي توظف في
عمل القوة في المنطوقات المؤثرة تأثيراً إيجابياً والمنطوقات المؤثرة تأثيراً
سلبياً، مولين على ما تزود به النصوص. لاسيما النصوص الأدبية - من
شعرية ونحوية ونحوية ونحوية - من أحدث الدراسات في مجال تعديل
قوة الإنجازية لبيان الدوافع والأسباب التي تحدد المتكلمين إلى توظيف مثل
الاستراتيجيات أما دأبنا الأكبر، فهو وصف الوسائل اللغوية المختلفة
التي يكيف بها المتكلمون قوة المنطوق الإنجازية على نحو أو آخر .

(1) استراتيجيات التعديل :

من المسلم به أن تعديل قوة المنطوق الإنجازية يرتبط باستراتيجيات
الاتصال العامة. إذا تأملنا دوافع السلوك الاتصالي، فسوف يتبين لنا أنها تتنوع
من حالة إلى أخرى. يضع المتكلم عرضاً أو التماساً، تهديداً أو احتجاجاً،
يحاول فدحاً، حثاً على فعل أو نهياً عنه، إعلاء شأن أو إبطاله وهكذا.
وهنا عرض المتكلم هو الذي يحدد الطريقة التي يتكلم بها، فالشخص
الذي يستطيع - كما يقول ز. سالزمان Z. Salzman - أن يتكلم في
الهدوء واحترام، عندما يوقفه شرطى عن عجلته أملاً أن يترك هذا السلوك
كلامه الاعتذارى المهذب اثره في ذلك الشرطى، بأن يكتمى - مثلاً -
بهدوءه . وإن كان مستحقاً الفرامة⁽¹⁾.

في كل سلوك اتصالي موجه إلى هدف والأهداف مختلفة. والتضحية التي
يطلبها دائما بالباحثين في شتى أنواع الاتصال اللغوي هي - كما يقول
رومان جاكوبسون Roman Jakobson - مطابقة الوسائل المستخدمة للأثر

(1) Salzman, Z. Language, Culture and Society. An Introduction to
Anthropology. Westview Press, Boulder-San Francisco Oxford (1991), P. 288.

المستهدف⁽¹⁾.

إن من الحقائق الجوهرية في الاستعمال اللغوي ارتباط الصيغة بالمقصود. ومن المسلم به في كل تفاعل لغوي، أن الكيفية التي يقال بها الشئ تعد جزءاً مما يقال. حينما يعدل المتكلم قوة منطوقة الإنجازية، فإنه يدل بذلك على وعيه بالمقصود وتقديره مقتضيات السياق وهما يرتبطان - لا تقديراً - بكفاءة المتكلم وأدائه معاً. ولعل خير تفسير سوسولوجي لهذين الاصطلاحين، ما نجده عند ب. برنشتاين B. Bernstein. تشير الكفاءة عند المتكلم مستخلصاً من المحددات والقيود السياهية، ويشير الأداء إلى المتكلم في قبضة تلك القيود السياهية التي تحدد منطوقاته. تشير الكفاءة إلى المثال Ideal، ويشير الأداء إلى الحال Fall⁽²⁾.

في السبعينيات، كان الباحثون قد اعتادوا البحث فيما سمي بـ "ثقافات التآدب السلبى Negative-politeness cultures" وكانوا يهتمون اهتماماً خاصاً بآثر ظاهرة التآدب في الاستعمال اللغوي، منصرفين - في حالات كثيرة - إلى علاقة السؤال بمظاهر التآدب في الخطاب.

وفي عام ١٩٨٠ أصدر كل من فريزر Fraser ورينتل Rintell وولترز Walton بحثاً مشتركاً عن اكتساب "الكفاءة التداولية" في اللغة الثانية Second language في هذا البحث عرض هؤلاء للاستراتيجيات والقوالب الدلالية التي تتخذها اللغة لأداء فعل كلامي بعينه: فإذا استطاع المتكلم مثلاً أن يلتصق - في إحدى اللغات - عن طريق سؤال المستمع عن قدرته على فعل كلامي لعل تستطيع أن تفعل هذا؟ أو عن طريق التعبير عن رغبته في أن يفعل المستمع ذلك الفعل الكلامي (مثل: سأكون ممتناً حقاً إذا فعلت هذا) فإن هذه الاستراتيجيات ذاتها، تعد نافعة للمتكلم في أية لغة أخرى⁽³⁾.

(1) Johnson, Roman. Linguistics and Poetics. In: Marcel Danesi and Donato Scamone (eds) *Introducing Semiotics*. Canadian Scholars Press Toronto (1992) pp.47-72, P.48.

(2) Bernstein, B. Social Class, Language and Socialization. In Pier Paolo Giglioli (ed.) *Language and Social Context. Selected Readings*. Penguin Books. Clays Ltd England (1990) Pp 157-176, P.160

(3) Fraser, Bruce-Kimeli, Ellen- Walters, Joel. An Approach to Conducting Research on the Acquisition of Pragmatic Competence in a Second Language. In: D. Lauer: *Fraser (ed.) Discourse Analysis, in Second Language Research*. Newbury House Books (1986) pp. 75-91, P.76

في ذلك العهد أنه عرض فريزر في بحث له مفرد، مبهوماً تدولياً مهماً على عيه أنه لتخفيف الخطاب (Conversational Mitigation) بين فريزر أن تخفيف استراتيجي يعتمد على التقليل من قوة الفعل الكلامي أو إضعافه. ويقع هذا التخفيف (أو الإضعاف) - كما لاحظ فريزر - في التصديق الذي تبدو تأثيراته غير مرحب بها عند المستمع^(١).

وفي عام ١٩٨٤م ظهر أثر بحث فريزر في محاولة جديدة، قدمتها جانيت هولمز Janet Holmes لدراسة تعديل القوة الإنجازية على نحو أشد عمقاً وإحاطةً. اجتهدت جانيت في تأمل مفهوم التلطيف في علاقته باستراتيجيات الاتصال لتعديل قوة المنطوق. إذا كان التلطيف يعني تخفيف قوة المنطوق أو إضعافها (Attenuation)، فقد كشفت جانيت عن استراتيجية مضادة؛ هي زيادة قوة المنطوق أو تعزيزها (boosting or emphasizing the illoc force).

تسر المنطوقات عن أغراض عدة، ويمكن للفرض الإنجازي الواحد أن يقدم في درجات مختلفة من القوة. لنقارن مثلاً بين المنطوقات التالية: "أنت خبيث" و"يا إلهي أنت (هككذا) خبيث" و"عندك (شيء) من الخبث". تعبر هذه المنطوقات جميعاً عن غرض إنجازي واحد؛ هو الانتقاد. ولكن هذا لغرض الواحد، قد قدم بدرجات متفاوتة من القوة. استخدمت "يا إلهي" و"هكذا" تقوية قوة الانتقاد، على حين استخدمت "شيء" لتخفيف هذه القوة وهذا نوع تلطيف لقوة المنطوق؛ لأن الانتقاد فعل كلامي سلبي التأثير. في حالات أخرى، يبدو الفعل الكلامي فعلاً إيجابياً التأثير، نحو: "أنت ظريف" و"حقاً أنت ظريف" و"أنت ظريف (نوعاً ما)". في هذه المنطوقات يستخدم العنصر المعجمي "حقاً" لزيادة القوة الإنجازية التي قدم بها غرض التمدح أما العنصر المعجمي "نوعاً ما" فقد استخدم لتخفيف هذه القوة. ولما كان تأثير المتوقع لمثل هذا الفعل الكلامي تأثيراً غير مرفوض، فإن استراتيجي من تلك الاستراتيجيات لا يمكن أن تعدل حتى تصبح تلطيفاً^(٢).

(١) Fraer, Bruce: Conversational Mitigation In Journal of Pragmatics 4 (1980) 341-350, P.342

(٢) Holmes, Janet: Modifying Illocutionary Force Journal of Pragmatics 16 (1984) 345-365

من الوسائل الأخرى التي تعتمد استراتيجيات التعديل بزيادة شدة
الفرض الإنجازي أو إنقاصها ما يسمى باسم " الإشارة الصريحة explicit
reference " إلى شروط الصدق التي تحكم أنواعاً مختلفة من أفعال الكلام.
من هذه الأفعال الكلامية ما أسماه جون سيرل بـ " أفعال الكلام المرضية
representative speech acts " (1).

هذا النوع مما يمكن تقوية قوته أو إضعافها إلى درجة اعتماد المتكلم،
أو مدى التزامه بالقضية التي يعبر عنها المنطوق؛ كقولنا: " (أظن) أنه يوم
دراسي " في مقابل: أنا (متأكد) تماماً أنه يوم دراسي ". يسري الإضعاف
والتقوية على المنطوقات بجميع أنواعها في تصنيف سيرل المعروف: تعبيرية، أو
توجيهية، أو التزامية..... الخ.

(ب) أسباب تعديل القوة :

لماذا يعدل المتكلم قوة المنطوق الإنجازية؟ وما انعكاسات هذا التعديل
على العلاقات بين المتكلم والمخاطب، أو بين المتكلم ومحتوى القضية التي
يعبر عنها؟ تلمس هذه التساؤلات جوهر إجرائية التعديل في علاقتها
باستراتيجيات الاتصال. ترى جانبته هولمز سببين رئيسيين اثنين يدفعان
المتكلم إلى تعديل القوة المعتمدة في التعبير عن فعل كلامي بعينه :

(أولهما) التعديل من أجل نقل المعنى المرتبط بسلوك المتكلم وتصرفاته
تجاه القضية التي يعبر عنها Modal Meaning.

(والآخر) التعديل من أجل التعبير عن معنى تأثيري Affective meaning ، أو
عن سلوك المتكلم إزاء المخاطب في سياق المنطوق (2).

يمكن أن ندرج هذين المعنيين اللذين ذكرتهما جانبته فيما يسمى
Modality. يجمع هذا المصطلح طائفة الوسائل التي تدل على سلوكيات
المتكلمين وتصرفاتهم تجاه ما يعبرون عنه من قضايا، وتجاه مخاطبيهم إلى
حد ما. تتوزع هذه السلوكيات والتصرفات إلى: مهادين الصلاحية Areas of
Validity (حيث يعبر المتكلم في ثقة أعظم أو أقل عن صدق قضاياها)، والقدرة

(1) Searle, John Expression op cit P.24

(2) Holmes, Janet Modifying op cit: P.348

بحالات أخرى يقتضيها السبك ولا لثر فيها لقصد التقرير أو التوكيد أو الإقناع
لو نحو ذلك ، ولكننا نريد لنذكر أمثلة للتوضيح من نصوص كتبت ولعد مر
المعاد:

- قوله: فتتهيج فيها (الأصوات) العاطفة العاطفة ، وتبعث للرغبة الرغبة^(١)
- وقوله: «وكأنما ينزع نفسه من نفسه»^(٢)
- وقوله: «لأن المدرك منارك فرد واحد ، والهوى هوى نوع بلسر»^(٣)
- وقوله: «بخالجه الغضب كما يخالجه الطرب»^(٤)
- وقوله: «ولكنه (أي العشق) غريزة يراد بها بقاء النوع كله وتصل حل
الحياة جيلا بعد جيل»^(٥)

يمكن أن نرى لبعض هذه الاستخدامات وظائف خاصة ، كأن تكون
الوظيفة هي الوصف في نحو «جيلا بعد جيل» ؛ أي لجيالا متتابعة ، ولكننا لا
نرى في غيرها إلا وظيفة سبكية خالصة Cohesive Function يقتضيها
التركيب ، لا بلاغية يقتضيها المقام . مثل هذه الحالات لا موقع لها من الأتم
في دراستنا .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يمكن للتمييز بين أنواع ثلاثة للتكرير على
مستوى الشكل ، وفقا لما يتبجح لنا استقراء النصوص المختارة ، وهي:

(١) الغزل الطبيعي ، من كتابه : الفصول ص ٩٥ .

(٢) لمرجع السابق ص ٩٦ .

(٣) لمرجع نفسه ص ٩٩ .

(٤) لمرجع نفسه ١٠٢ .

(٥) لمرجع نفسه ص ٩٩ .

- ١- تكرير المكرر بذاته ، سواء أكان لفظاً مفرداً أم غير ذلك ، في منطوق و لحد ، لم غير ذلك .
- ٢- التكرير في هيئة عنصرين من مادة واحدة .
- ٣- التكرير بإعادة الصياغة .

لما (النوع الأول) ، وهو تكرير المكرر بذاته ، فقد يكون لفظاً مفرداً ، كقول طه حسين في سياق دفع دعوى أنصار القديم: «هأن كقوا كذلك ، فهم خليقون بالرحمة والمطف والإشفاق . وكيف لا ترحم من يحيا راعما ويلذ راعما ويلام راعما!»^(١) . وقول مصطفى محمود في سياق تبريره دعواه بتغير حال الدنيا: «والكلام في وسائل الإعلان عن التلوث: الهواء الملوث، والماء الملوث ، والطعام الملوث»^(٢) . وربما امتد تكرير اللفظ في النص الحجاجي العربي امتداداً أبعد كثيراً حتى يبدو لنواة الكبرى في تشييد دعواه الرئيسية . ومن ذلك مثلاً كلمة «متعددة» في نص «التعدد في حياة الإنسان» لمحمد زكي عبد القادر ، ومنه قوله: «الإنسان من حيث هو إنسان له ارتباطات متعددة ، وعمره على هذه الأرض له مراحل متعددة، ونظرة إلى الأمور له وجوه متعددة ، وهو من حيث إنه إنسان له عقل ، تخطر عليه تساؤلات متعددة ، ومن حيث إنه إنسان له قلب تضطرب في قلبه عواطف متعددة ...»^(٣) .

يريد الكاتب بالتكرير فيما سبق تثبيت تبريره دعواه ، حيثما يكون استبقاه

(١) مقال «القديم والجديد» من كتابه : حديث الأربعاء ٣١/٣ .

(٢) مقال «نشودة الأمل» من كتابه: كلمة لسر ، كتاب اليوم - دار أخبار اليوم (١٩٩٨) ص ١٥ .

(٣) مقال «التعدد في حياة الإنسان» من كتابه: الله في الإنسان ، مرجع سابق ص ١١ .

المكرر في الزمان والمكان وسيلة لتحضض ضده .

في حالات أخرى يجعل للكاتب المكرر بذاته وسيلة لغوية للوصول إلى الهزة بالخصم ولضخ جهله . نضرب مثالا على ذلك قول طه حسين عن خصمه الرلمي: «إذا كان لي أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يعشقون التقديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة ، فهي أن يصدقوا حين يكتبون ، فقد كان القديما صادقين حين يكتبون ، ومن هنا فهمنا القديما ، ولم نلهم هؤلاء السادة «المتقدمين»!»^(١)

في عبارة «هؤلاء السادة المتقدمين» سخرية واضحة بالخصوم الذين تكلفوا نهج القديما على غير علم ، وقد مهد لهذه السخرية تكرير لفظ «القديما» قبلها .

ولعل طه حسين أكثر الحجاجيين المحدثين استخداما لبلية التكرير قصد السخرية بالخصم . وتكشف سياسة السياق اللغوي مع تلك البنية عن كفاءة اتصالية حجاجية عالية . نؤكد ذلك بمثال آخر هو قوله: «لقد يكون من الحق على الرلمي لو أنصف نفسه أن يعلم أنني من قوم قد بلوا السفهاء فأصنوا بلاءهم ، ، وإن رجلا يحتمل السفهاء مثل ما نحتمل ... لخليق ألا يضيق صدره إن زاده الله على هؤلاء السفهاء ولحدا ، أو يبسم ثغره إن نقص الله من هؤلاء السفهاء ولحدا»^(٢) . ولعل «السفهاء» في النص السابق لربع مرات . يمكن في الموضوع التالي استبدالها بالضمير أو اسم الإشارة المناسب . ويمكن في الموضوعين الثالث والرابع الاستغناء عنها ، ولكن الكاتب قصد بتكرير اللفظ

(١) مقال لحسن في ، من : حديث الأربعاء ١٢٦/٣ .

(٢) لمرجع السابق ١٢٧/٣ .

تحتاج خصمه - موصوفاً بالسفه - مع كل مرة | التكرير هنا إذن وسيلة لإقناع الخصم عن طريق إحضار زعمه وكشف حقيقته .

من ناحية أخرى ، قد يكون المكرر بذاته عبارة أو جملة . ويقع ذلك في المقدمات لتقرير المعطيات ، كما يقع في التبريرات والدعاوي جميعاً . ولقد انتباه هنا تكرير الجملة في الدعوى ، سواء أكانت المقدمة دعوى الحجاج لم ولعت المقدمة والدعوى في مكثيهما المعتادين . في مقنة حجاجه ، نرى للكندي هذه الجملة: «إنما المال لمن حفظه» . وفي نص دعواه بكرر هذه الجملة مع جمل أخرى برهن فيما سبق من خطابه على صحتها بالتبرير: «بالمال لمن حفظه ، والحسرة لمن ألتفه»^(١) . بكرر طه حسين على أنصار القديم نصرهم القديم في الوقت الذي يستمتعون فيه في حياتهم الخاصة بأحدث ما اخترعت الحضارة ، فيقول: «ولقد أريد أن أرى بين أنصار القديم أولئك الذين لا يزالون يأكلون ويشربون في الصحاف والأكواب من النحاس والفخار وقد جلسوا على حصير ورفضوا الكرسي رفضاً ، وأبوا أن يستمتعوا بكل ما تاحت لهم الحضارة الحديثة من أدوات الترف واللذة البريئة - أريد أن أرى هؤلاء ، ولكني بانس من رؤيتهم»^(٢) . التكرير هنا تعبير عن رغبة أحد طرفي الحجاج الملحة في أن يثبت الخصم ما يبرهن على صلاحية معتده ، ولكن تظل هذه الرغبة غير متحققة ؛ لأن ما يصدر عن ذلك الخصم يصاد ذلك المعتد .

في مواقع أخرى ينقض طه حسين دعوى الخصم بحكم صريح ، بكرر منطوقه تثبتاً لمضمونه ورغبة في رجوع الخصم عما ادعى . من ذلك مثلاً

(١) البغلاء ص ٧٨ .

(٢) مقال «القديم والجديد» من كتابه ، : حديث الأربعاء ٢٢٣ .

العبارة «ليس منقديم الصالح في شيء» المكررة بصدر كل منطوق فيما يلي: «ليس منقديم الصالح في شيء أن تتغير الحياة أمامك دون أن تشعر بهذا التغير أو تلتام بينه وبين اللغة . وليس منقديم الصالح في شيء أن تكثر الأشياء المستحدثة التي تصطنعها في كل يوم بل في كل ساعة ، فلا تستطيع أن تتطرق باسمها إلا إذا وجدت لها اسما عربيا ورد في المعاجم اللغوية القديمة . ثم ليس منقديم الصالح في شيء أن تشعر الشعور الذي لم يكن يشعره غيرك من القنماء ، فلا تستطيع أن تصفه إلا على نحو ما كان يصفه القنماء ... ثم ليس منقديم الصالح في شيء أن تأخذ نفسك بسلك سبل القنماء في وصف الجمال ، فلا تعرف من فزون الشعر والنثر إلا ما عرفوا»^(١).

وتكرر الجملة جزءًا من منطوق كامل في عجزه أيضًا اقول محمد زكي عبد القادر في توكيده ولحذية مصدر أشياء عدة: «الأدب العظيم جاء من المعناة ، والفن العظيم جاء من المعناة ، والحب العظيم جاء من المعناة ، ...»^(٢).

يهدف للتكرير فيما سبق إلى تثبيت الدعوى أو تقرير المعطيات . إنه يهدف إلى جعل محتوى الجدال مفهومًا أكثر . إنه يزيد الفهم بجذب انتباه المستقبل وملتلكه .

لما (النوع الثاني) ، وهو التكرير في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة، فراه في غير نص من النصوص المختارة . يمكن أن نرى من ذلك قول إخوان الصفا: «واعلم أن إقدار الله للقادرين وتقويته الأقوياء وتيسير الأمور ليس

(١) المرجع السابق ص ٣٥/٣ .

(٢) مقال: من الأكم ينبع كل شيء عظيم ، من كتابه : الله في الإنسان ص ١٥١ .

رُشيد يستصحب عليها هنا حصره حصراً ونقبيده نقبداً ما نعالجه في هذه الدراسة قدر مستهل من المصادر الإبحارية للعربية. وإن كان كفاهاً لمرض صورة مناسبة عن تعديل القوة الإبحارية في الخطاب العربي (أولاً) وسائل التقوية،

يمكن أن نميز - في العربية - بين أربعة أنواع من الوسائل اللغوية المستخدمة لتقوية قوة المنطوق الإنجازية، وهي: وسائل التشكيل الصوتي Prosodic Devices، والوسائل التركيبية Syntactic devices، والوسائل المعجمية Lexical Devices، والوسائل الخطابية Discoural Devices.

ج1/ وسائل التشكيل الصوتي:

وتسمى أيضاً باسم الوسائل التطريزية. ويقصد بها نوع النغمة، والنبر، وجهارة الصوت، والنغمات التقلبية Contrastive Pitches (وهي النغمات الأدنى أو الأعلى من نغمة المتكلم العادية)، وجهارة الصوت التقلبية Contrastive Volume. هذه الوسائل جميعاً وسائل فونولوجية توظف في تقوية قوة المنطوق؛ كأن تقول: "نجي" لجهة جهازة الصوت الأقصى، وقد تستخدم جهازة الصوت الأدنى مع النغمة الأشد انخفاضاً لتمييز القوة الإنجازية لمنطوقات سلبية التأثير، مثل: "مفروراً". وقد تستخدم النغمة الأشد انخفاضاً لتمييز قوة المنطوق لإجابي التأثير أيضاً، كقولك: "ظريفاً" أو "عظيماً" ونحو ذلك.

المعول عليه في كل حال، هو سياق الموقف الذي يمين كنهه المعنى التأثيري للنموذج التشكيلي. بيان ذلك أن المنطوق الأخير مثلاً "عظيماً" يمكن أن يدل على معنى تأثيري يضاد الحقيقة، وهو - (إذ ذلك) - تعبير عن المعنى على سبيل المفارقة Irony Meaning. في مثل هذه الحال، سيدل المنطوق على ضد معناه الحقيقي أو الحرفي من أجل ذلك سيستلزم المنطوق نغمة هابطة ساخرة وجهارة صوت منخفضة.

والنبر التعبيري من النماذج الفونولوجية التشكيلية الدائرة في خطاب المواجهة. يستخدم النبر القوي لتمييز قوة المنطوق الإنجازية، كقولك: "قطيعاً" لودلك بنبر المقطع الأخير نبراً قوياً، تعطل معه الحركة الطويلة مطلقاً زائداً يناسب تمييز معنى الاستحسان أو الاستهجان وفقاً لإيجابية المنطوق أو سلبته.

حدير بالإشارة أن الوسائل الفونولوجية التشكيلية ليست من بنية المنطوقات في الشفرة المكتوبة. وعندما ينص عليها الكتاب، فإنه يدل بذلك على أهميتها ولزومها من حيث هي محدثات صوتية سياقية مهمة في تفسير لغوي. يكثر ذلك في لغة القص وفي الحوار المسرحي الذي يحاكي الحوار المنطوق في الواقع. من أمثلة ذلك في لغة القص ما يرويهِ الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) عن أحد بخلائه: وهو ابن أبي المزل، قال: "لما حضر وقت الغداء، صوت بفلامه وكان ضحكاً، جهير الصوت، صاحب تقمير وتصميم وتشديق وهمز جزم - يا مبشرا مات من الخبز تمام عدد الرموس" "جهازة الصوت والتقمير ونحوهما وسائل فونولوجية تشكيلية اتخذها ابن أبي المزل في كلامه، من أجل تعزيز قوة المنطوق التوجيهي الإنجازية.

ج/٢ الوسائل المعجمية :

يقصد بالوسائل المعجمية ما قد يستخدمه المتكلم - في بعض السياقات الاتصالية - من عناصر معجمية تضيف قوة إلى قوة المنطوق الإنجازية. وتتوسع صور التقوية هنا وفقاً لما توجه إليه هذه العناصر؛ فقد توجه إلى المتكلم، أو إلى المستمع، أو إلى المحتوى القضوي.

ج/٢/١ المقويات الموجهة إلى المتكلم :

يقصد بالمقويات الموجهة إلى المتكلم Speaker-oriented boosters العناصر المعجمية التي تشير إلى صدق المتكلم أو ثقته بما يعلم. أمثلة: "أنا أعلم من قصص مكتوبة أدبية :

- " لقد عجبت يومئذ من هذه الوهلة؛ لأنني (أعلم على التحقيق) أن الفناء شاهدت المكتبات في المدرسة، وشاهدتها في البيت" (١١).
 - " على أنني (أعتقد) يا صاحبي أن الطرد الوحيد الذي فتح لنا من هذه النهايات، هو طريق كتبت عليه كله"؛ "أحده، لا تتبدل في مشكلة من المشكلات وهي كلمة "التعاون" (١٢).

١١ - انظر مرجع سابق ص ٨٥.

١٢ - انظر مرجع سابق ص ٨٥.

١٣ - انظر مرجع سابق ص ٨٥.

- وإنسي (الأؤكد لك) أنني لو ملكت الفصل قولاً وعملاً في قضية المذاهب الاجتماعية، لأوحزت الحكم وحسنت الخلاف^(١).

- إنسي (واثقة) أنك لن تفعلني شيئاً^(٢).

مما ينبغي لنا ملاحظته هنا أن هذه العناصر المعجمية القوية الموجة إلى المتكلم تشيع في الشفرة المنطوقة بخاصة: لقيام الموقف الاتصالي على التفاعل المباشر، ومن ثم يكثر أن يدور في المحاورات ما يسمى باسم القواطع الأسلوبية Style Disjuncts، نحو: بأمانه، صراحة (بصراحة)، بصدق.... وغيرها :

- (بصراحة) هذه عيشة مضمّنة^(٣).

ج/٢/٢ المقويات الموجة إلى المستمع :

يقصد بالمقويات الموجة إلى المستمع hearer-oriented boosters العناصر المعجمية التي تشير إشارة ضمنية أو صريحة إلى معرفة المستمع، أو إلى المعلومة التي تصنع خلفية مشتركة بينه وبين المتكلم. المثالان التاليان من بخلاء الجاحظ يوضحان ما سبق :

- أعلم أنني منذ يوم ولدتها، إلى أن روجتها، كنت أرفع من دقيق كل عجة حفنة، وكنا (قد علمت) نخبز في كل يوم مرة، فإذا اجتمع من ذلك مكوك بمتة^(٤)، لمن كلام مريم الصنّاع، وكانت زوجت ابنتها، فحلّتها الذهب والفضة، فسألها زوجها: أنى هذا يا مريم؟

- والنبيذ - (ما علمت) - والله يذهب بالحفظ أجمع^(٥). لمن كلام لابن غزوان - أحد بخلاء الجاحظ - وكان المكفي قد ضبطه متلبساً بسرقة مخدته، فزعم ابن غزوان أنه جاء إليه ليسوي رأسه، فلما صارت المخدّة في يده نسي ما جاء له^(٦).

في الشفرة المنطوقة تكثر عناصر معجمية خاصة، مثل: طبعاً، (أوافق

(١) المرجع نفسه ص ٤٢.

(٢) المتكلم، تزيين: الطعام لكل من، مكتبة الأمام، د ت ص ٣٧.

(٣) درة، عبد الطيف، عشاق عرب العاداة، سلسلة المسرح العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٥) ص ١٨.

(٤) لحنلا، ص ٢٤.

(٥) المرجع السابق ص ١١٩.

توكيدا لعقولة فقران الحياة بالآدم في شتى حالاته .

و«رابعها» أن تتضمن الكلمة النقية الكلمة الأولى ، وهو أن تكون علاقة لثاقية بالأولى علاقة العام بالخاص . من ذلك مثلا قول العقاد في سياق محضه وهما شتماً بين فراء الشعر ، وهو أن شعر الغزل ينبغي له أن يكون مفرطاً في رفته بعيداً عن الحنف والقوة: «ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعتد الصوت لفظاً وحروفاً . فيبتدق الغزل من النفس المحترمة تنطقاً لويها علمياً»^(١) . فالعلم يتضمن القوى بالضرورة . وهو تضمن محدود بحدود الانتقال من درجة إلى أخرى لقوى . وهذا الشكل كثير للوقوع في النص الحجاجي العربي.

و(خامسها) وهو عكس الشكل السابق أي أن الكلمة الأولى هي التي تتضمن معنى لثاقية . ومن ذلك قول الإخشيدي في سياق احتجاجه لحسن سياسته ممالكة ورعيته: «وسيلستنا لهذه الممالك قريبا وبعيدها ، على عظمها وسعتها ، بفضل الله علينا ... وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية»^(٢) . السعة مضمنة في العظم . ولتضمن هنا محدود بحدود الانتقال من العلم إلى الخاص.

(النوع الثاني) وهو تكرير المضمون المبني على مفردتين في جملتين . ويستدل - من خلال فحص النصوص المختارة - على أنه أقل الأنواع وقوعاً فهو يمثل ٤.٥% من مجموع الأنواع الأخرى . ومن أمثله قول الكندي في سياق احتجاجه لحرصه على دراهمه تجنباً للفقير والحاجة: «كيف تأمروني أن

(١) مقال: الغزل الطبيعي ، من كتابه : الفصول ص ٩٦ .

(٢) كتاب الإخشيدي ، من كتاب : جمهرة رسائل العرب ٤١٩/٤ - ٤٢٠ .

لوثر أنفسكم على نفسي ، وأقدم عيالكم على عيالي؟» (١) . ومنه أيضاً قول مصطفى محمود في سياق تدعيم دعواه أن الحب هو رأس القضية: «وما كان لمسلميون الذين جاورنا غزاة طامعين على دين ، أي دين ، ولا كان سفاحو لصراب الذين يقتلون الأبرياء على أي ملة» (٢) ، وراف الكندي بين (لوثر) و(أقدم) في جملتين بالقطعة الأولى ، وراف مصطفى محمود في جملتين من قطعة الأخيرة بين (دين) و(ملة) . في الحال الأولى وقع المترادفان بصدور لجملتين ، ووقعا بعجز الجملتين في الحال الأخيرة .

(نوع ثالث) وهو تكرر مفردتين في ثنائية . يمثل هذا النوع حوالي ١٧٪ من مجموع الأنواع الأخرى ، أي ما يقل كثيراً عن سدس تلك الأنواع ، بينما وقوع ذلك النوع كثير نسبياً في النصوص الحجاجية القديمة إذا بالنصوص الحجاجية الحديثة يقل فيها لأن يقع تكرير المضمون على مستوى ثنائية لفظية من جملة واحدة . من أمثلة هذا النوع قول الكندي في دفع دعوى خصومه: «وزعت أما سمينا للبخل إصلاحا والشح لقتصادا ، كما سمي قوم الهزيمة حقيراً والبذاء عارضة ...» (٣) .

ومنه قول إخوان الصفا في سياق التماس على التظير دعماً للدعوى: «على هذا المثال حكم سائر الأعمال الصعبة والأفعال الشاقة» (٤) . ومنه أيضاً قول الإخشيدي في سياق شرح مذهب من في الأسر من رعيته: «وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر ، وشدة البأساء ، على نعيم الدنيا

(١) البخلاء ص ٨٠ .

(٢) مقال : الحب القديم ، من كتاب: الإسلام في خندق ص ٨ .

(٣) البخلاء ص ٧٩ .

(٤) رسائل إخوان الصفا ٣٦/٤ .

لا تعني قوة التزام المتكلم هنا التقرير قدر ما تعني التنبؤ من المحتوى بقصوي الذي أودع المنطوق؛ وذلك أن المستمع - كما معنا - يدرك أن متكلم يجاوز ذلك إلى تزويد منطوقه بقوة تعجبية، فجعله في الاستفهام بلاغي. وقد وقف غير واحد من الباحثين في نظرية أفعال الكلام على منطوقات الاستفهامية من هذا النوع، وأبانوا عن أنه مفترض من قبل، وأنه تنبؤ الذي يكسب المنطوق قوة⁽¹⁾. والتفت رأ هدسون R.A. Hudson إلى أسئلة البلاغية (أو المجازية) Rhetorical Questions معرفة إياها بأنها صيغ استفهامية ذات قوة تعجبية⁽²⁾. والتفت ج. ليتش G. Leech و ج. سفارتيفيك J. Svartvik إلى الفرق بين الأسئلة التعجبية التي تجر المتكلم إلى الموافقة في قوة، وبين الأسئلة المجازية الأخرى التي تبدو تلميحات قوية أو مؤثرة⁽³⁾.

أرى أن نجعل من الأبنية الاستفهامية المعززة لقوة المنطوق الإنجازية. أبنية: (لم لا تستطيع أن تفعل سر5). نرى أن هذا النمط يرتبط ارتباطاً وثيقاً جداً في قوته بالأمر المتلوب (لم لا تستطيع5). التركيبان: "لم لا تستطيع أن تتركها وحدها؟" و "أتركها وحدها، لم لا تستطيع؟" يمتلك كل منهما القوة الإنجازية ذاتها. وهما ينطلقان من بنية عميقة واحدة. ولا يمنع هذا من تفاوت أحدهما عن الآخر في شئ من خواصه؛ فالتركيب الأمرى مقيد بمخاطب، وغرضه محاولة التأثير فيه. أما التركيب الاستفهامي فغرضه بالأحرى التمييز عن أفكار أحدهم تجاه موقف بعينه. من أجل ذلك، نوافق أنا وريزبيكا Anna Weirzbicka الرأي بأن التركيب الاستفهامي، يمد في جوهره نوعاً من الانتقاد. وهو انتقاد مهيب، ولكنه فاقد التأثير. أما التركيب الأمرى فهو في جوهره نوع من التوجيه الذي يهدف إلى تصحيح موقف غير

(1) Kempson, R. M., *Presupposition and the Delimitation of Semantics*. London: New York: Cambridge Uni Press 1975) P.172

(2) Hudson, R.A.: *The Meaning of Question*. *Language* 51 (1975) pp 1-31, P 9

من عند الإشارة إلى غير هدسون Huddleston بين الاستفهام والسؤال، فالاستفهام مقرون من مقولات إشكالية لبحري، والسؤال مقرون من مقولات لقصي. يفت الاستفهام في مدس لإعلان (imperative) أو، كما سب حجة أخرى، كما السؤال مصدر صيغة من

الاجبات

Huddleston, Rodney: *The Contrast between interrogatives and question- form*. *Linguistics for Cambridge Uni Press* (1964) pp 11-26, P.11

(3) J. Svartvik, *Pragmatic Communicative Grammar of English*. Longman, London, 1974, pp 117-119

مما سبق يمكن عرض نموذج التكرير في النص الحجلي العربي على

نحو التالي:

(1) مثل : الألب المصري ، من كتابه : فصول من ١٠١ .

(2) مثل : لعب للقديم ، من كتابه : الإسلام في خلق من ٧ .

٢٤٩

يقصد بتأسيس الحجائية الوسائل الخارجة عن النص *extra textual devices* أو ما يسمى وسائل ما وراء العملية التداولية *meta pragmatic devices* . وما ينسج عن ذلك من وسائل لغوية مرعبة . تضيف قوة إلى قوة المنطوقات الإنجازية . وقد كان لعلم اللغة النسبي تقدمه إلى العناية بموقفه النص من خلال سلطته في سياقات اتصالية وكذلك تفهم مقصدية النص في إطار تداولية نصية . اهتمت بها نظرية التعامل اللغوي *Sprechhandlungstheorie* ونظرية أفعال الكلام *Sprechakttheorie* .⁽¹⁾

من أهم الوسائل الخطابية التي تتضافر في النص أو الخطاب تحقيقاً لهيئة التقوية تعيين الفعل الأدائي والتضارر والعلامات الرابطة ووسائل ما وراء الخطاب .

ج ١ / ٢ / تعيين الفعل الأدائي :

تعيين الفعل الأدائي وسيلة صريحة دالة على غرض المنطوق الإنجازي : نحو - أسألك ، أخبرك ، أحذرك ، إلخ . يحلو المنطوق غالباً من الفعل الأدائي اعتماداً على دور السياق ، مثل : زواجاً موفقاً إن شاء الله (أي : أرجو) .
وحيثما يمين المتكلم غرض المنطوق الإنجازي بفعل أدائي صريح ، فإنه يريد أن يحمل ذلك نوع توكيد أو تقرير للقوة الإنجازية . وكان أوستين يرى التصريح بالأفعال الأدائية مما يجعل قوة المنطوقات أوضح⁽²⁾ . وكان ليهنش يرى أن المتكلم يستخدم مثل تلك الأفعال عندما يريد أن يوقع نبأً خاصاً على قوة المنطوق الإنجازية⁽³⁾ .

(1) Wierzbick, Anna A Semantic op cit P 80

(2) Sowiński, Bernhard Textlinguistik Eine Einführung. Verlag W. Kohlhammer: Stuttgart, Berlin Koeln- Mainz (1983) S. 61

(3) Læch, G. N. Explorations in Semantics and Pragmatics. John Benjamins: Amsterdam (1980) p 69

يزيل تمام بن جعفر - أحد بخلاء الجاحظ المروءين - (في رده على شكوى أحدهم إليه ضرسه) يزيل غموض الفرض الإنجازي لمنطوقه الاستفهامي قائلاً: "(عجبت) كيف اشتكيت واحداً ولم تشتك الجميع"^(١).
ج/٢/٢ التكرار :

وهو وسيلة بلاغية مهمة يقصد إليها المتكلم لتقوية قوة المنطوق الإنجازية. يقولون: الشئ إذا تكرر تقرر. والتكرار تعرفه الشفرتان: المنطوقة والمكتوبة كليهما، وإن كان تأثيره في بنية الشفرة المنطوقة التلقائية أقوى. فضلاً عن تكرار المنطوق بتركيبه، قد يكرر بتفكير طفيف في هذا التركيب. ويمثل للحالة الأخيرة بالمنطوق التالي من كلام أبي مازن - أحد بخلاء الجاحظ - لجبل الفمر الذي لجأ إليه، فتساكر أبو مازن، وقال لجبل: "سكران والله، (أنا والله سكران)"^(٢).
ج/٢/٢ العلامات الرابطة :

العلامات الرابطة Linking Signals من الوسائل الخطابية الأساسية التي تميز قوة المنطوق الإنجازية. تعرف المربية كثيراً من تلك العلامات نحو: إلى جانب ذلك، فضلاً عن ذلك، علاوة على ذلك، أكثر من ذلك...إلخ. هذه العلامات نوع من الحشو الخطابي الذي تستخدمه المربية - فيما يثبت البحث اللغوي التقابلي - أقل مما تستخدمه لغات أخرى كالإنجليزية"^(٣).
تدخل تلك العلامات فيما يسميه هاليداي ورقية حسن باسم "روابط الإضافة Additive Conjunctions" من النوع الأول الذي يؤدي هذه الوظيفة العامة ذاتها: وهي وظيفة الإضافة: أي إضافة معلومة، أو تكملة كلام سابق"^(٤).

وقد تستخدم روابط من نوع آخر لوظيفة التقوية أيضاً، نحو: مع هذا، مع أن، على رغم كذا ونحوها. الرابط الأخير مثلاً يستخدم بقوة "أسلم بأن".

(١) السلا، ص ١٠٦.

(٢) برجع السابق ص ٤٠.

(٣) Williams, M. P. A Problem of Cohesion, In J. Swales and H. Mustafa (ed.) English for specific purposes in the Arab World. Birmingham: Language Studies Unit Aston Uni Press (1984) pp. 118-128, pp.124-125.

(٤) Halliday-Hasan Cohesion op. cit. pp. 242-243.

وهذه الروابط جميعاً مما يسميه هالداي ورهبة حساس باسم "روابط المخالفة" *adversative conjunctions* من النوع الأول الدال على هذه الوظيفة العامة داتها^(١). السمورحان التاليان يوضحان ما سبق :

- طارق: تريدان أن تتركبي هذا البيت؟

نادية: هذا ما فكرت فيه من زمن طويل.

السيدة: وأين كنت ستذهبين؟

نادية: هذا شأني وحدي.

طارق: دعها يا أمي تتخذ القرار الذي يريحها.. وسيدمشك أن أقول: إني أوافقها على هذا القرار ككل الموافقة.

السيدة: توافقها؟

طارق: (أكثر من ذلك) أقول: إني فكرت فيه منذ لحظات...^(٢).

- " قيل للحارث لمن بخلاء الجاحظا: والله إنك لتصنع الطعام فتجيده، وتمظم عليك النفقة، وتحكثر منه، وإنك لتغالي بالخباز والطباخ...، ثم أنت - (مع هذا كله) - لا تشهده عدوا لتفمه، ولا ولها فتسرّه، ولا جاهلا لتعرفه، ولا زائراً لتعظمه"^(٣).

ولاشك أن الروابط من النوعين السابقين ذات علاقة مباشرة بالموقف *Situation*، والوسط *Medium*، والتأثير المقصود *intended effect*. ولا ينضمل الحشو والترابط أحدهما عن الآخر انفصلاً كلياً، ولا يتصل أحدهما بالآخر اتصالاً كلياً في الوقت نفسه. كلما زاد الحشو زاد الترابط، ولكن زيادة الترابط لا تؤدي دائماً إلى زيادة الحشو^(٤).

يمكن أن نجعل لوظيفة التقوية روابط من نوع آخر، نحو: " إذن التي تدخل في الروابط السببية *Causal Conjunction* من النوع الثالث المسمى باسم الروابط السببية الدالة على الحال أو الملابسة *Condition / Circumstance*." من هذه الروابط " هكذا " التي تدخل في النوع الفرعي الأول من الروابط

(١) اربع نسل من ٢١٦-٢١٣

(٢) لغتهم نكل رقم ص ٨٩.

(٣) حلا ص ٦١

(٤) Halliday-Haasn Cohesion op cit on 242-243

المسببة أيضاً، هذا النوع الذي يدل على السبب والنتيجة *reason, consequence* النموذجان التاليان يوضحان ما سبق:

- الشاب: ولماذا لم تكثبي لي بذلك قبل عودتي؟
السيدة: ربما..

الشاب: هو (إذن) عمل تخجلين منه؟⁽¹⁾

- (توطئة ودورات ذاتية) (وهكذا) انطلقت في مخيلة صاحبنا أوهام وأشباح لا عداد لها في تلك الساعة القصيرة⁽²⁾.
ج/ ٤ وسائل ما وراء الخطاب :

تعرف العربية وسائل أخرى، ترتبط - من حيث الوظيفة - بالوسائل الخطابية ارتباطاً قوياً؛ هي المفردات والمبارات التي تمد وسيلة لغوية صريحة لإبراز وعى المتكلم الذاتي بمجرى الخطاب وحالته، وإن لم تكن من بنية النص المنطوق أو المكتوب، نحو: أشدد، أكرر، أعود فأكرر، أقول ثانية، قلت أكثر من مرة، دعني أشدد ... إلخ.

- السيدة : (قلت لك أكثر من مرة) دعيني أنا أتصرف⁽³⁾.

ومن وسائل ما وراء الخطاب ما يتجه إلى تقوية إسهام المشارك في التفاعل، نحو: كما تقول، كما قال فلان لتوه، كما ذكرت، كما ذكر فلان من قبل ... إلخ. هذا نوع آخر من مصادقة المتكلم على إسهام المستمع. والمصادقة نوع تقوية للمنطوق. نلاحظ هنا أن مثل تلك الإفعامات *Interjections* تتردد في العربية تردداً أقوى من لغات أخرى من غير فصيلتها كالألمانية والإنجليزية والفرنسية. لعل ذلك يرجع إلى أن العربية تتطلق من ثقافة شفوية تركت آثارها في خصائص السبك وهيئته.

(ثانياً) وسائل الإضعاف :

من سياقات الاتصال ما يحتاج إلى إضعاف المتكلم لقوة المنطوق الإنجازية. تعرف استراتيجية الإضعاف من الوسائل ما عرفته استراتيجية التقوية من حيث النوع، ولكنها مختلفة من حيث الكيفية.

⁽¹⁾ انصاف كجاءه ص ٤٦

⁽²⁾ انصاف كجاءه ص ٤٦

⁽³⁾ انصاف كجاءه ص ٤٦

ج ١/ وسائل التشكيل الصوتي :

من أهم هذه الوسائل: مسوب التنعيم، والتبر الضميف، وجهارة الصوت المنخفضة، وانفحة العالية في سياق مناسب :

لعب مسوب التنعيم دوراً كبيراً في حقل القوى الإنجازية في العرسة هناك نمط من التنعيم الهابط - الصاعد الذي يعبر عن السلوك المرعى عند المتكلم، وهو وسيلة فونولوجية مهمة لتخفيف قوة المنطوق الإنجازية. في مثل قولنا: " أنت أهـ ٧ و جـ " يخفص ذلك التنعيم حدة النقد، كما يخفص قوة المنطوق التوجيهي من الأمر إلى الالتماس في مثل: " املأ الفراغ ٧ أعلى " .

من ناحية أخرى، فإن تخفيف النبر على مقطع بالكلمة، وما يصحبه من انخفاض جهره الصوت، مما يؤدي إلى إضعاف قوة المنطوق، نبر المقطع الأول من الفعل " اكتب " نبراً ضميفاً يجعل الأمر إذناً بالكتابة فحسب في سياق مناسب.

أما النفحة العالية، فتستخدم - في سياقات خاصة - علامة على تجرد المتكلم أو اتصاله من مسئولية التصديق بصحة منطوقه. نطق المنطوق: " أنت فيلسوف! " في نفحة عالية يضمف من التصديق بصحة محتواه يستبطن من هنا أن النفحة العالية ليست دائماً علامة على تعزيز قوة المنطوق. في سياقات مناسبة تبدو النفحة العالية وسيلة صوتية تشكيلية لإضعاف القوة أيضاً. ولننظر الآن مثلاً إلى كلام ابن أبي المومل - أحد بفلاء الجاحظ - لراضاً صوته فيه بالتثويه والتشنيح هلتين من جملة لإخجال ضيفها: " هات يا مبشر لفلان شيئاً يطعم منه، هات له شيئاً " .^{١١}

سياق رواية الكلام يؤدي بنا إلى القول بأن النفحة التي استخدمها ابن أبي المومل فكانت نفحة اصطناعية متكلفه ناشرة Falsetto. التثويه والتشنيح في كلام ابن أبي المومل وسائل صوتية تشكيلية يحدد المقام مفزاها، وأنها من احتياله الماكر لإضعاف قوة الأمر انتظاراً لأن يرد الضيف- وقد اعتراه الخجل- " قد فعلت: أي " قد أكلت! " .

• مله حسين (العدد ١٥)

النسبة	العدد	النوع
٪٦٦,٦	١٠	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
x	x	بين مفردتين في ثنائية
x	x	بين مفردتين في جملتين
٪٣٣,٣	٥	بين جملتين أو أكثر

• المقاد (العدد ٢٢)

النسبة	العدد	النوع
٪٤٥,٤	١٠	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
٪١٣,٦	٣	بين مفردتين في ثنائية
٪١٣,٦	٣	بين مفردتين في جملتين
٪٢٧,٣	٦	بين جملتين أو أكثر

• المازلي (العدد ٢)

النسبة	العدد	النوع
٪٥٠	١	بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة
٪٥٠	١	بين مفردتين في ثنائية
x	x	بين مفردتين في جملتين
x	x	بين جملتين أو أكثر

• خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٢	٪٦٦,١
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	١	٪٣٣,٣

• خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	٥	٪١٠٠
بين مفردتين في ثنائية	×	×
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	×	×

• خالد محمد خالد (العدد)

النوع	العدد	النسبة
بين مفردتين أو أكثر في جملة واحدة	١٤	٪٦٦,٦
بين مفردتين في ثنائية	١	٪٤,٨
بين مفردتين في جملتين	×	×
بين جملتين أو أكثر	٦	٪٢٨,٦

والتعطيف بأنماط خاصة من الاستفهام، ونفي الصيغة، والمعدول
أما الأسئلة التذييلية، فهي الأكثر استعمالاً لهذا الفرض. في ندائوية
أفعال الكلام، نظر إلى الأسئلة التذييلية من حيث هي مضمونات لأفعال
بكلام غير المرحب بها Unwelcome Speech Acts. من ذلك قولك: "أنت كنت
معه، ألم تكن أنت؟" أو "أنا كنت على حق، ألم أكن هكذا؟"، وذلك
عندما يؤدي كل منهما إلى تفهيم استفهامي صاعد، ينظر إليه على أنه طريقة
الطغ للإخبار بأنك "كنت معه" وبأنني "كنت على حق"، على التوالي دون
تنهيل. جعلت أنا ويريبيكا وصفها للبنية الإنجازية للجمل الإعلانبة
declarative sentences على النحو التالي:

- أرى أن س.
- لا أريد أن أقول بأنني أعرف أن هذا صواب.
- أريدك أن تقول بأنه صواب، أو بأنه غير صواب.
- أزعم أنك ستقول بأنه صواب.
- وإذا كانت الجملة الإعلانبة متعلقة برأي بعينه، لا بمسألة حقيقية، فإن
نقوة الإنجازية سوف تضم أكثر من مكون واحد، نحو ذلك المثال الذي
نضربه ونصفه لنا أنا ويريبيكا:
- ماريا لطيفة، أليس كذلك؟
- أرى أن س.
- أزعم أنك ترى الرأي نفسه.
- لا أريد أن أقول بأنني أعرف أن هذا صواب (أي أنك ترى الرأي نفسه).
- أريدك أن تقول بأنه صواب أو بأنه غير صواب.
- أزعم أنك ستقول بأنه صواب.

النمط السابق من الاستفهام التذييلي هو ما يطلق عليه فريزر Fraser اسم
التذييل ذو الاستقطاب المتناظر Contrastive Polarity Tags. أما النمط الآخر
فهو ما يطلق عليه اسم "التذييل ذو الاستقطاب المتماثل Matching Polarity
Tags". مثل: "الحو حار، حار؟"، "يتراوح هذا النمط الأخير بين وظفتين

...بعضه مما يهدى نوقفه عن الحرم بصحة القضية المحبر عنها بالمنطوق. وهذا
١٠٠ - صراف لقومه الإنجارية

وأما ما لاحظه هريزر، من تعبير منسوب التعظيم الهابط في التذييلات،
من الاستثناء والصحاح، مما يناسب حالة بعينها؛ هي أداء التذييل في منسوب
...مهم غامض هجومى، لا ينتظر معه إسهام المستمع في التفاعل. من ناحية
أخرى، فإن زعم هريزر بأن التذييلات الصاعدة تعبر دائماً عن رضا المتكلم،
مستطدم بمسئوقات مثل: " هذا كتابي، اليس هو؟ " حيث ينطق التذييل هنا
بإعانة مساعدة، ولكنه - مع ذلك - يرمي إلى تلطيف قوة الاتهام. والاتهام
لا يبردها عن رضا المتكلم.

سالك نمط آخر للتذييل، هو تذييل الأمر بجملته استهامية، يكشف هذا
نمط عن مجال واسع من القوى الإنجازية المشفرة فيه، وهي قوى إنجازية لا
يصرح أن تعبر عنها بواسطة أعمال أدائية، مثل: " اجلس، الا تريد؟ "؛
والتذييل هنا ينعكس الرغبة في أن يكون المتكلم مهذباً مع زائر مهمز.
"تذييل" الا تريد؟" يستلزم رؤية الفعل الكلامي شيئاً يتوقع معه رغبة
مخاطب في فعله، وهو يختلف عن مثل قولنا: " اجلس، هل ستجلس؟ " الذي
يستلزم النظر إلى الفعل الكلامي على أنه شئ يريد المتكلم. استخدام " الا
تريد؟ " في موقف ينظر فيه إلى الفعل الكلامي على أنه من مصلحة المخاطب
لا من مصلحة المتكلم، وتوظيف هذا التذييل في تلطيف قوة الأمر السابق
عليه، وحمل الخطاب مهذباً، مما يجعل الاستهام التذييلي الملق بالأمر
وسيلة تركيبية فعالة من وسائل تلطيف القوة الإنجازية في سياقات اجتماعية
خاصة. وإذا كان للتقوية درجاتها، فللإضعاف تبدو درجات الإضعاف مع
تذييل: " الا تريد؟ " في إنزال الأمر إلى المرض. وهذا يتوأم مع تقديم " الا
تريد؟ " الفعل الكلامي على أنه شيء يرى المتكلم أن مخاطبه يريد أو
يرغب في فعله. كذلك لا ينبغي أن ننظر إلى التذييل " هل ستجلس؟ " على أنه
يصر عن مشاعر سلبية تجاه المستمع. لاحظ استعمال هذا التذييل غالباً لإنزال
قوة الأمر إلى قوة الانتماص. ويتوأم هذا مع تقديم " هل ستجلس؟ " الفعل
"كلامى على أنه مرغوب منه من جانب المتكلم.

صكاه صادق Sadek ممن بطروا إلى الأمر الملحق بسؤال على أنه وسيلة من وسائل تلطيف قوة الأمر المباشر أو الالتماس الخشن. اجتهد صادق في أن يبرز إلى حقل البحث الخلفية الحضارية لاستعمال الأمر في اللغة، يقول: " يبدو لي أن المسألة أعظم من كون الأوامر الملحفة بأسئلة تاديباً، وأعظم من كون الأوامر المجردة منها غير تاديب. أنا لا أرى حفاظة الأوامر جزءاً من معناها".

أحسب - على رغم ذلك - أن هناك قوانين محددة حضارياً لاستعمال اللغة، هذه القوانين التي تبين لنا أن من الفطاطة أو قلة الأدب أن نلتصق شيئاً التماساً مباشراً ممن هو نذ لنا، أو ممن هو أرفع منا اجتماعياً⁽¹⁾.

وأما التلطيف بأنماط خاصة من الاستفهام، فمنه الجملة الاستفهامية من النمط: "لماذا لا تفعل سر؟" في سياقات مناسبة، يتضح لنا أن جملة من هذا النمط، يقصد بها الدعوة إلى فعل شئ، أو عرض فعله، أو اقتراح فعله، أو التماس فعله، مثل: "لماذا لا تزورنا الليلة وتتناول معنا المشاء؟" "لماذا لا ترحبنا، أو "لماذا لا تجرب شيئاً من هذا الكعك؟" "عرضاً أو "لماذا لا تتصل به، إنه يستطيع مساعدتك" "اقتراحاً أو "لماذا لا تكف عن هذا اللغو" التماس أو انتقاد!

غني عن البيان أن التعبير بالأسلوب الاستفهامي المضمّن معنى المرض أو الاقتراح ونحوهما، يعني أن المتكلم لا يحاول أن يفرض رغبته على المستمع، بل يحاول أن يوجه اهتمامه إلى شئ يستحسن فعله فحسب، وهذا نوع تلطيف لقوة المنطوق الإنجازية.

وصكاهت ويرزبهكنا ممن عنوا ببحث هذا النمط من الاستفهام ووصفه دلاليًا، جرى وصفها له على النحو التالي:

قول أريدك أن تقول - إن استطلعت - لماذا لا يفعل سر؟

- أرفع أنك لن تستطيع (قوله).

- أرى أنه شئ طيب إذا فعل.

- أقول هذا، لأنني أريدك أن تفكر فيه وأن تقول إذا سكنت تريد أن

(1) Sadek, Harold, M. Toward a Linguistic Theory of Speech Acts, op. cit. P 114

الفصل الخامس
الصورة والثقافة والاتصال

١- توطئة :

الزيادة السريعة في رقة الصورة على خارطة الثقافة الإنسانية تقف وراء وصف عصرنا بأنه "عصر الصورة"، كما أن الطبيعة الرمزية للصورة بأجناسها مكافة، هي التي دفعت إلى القول بأن صورة واحدة تساوي ألف كلمة. الصورة - كما يقول ريجيس دوبري Régis Debry في كتابه القيم (حياة الصورة وموتها Vie et Mort de l'Image) رمزية، غير أنها لا تملك الخصائص الدلالية للغة؛ إنها طفولة العلامة. ولا يخفي أن هذه الأصالة تمنحها قدرة على الإيصال لا مثل لها؛ فالصورة ذات فضل لأنها أداة ربط، لكن بدون مجموعة بشرية متماسكة، تنشي الحيوية الرمزية^{٢٤}.

يمكن أن نضيف إلى الحيوية الرمزية التي أشار إليها ريجيس دوبري الطبيعة الاختزالية للصورة بعام، بما في ذلك الصورة الشعرية. ما تقوله الصورة الشعرية غالباً في كلمات قليلة يحتاج لمادته وتأويله إلى كثير من الكلمات. وما تقوله رواية في صفحات عديدة يمكن للصورة السينمائية أن تقوله في صورة واحدة؛ وذلك اعتماداً على طبيعتها الخاصة؛ فهي صورة مرئية يحكمها قانون أن ترى يعني أن تختصر.

بينما ربط الصورة بالوعي والثقافة من مجالات الدراسة المعروفة في نظرية الصورة غير الأدبية، إذا به كالأرض المجهولة التي لم تستكشف بعد في نظرية الصورة الأدبية. ما أكثر العلوم وما أشد تنوع المناهج التي درست بها الصورة الأدبية من حيث هي بنية لغوية ذات غايات جمالية، ولكن ما أنر الإسهامات التي وضعت الصورة الأدبية في منظور الثقافة والوعي والاتصال.

ليست الصورة أثراً خلفه الإحساس فحسب، وليست نتاجاً جمالياً خالصاً لخيال مطلق أو واقع تصورهما وصفت الصورة بواقعيتهما؛ فهناك دائماً شئ ما تبنيه الصورة بطريقتها. إذا كان اختيار الكلمات يتضمن اختيار الموقف، اختيار نوع من التركيب الذهني الذي يشاهد الشئ من خلاله، أو يستوعب

٢٤ دوبري- ريجيس. حياة الصورة وموتها. ترجمة الدكتور محمد الزاوي. كرنها للشرق- لدر ليه، ٢٠٠١م ص ٢٤

الإطالة بالإضافة ، والإطالة بالتنويع .

(لولا) من الإطالة بالإضافة: قول مصطفى محمود:

- الابن يقتل لياه ، والأم تقتل ابنها (١).

٢+

١

والإطالة بالإضافة نمط بارز جدًا عند مصطفى محمود بوجه خاص .

(تقيا) ومن الإطالة بالتنويع: قول محمد زكى عبد القادر:

- من الأم ينبع كل شيء عظيم ، ولكن ليس كل ألم ينبع منه شيء

عظيم (٢).

٢+

١

يحر عن الصورة السابقة من الإطالة بالتنويع هكذا:

من ولكن ليس كل من أي هي إطالة باستثناء شيء ما من العنصر السابق

ومن الإطالة بالتنويع أيضًا قول إخوان الصفا:

- لم يصف الله إلى نبوة محمد الملك لرغبته في الدنيا ،

١

ولكن أراد الله أن يجمع لأمته الدين والدنيا جميعا (٣).

(١) مقال : نشودة الأمل ، من كتبه : كلمة لسر ص ١٥ .

(٢) رسائل إخوان الصفا ٢٢/٤ .

(٣) المرجع السابق ٢٢/٤ .

٢٠

ويجبر عن هذه الصورة هكذا: ليس من ولكن ص .
 (-) ولما التمسيد بالتمظيم ، فترى له في نصوصنا الحجاجية المختارة
 مرورا عدة ، من أهمها ما يلي:

(لولا) لتعظيم بالإشارة إلى الزمان ، ومنه قول إخوان الصفا:
 - فقام النبي بمكة نحواً من ثلثي عشرة سنة ،

١

ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة (١).

٢x

وتسمى هذه الصورة بالتمظيم الزماني المتقدم ، أي: أقبل ب .
 (تاليا) لتعظيم بالطريقة ، ومنه قول إخوان الصفا أيضا:
 - كان يوسف الصديق من الزاهدين في الدنيا ،

١

وهكذا كان داود (عليه السلام) وسليمان (عليه السلام) (٢).

٢x

ما سبق يمثل التوزي في علاقة التمسيد بالتمظيم في هيئة الطريقة من
 نوع الثاني وهو المقارنة . «هكذا» فيما سبق تضي: «بهذه الطريقة» ، ويقصد

(١) لمرجع نفسه ٣٣/٤ .

(٢) لمرجع نفسه ٢٣/٤ .

مقدمتها السؤال التالي: "هل في ديوان العرب أشباه أخرى غير الجماليات التي وقفنا عليها - وحق لنا - لمدة قرون ١٩٠٩".^(١١)

الإجابة عن هذا السؤال المحوري في دعوة الغدادي إلى تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره (وتسويقه) بغض النظر عن عيوب النسقية، إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه الثقافية^(١٢). ولأن الهدف من الدراسة التأسيس لنظرية نقدية ثقافية، فقد كان النص الشعري في بنيته اللغوية وإشكالياته الأيديولوجية الاهتمام الرئيسي.

ولعل في مناقشة الغدادي مفهوم "المجاز" من حيث هو قيمة ثقافية وليس قيمة بلاغية - جمالية كما هو ظاهر الأمر، ما ينهد في التمهيد النظري لدراسات الصورة بعامة من المنظور الثقافى.

أما دراسة الدكتور مصطفى ناصف، فهي تشترك مع دراسة الدكتور الغدادي في النقد الثقافى للشعر، ولكنها عبارة عن قرأتين شتى لنصوص مختلفة من الشعر العربي المعاصر، كأنما هنر لدعوى النقد الثقافى أن تتكامل تطبيقاً وتطبيقاً. وقد وضع الدكتور ناصف في مقدمة هذه الدراسة مقولات نظرية أساسية: كالقول بأن إسهام الشعر في الثقافة يتمد على طبيعته، وأن هذا الإسهام هو غالباً من قبيل الحفاظ على حيوية الحساسية وإثارة الخيال، وأن الغاية من قراءة الشعر إفساح السبيل لتصوير أفضل لثقافتنا^(١٣).

هذه المقولات الأساسية هي الخيوط التي ربطت كل القراءات في هذه الدراسة بخيوط واحد، هو استجلاء الجدل القوي بين الشعر ومجموع الثقافة. غير أن هذه الدراسة لم تول اهتماماً لما تتطوي عليه الصور الكلية في النصوص المعرومة من دلالات ثقافية، ولكن انشغالها بالكائنات الثقافية والرموز لا يستكثر منه كثير من التثاء والإعجاب. ينبغى لنا أن نجعل لثقافة الصورة وجهاً آخر، هو ثقافة الصورة الشعرية

(١١) الغدادي، عبد الله: النقد الثقافى، دراسة في الأسس النظرية العربية المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١ (٢٠٠٠م) ص ٧.

(١٢) المرجع السابق ص ٨.

(١٣) نفسه، ص ٧٧. وللشعر المعاصر، اعينته العربية النعمة للكتاب (٢٠٠٠م) ص ٨.

وعلى عكس جبوري وباربرا ، فهمت شيرلي لوستلر Shirley Ostler للتوازن على حقيقته . من الناحية النحوية ، تبدو العربية - وفقاً لـ شيرلي - مجاهدة من أجل تحقيق التوازن Balance ، على معنى التوافق الإيقاعي بين عناصر مترابطة . وهي ترى هذا التوافق (أو السيمترية) على مستوى نظم الجملة ، وفي تساوي عدد الوحدات المعجمية بين الجمل والعبارات (١) .

(١) راجع في تفصيل ذلك :

Ostler, Shirley, L. English in Parallelism of ... pp. 173-175.

الفصل الرابع
تعديل القوة الإنجازية
دراسة في التحليل التداولي للخطاب

كان يوري لوتمان - في دراسته سيمبوطيقا السبنا - قد حصر العلاقة على طول التاريخ الشري - في نوعين مستقلين ومتماثلين ثقافياً. ويرى لوتمان أن وجود كل من هذين النظامين أمر ضروري لتطور الثقافة⁽¹⁾.

إذا انتقلنا إلى مفهوم الثقافة، رأينا يضيق نارة حتى يقتصر على الأنشطة والنتائج الفكرية والأدبية والفنية، ويتسع نارة أخرى حتى تعرف الثقافة بأنها ما يجعل الحياة تستحق أن تحيا. مصطلح الثقافة - كما يقول سالزمان (Salzman) - مصطلح شامل "all-inclusive". يفهم هذا المصطلح على أنه يشير إلى النموذج الكلي للسلوك الإنساني المكتسب الذي يرثه جيل عن جيل. وعندما نتحدث عن الثقافة فإننا ذكرها ذكراً صريحاً هو من نافذة القول، وذلك أن أي لغة ليست إلا شكلاً من أشكال السلوك المكتسب ومن ثم، فهي جانب من جوانب الثقافة⁽²⁾. ويرى منظرو مدرسة فرانكفورت في علم الاجتماع - كما يقول إيان كريب (Ian Craib) - أن الثقافة هي السبل التي تتبعها المجتمعات والأفراد لوضع تصور عن العالم، وأنها العامل الوحيد لدمج الأفراد بالمجتمع دمجاً ناجحاً⁽³⁾. والثقافة - في مفهوم إدومند ليش (Edmund Leach) - عبارة عن تعاليد السلوك المعربة التي تقبل الانتقال⁽⁴⁾. ويذكرته من. إليوت - في ملاحظاته نحو تعريف الثقافة - أن ثقافة المجتمع هي الأساس؛ وذلك أن ثقافة الفرد تتوقف على ثقافة فئة أو طبقة، وأن ثقافة الفئة أو الطبقة تتوقف على ثقافة المجتمع⁽⁵⁾. ولا ينبغي - من وجهة

⁽¹⁾ ولقد يوري سيمبوطيقا السبنا: مقال ترجمه دكتور/ نصر حامد أبو زيد، دار إبيس المصرية - القاهرة (١٩٨٦) ص ٢٦٥ - ٢٨١ ص ٢٦٩

⁽²⁾ Salzman, Z. Language, Culture and Society, Op. Cit. p. 156

⁽³⁾ كريب، إيان: الطريقة الاجتماعية من مارسور إلى هيرمانس ترجمة دكتور/ محمد حسين علوم مراحمة دكتور/ محمد منصور سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت العدد ٢٢٤ (أول مجلة ١٩٩٤) - أبريل ١٩٩٩ ص ٣٢٢

⁽⁴⁾ Leach, Edmund: The Influence of Cultural Context on Non-Verbal Communication in Man in R. H. Hinde (ed.) Non-Verbal Communication Cambridge (1972) ٣٣ 315-347, p. 315

⁽⁵⁾ لاحظت من ملاحظته تعريف ثقافة ترجمة والتقديم دكتور/ شكوي محمد عبد فئة حصرية لشمس سكت (٢٠٠١) ص ٤٤

نظر إليوت - اعتبار المستويات العليا على حط من الثقافة أصعب من حط المستويات الدنيا، ولكن ممثلة لثقافة أفضل وعباً وأصغر تخصصاً. كان سالزمان قد ميز بين الثقافة غير اللغوية واللغة المناطرة تقسم الثقافة غير اللغوية عنده إلى ما يلي :

٧- الثقافة العقلية (Mental Culture): وذلك كالنظر إلى العالم "world view" وتوجهات القيم "value orientation".

٨- الثقافة السلوكية (Behavioral Culture): وذلك مثل مسح الأقدام قبل الدخول إلى المنزل أو القيام بعملية نقل قلب.

٩- الثقافة المادية (Material Culture): وذلك وفقاً لعض علماء الأنثروبولوجيا. وهي عبارة عن النواتج المادية للسلوك، وذلك أن مواد الثقافة المادية هي عادة حسيبة تطبق سلوك بعينه (كالمهارات اليدوية). أما الثقافة العقلية، فهي المعرفة^(١).

تدعونا صفة الجمع أو الشمولية في مفهوم الثقافة إلى القول بأن الصورة ظاهرة ثقافية بالضرورة. وبديهي أن العلاقة بينها وبين الثقافة هي علاقة الخاص بالعام، من حيث إن الصورة إحدى تجليات الثقافة العقلية. الصورة إنتاج لنظام من الماني يخضع لثقافة المجتمع الذي تتوجه إليه، وإن كانت ذات دور طلبي في استشراف المستقبل، فضلاً عن خصوصياتها في إنتاج ذلك النظام وبديهي أيضاً أن صفة الثقافة التي تقدمها الصورة مرتبطة بطبيعة الوسيط التعبيري الذي تظهر فيه، وبالغاية التي تنفيهاها: فالصورة الأدبية فكرة مبر عنها بالكلمات. والصورة الأدبية طريقة فنية لوضع تصور عن العالم لا تمسك به إلا بالتفاعل والتأويل.

ولا ينبغي المبالغة في أهمية العنصر الفكروي في الشعر، كما يقول ريتشاردز: لأن ذلك سوف يؤدي إلى إساءة فهم الشعر والتقليل من أهميته^(٢). إن الشاعر لا يكتب - كما يقول ريتشاردز - باعتباره عالماً، وإنما هو يستخدم هذه الكلمات لأن النزعات التي يثيرها الوضع الذي يتألف

(١) المرجع السابق ص ٦٨.

(٢) Salzman, Z. Language, Culture and Society, Op. Cit. P. 156

(٣) ريتشاردز، أ. علم الشعر، ترجمة دكتور محمد مصطفى بدوي، عن الكتاب (١٩٠١) ص ١٩.

بل لا يجد هذه الصورة دون غيرها في وعيه وسهلة لتخليج "تحريرة التي يعبر
سما سمرها والمسبطرة عليها"¹¹

ويبين التوسير أن الفن لا يمنحنا معرفة بالمعنى الدقيق للكلمة، ولذلك
ربما لا يحل محل المعرفة (بالمعنى والمفهوم الحديثين: المعرفة العلمية). لكن ما
محصا إياه يظل رغم ذلك محتفظاً بملاقة محددة خاصة مع المعرفة.
محصوبة الفن وفرادته هي أنه "يجعلنا نرى"، "يجعلنا ندرك"، "يجعلنا
بحس" بشئ ما يلمح ويشير مداورة إلى الواقع. إن ما يجعلنا الفن نراه - بتعبير
التوسير - هو الأيديولوجية التي ولد الفن منها، ويستعمل في مباحها،
الأيديولوجية التي يحرر الفن نفسه منها بوصفه فناً ويلمح في الوقت نفسه
فيها"¹²

ويرى يورى لوتمان أن مطلب الشعر - وينبغي بالتالي أن يكون مطلب
صورة بما هي بنية دلالية فيه - يتفق مع مطلب الثقافة بوجه عام: فالهدف
من شعر معرفة العالم، والملاقات التي تربط بين الناس، ومعرفة الذات،
بعض الشخصية الإنسانية في عملية التقدم والاتصال الاجتماعي. عبر أن
شعر - كما يقول لوتمان - يحقق هذا المطلب بصورة نوعية، ويستحيل فهم
شئنه الخاصة، إذا تعاضل المرء اليته وينته الداخلية"¹³

ويشير جاستون باشلار Gaston Bachelard إلى حاجة دراسة الصور إلى
مجموعة هائلة من المعارف. كما يشير إلى أن النقد المستند إلى المعكرو والموجه
لر "شعر لن يتقود إلى المركز، حيث تتشكل الصور الشعرية"¹⁴

لعل ما تقدم يؤكد حقيقة مهمة هي أنه مهما استطننا أن ندرس الصورة
رسة موضوعية، فإن إمكانية تقديم الصورة وجهاً موضوعياً للثقافة
سائدة أمر صعب ومحفوف بالخطر؛ وذلك أن الحقيقة التي تقدمها الصورة

11 - مع الشكر ص 11 - 12

12 - في نفس ذلك

13 - مع الشكر ص 11 - 12

14 - مع الشكر ص 11 - 12

15 - مع الشكر ص 11 - 12

16 - مع الشكر ص 11 - 12

17 - مع الشكر ص 11 - 12

18 - مع الشكر ص 11 - 12

19 - مع الشكر ص 11 - 12

20 - مع الشكر ص 11 - 12

21 - مع الشكر ص 11 - 12

22 - مع الشكر ص 11 - 12

23 - مع الشكر ص 11 - 12

24 - مع الشكر ص 11 - 12

25 - مع الشكر ص 11 - 12

النص العامة حقيقة نحيبه في مقاد احضيه تصاديه في احضادات
تسمية ونعميه

تري ان حنصر ان في ان هذا مفهوم نركض تدمة تصور بيبي
له ان ينسج لدراسة مضمون الصورة والخطبة التي يقدم به هذا نضمون معاً
تري لذلك المفهوم وجهين اثنين

إذا كانت الصورة نتاجاً فنياً، فإن الوجه الأول لذلك النتاج هو شكل
أنوار الثقافة التي تدخل في عملية الإنتاج ذاتها: معني بذلك تقنيات إنتاج
الصورة. ويمكن أن نطلق على ذلك الوجه اسم "نص الصورة" لأنه مرتبط
بالتسمية أو الشكل.

أما الوجه الآخر، فهو ما يمكن أن يستتبط من منظورات إلى العالم
وتوجهات القيم من مضمون الصورة. ويمكن أن نطلق على ذلك الوجه
خطاب الصورة: لأنه مرتبط بالتوجه أو المضمون. والعلاقة بين "نص الصورة"
و"خطاب الصورة" هي دائماً علاقة تبادلية، علاقة تآثر وتأثير، يبيّن نص
الصورة بالتقنيات التي تدفع خطابها على النحو الذي تريده إلى المتلقي. ويبيّن
نص الصورة بتقنية داخلية حيناً وتقنية خارجية حيناً آخر. وقد يجمع بين
التوعين حيناً ثالثاً.

يقصد بالتقنية الداخلية أن تكون من بين الوسائل التي يتيحها النمط
التصويري ذاته: كالصورة الاستعارية في الصورة الشعرية. ويقصد بالتقنية
الخارجية أو المستعارة دخول وسيلة أو أكثر من نمط تصويري آخر، عن وعي
أو غير وعي: كإدخال بعض الوسائل من النمط التصويري التشكيلي أو
السينمائي إلى الصورة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه - قياساً على "تراسل
الحواس" - اسم "تراسل الفنون".

إذا كانت الصورة العامة تنتمي إلى نمط بعينه من أنماط الثقافة في
تصنيف سألزمان السابق أو غيره من العلماء، وهو الثقافة العقلية والتي
مركزها المعرفة ومدارها النظرة إلى العالم وتوجهات القيم، فإن فضاء
الصورة الثقالية لا تحده حدود. لا سيما الصورة السينمائية التي تعرض لنا
بشي أنماط الثقافة العقلية والسوكية وأثادية (السينمائية الوثائقية).

١- نص الصورة وخطاب الصورة :

نخصص الكلام هنا عن ثقافة الصورة في بمديها النصي والخطابي بالوقوف على بعض النماذج من شعر نزار قباني (١٩٢٢ - ١٩٩٨). يذكر دارسو شعر نزار أسباباً موضوعية لرواج ذلك الشعر: مثل غياب الشعر الغزلي (الإيروتيكي) - أي الفرامي - الأمر الذي جعل نزاراً - كما يقول شاكسر نيبس - شاعره في اللاوعي الشعبي العربي، وأنه في ذلك غداً صادقاً متجاوزاً، وفي مصاف الجريئين الأحرار، وأنه استثمر في شعره الأول تقاليد التخلف الثقافي خير استثمار^(١).

والحق أن نزاراً هو الشاعر الجماهيري الأول في تاريخ الشعرية العربية كلها، ولا يكاد يدانيه شاعر جماهيرياً في غزله (الإيروتيكي) ولا في نقده السياسي الصريح. لم يدخر نزار وسماً في مهاجمة الأنظمة العربية في شعره الغزلي والسياسي جميعاً؛ لأنه يراها متخلفة اجتماعياً بشأن العلاقة بين الرجل والمرأة، ولأنه يراها متخلفة سياسياً بشأن العلاقة بين الحاكم والربعية. ولكن ذلك الجانب الموضوعي لم يكن ليفتح له باب هذه الجماهيرية العظمى على مصراعيه إلا إذا خرج إلى الناس بشعره إلى المنطقة الضنية التي يتوقون إليها؛ وهي منطقة " اللغة اليومية " وقد ممستها من روح شاعر لا يجافيه حضوره حرارة اللغة الشعرية وحيويتها وثراؤها التصويري والإيحائي.

هذه المنطقة فرضت على نزار - في وعي أو في غير وعي - أن يحقق في شعره المعادلة الصعبة بين كلام الناس وكلام شاعر من الناس، يكلمهم كما يتكلمون، ويصور لهم الأشياء والمواقف بمثل ما يصورون، فإذا خرج عن قالب لغوي ليحفظ للغة الشعرية طراقتها ومراوغتها خرج على ما يحفظون، أو على ما يمثل بطول المهذوب قوالب لغوية ثابتة في الذاكرة اللغوية الجماعية. يقول نزار الشعر كأنما يرتجل بين أيدينا الآن في غير غموض ولا عقيد.

١- في هذا شعر نزار في مجلة "صوت" - بيروت - ١٩٦٠، ص ١٠٠.

(1) الصورة والشفاهية الجديدة :

إن المدخل الطبقي إلى خطاب نزار الشمري هو ما يسمي عند التروانج W. Ong بالشفاهية الثانوية أو الشفاهية الجديدة في مقابل الشفاهية الأولية. يقول أونج: "أسمى شفاهية الثقافة التي لم تصبها مطلقاً أية معرفة بالكتابة أو الطباعة شفاهية أولية". إنها "أولية" بالتقابل مع "الشفاهية الثانوية" التي تتميز بها الثقافات ذات التكنولوجيا العالية في الوقت الحاضر، حيث تحافظ شفاهية جديدة على وجودها واستمرارها في وظيفتها من خلال التليفون، والراديو، والتلفاز، والوسائل الإلكترونية الأخرى التي يعتمد وجودها وأداؤها لوظيفتها على الكتابة والطباعة. أما الثقافة الأولية للشفاهية بالمعنى الدقيق فتكاد تنعدم اليوم؛ ذلك أن كل الثقافات الآن تعرف شيئاً عن الكتابة ولديها شئ من الخبرة بتأثيراتها. ومع ذلك، فإن كثيراً من الثقافات الثانوية لا تزال تحتفظ بدرجات متفاوتة - حتى في بنية ذات تكنولوجيا عالية - بكثير مما تتصف به الشفاهية الأولية من توجه عقلي⁽¹⁾.

في إطار ثقافة الشفاهية الجديدة يجب أن نوضح الصورة في خطاب نزار الشمري. الشفاهية الجديدة التي طبعت شعر نزار بطابعها القوي ليست مجرد مقردات وتراكيب وأساليب. إنها استخدامات خاصة وصور تمكس دائرة معارف المجتمع وتصوراته وفهمه. الاتصال الأدبي اتصال فني، والاتصال الفني اتصال اجتماعي، واجتماعية الاتصال عند نزار في شفاهية خطابه بعمامة، وشفاهية صورته بخاصة، بما تخلعه تلك الشفاهية عليهما من ثقافة وطريقة في التفكير وتصور للأشياء والعالم.

من السمات الشفاهية التي طبعت الصورة النزارية بطابعها توالي الصفات في نص الصورة الكلية. ومن هذه السمات أيضاً قرب الصورة من عالم الحياة الإنسانية؛ وذلك أن الثقافات الشفاهية - كما يذكر أونج - تصوغ كل

(1) أونج، والتر. شفاهية وكتابة. ترجمة: كتورا حس. لها من نفس ترجمة دكتور محمد صبور. عالم نثرية العدد 181 الكويت لشهر 111. ص 29-30. 1999.

عص من عصا عذراء يذوقها ويأكلها

و... والتكلم عنها... شحفظت حلفت ألتف الصلة... أحباء الإناث... يحكمها
... نوصوغي غير التلوث... العلاقات الإنسانية... شائفة
... سمات نعوية مثل... الفراع والدجاج والديوك والأسماك
... الخرفان ونحوها - بما ترتبط به في الثقافة الشعبية من
... مباشرة مما ألقه الشعر في رسم صورة يقول

والأخوة الكرام

نائمون فوق البيض كالجدجاج

(الميمفونية الجنوبية / قصائد مفضوب عليها ص ٧٥)

ويقول نزار:

فتحن مهبوسون في محلة التاريخ كالخرفان

(٧ / بانتظار غودو ص ٧٧)

وكذلك الحال مع علامات من حقل دلالي آخر: كالخبز والقطير
والفصح والسردين ونحوها. يقول نزار:

لا قصيدة تخرج من بين أصابعي

إلا وهي ساخنة كرقع الخبز

(أنا رجل واحد / أنا رجل واحد ص ٦٧)

ويقول:

أيتها المرأة المجونة بانوثتها

كقطيرة العسل

(أحبك وأقل القوس / أنا رجل واحد ص ١٢٥)

تتكسر مثل هذه الصور التشبيهية التي يجمعها بالفارسي خبرات مشتركة
ومعان مشتركة تصكراً شاعرياً بالغ الرفافة وتاملاً على نحو ما يعرف عن

التكبير الشفاهي بعامه، ولأن نرأى بيهن سباق النص لمثل تلك الصور، فإنها تأتلف معه ائتلاف الصدي باللحمة.

في هذا الإطار الشفاهي توضع أيضاً وفرة وافرة من الاستخدامات المحازية الشعبية في شعر نزار: كقوله:

فأنا المصـب بالكـبريت
وأحرق نفسي مثل جميع الأطفال

(استلا الحب يستحيل / أنا رجل واحد من ٢٠٢)

وقوله :

كـيف يـا سـيدي يـفـني المـفـني
مـل إذا مـات شـاعر عـربي
يـجـد الـهـوم مـن يـحـلي عـلـه
لا يـبـوس الـهـدين شـعري، وأحـرى بالـسلـاطين أن يـبـوسوا يـديه

(كيفية فصلك مضروب عليها ص ٨)

ويذكر أونج أن المجتمعات الشفاهية تمشي إلى حد كبير جداً في الحاضر. على نحو يحفظها في توازن من خلال التخلص من الذكريات التي لم يعد لها صلة بالحاضر^(١١)، وأن التقاليد الشفاهية تمكس قيم المجتمع الثقافية الحاضرة أكثر مما تمكس حب الاستطلاع المجرّد حول الماضي^(١٢). وهنا نلاحظ أن اشتغال صور نزار على قيم المجتمع الثقافية الحاضرة يدل عليها ندرة الصور الخيالية والتجريدية أمام الصور البصرية المشغولة بحاضر الشاعر والناس في الحب والسياسة (انظر مثلاً: قصيدة "لا غالب إلا الحب" من ديوان يحمل اسم القصيدة ذاته، وانظر أيضاً قصيدة "الوصية" من ديوان "لا").

ومما يلاحظ أيضاً أن صور نزار صور موقفة أكثر منها تجريدية. وهي بذلك تتفق مع سمة جوهرية في الثقافات الشفاهية، حيث تميل تلك الثقافات

١١ المرجع ص ١١١
١٢ المرجع ص ١١١

عندما يذهب القائد لم يذهب أبداً
 بل دخل الفرقة ككي يرتاح
 وسهـصهو حين تظـل الشمس
 فكما يـصـهو عطر التفاح
 الخبز سـأكله مـننا
 وسـشرب قهوتـه مـننا
 ونقـول لـه
 ويقـول لـنا
 القائد يـشمـر بالإرهاق
 فـظـلـوه يـفـقـو سـاعـات

يضرب نزار في مثل هذا المقطع عن عبد الناصر عرض الحائط بتقائيد
 نصيدة الرثاء الثقافية وأعرافها الفنية جميعاً. تعرض علينا مثل هذه الصورة
 الشكلية موقفاً اجتماعياً واهملاً اتصالية يومية عادية. هذه المغايرة أو
 الانحراف عن النمط الرثائي المألوف من خلال الصور الموقفية تستدعي
 بالضرورة مقولة هـ.ج. ودوسون H.G Widdowson السديدة: "على رغم أن
 لأدب لا يحتاج إلى أن يكون منحرفاً deviant من حيث هو نص، فإنه ينبغي
 له بطبيعته أن يكون منحرفاً من حيث هو خطاب".¹¹ على مستوى البنية

11- هـ.ج. ودوسون

11) Widdowson, H. G. Stylistics and the Teaching of Literature. Longman
 London, 1979, p. 47

النسبية يحنو المقطع السابق من أي خطير من مطاهر الأحرار. حكمه - من حيث هو خطاب في موقف عينه - منحرف دلالة الصور. الخطبه التي يلتقط القارئ حيويتها في صوء نسجها الاحتماعي. عن القوائف الشائنة والنباتات المفضولة

ونعل الإطناب التصويري جزء من الإطناب الذي تتميز به الثقافات الشفاهية. نلاحظ في كثير من شعر نزار إطناباً تصويرياً. مصدره توالي الصور المتغايرة أحياناً كثيرة، حتى تبلغ مبلغ الفوضى. ولكنها هوضى الأرتجال الجميلة: كقوله:

أريدك أن تكـونـي حبيـبـتي

حتى تتـصـر القـصـيدة

على المـسـدس الكـمـاتم للصوت

ويـتـصـر القـلامـيـذ

على الفـاـزات المـسـهـلة للدموع

وتتـصـر الـسـوردة

على سـراوة رـجـل البـوليس

وتتـصـر المـكـتـبات

على مـصـانـع الأـسـلـحة

(أحبك حتى ترتفع السماء/ لا غالب إلا الحب ص ٨٨)

أو قوله .

مـن عـلمـي

كيف أشـر كالتـفـاحة قلبي

حتى ناكل منه نساء الأرض جميعاً

كنت لـه عـبـداً

والحياة السياسية تتقطع عن ثورتها في حاصر أليم وطموحات مؤجلة. بلجاً نزار في بقده السياسي للاستبداد الممتد بجدوره إلى التصوير الساخر في إطار صور ككلية تستمد خيالها وعلاماتها اللغوية وتبني تأثيراتها على رسيد ثقافي مشترك. في سعي إلى تحديد الوعي بذلك الحاضر وبذلك الطموحات. نلاحظ هنا أن للصورة الككلية الساخرة نواة لفظية تستقطب في تأثيرها الدلالة الاجتماعية الحافة والمكتسبة من تحارب وخبرات يومية بسيطة: كالتطلبة والديك ونحوهما.

يقول نزار:

الحاكم يـضرب بالطبلة
وجميع وزارات الإعلام تدق على ذات الطبلة
وجميع وكالات الأنباء تضخم إيقاع الطبلة
والصحف الكـبرى والصـغرى
تمـلأ أهبـضاً راقـصة
في ملهى تملكه الدولة

(عزف منفرد على الطبلة / قصائد منضوب عليها من ١٣٦)

ويقول نزار في المقطع الحادي عشر من قصيدة "الديك":
حين يمر الديك بموق القرية
مزموأ، منفوش الشريش
وعلى كتفه ترضن نهاشين التحرير
يصرخ ككل دجاج القرية في إعجاب:
"يا سيدنا الديك".
"يا مولانا الديك".

(ب) الصورة وإشكالية التراسل

التراسل الذي نقصده هنا هو ما أسميناه بتراسل الفنون. أبدت الشعرية العربية المعاصرة وعياً أقوى بالتفاعل الخلاق بين الفنون في الغايات والوسائل. فضلاً عن تعابير اتجاهات الشعرية العربية المعاصرة في بنية الصورة الدلالية تعابيراً عاماً بين تجريدية في الاتجاه الرمزي الصوري والاتجاه الرمزي الأسطوري، وحسية موقفية في الاتجاه الواقعي الاجتماعي، فإنه يمكن القول بأن أهم ملامح التطور العام على مستوى التقنية منذ جيل الرواد حتى الآن هو تراسل الصورة الشعرية مع التصوير السينمائي والتشكيلي في التقنيات الأساسية. يمكن تفسير هذا التراسل بأنه موقف ثقافي من مسألة العلاقة بين الفنون. وهو موقف ثقافي عملي من الأساس، وإن أضح عنه بعض الشعراء المعاصرين في نظريتهم عن الإبداع الشعري الحقيقي، بل أفصحوا عنه في بعض عناوين القصائد والدواوين (أذكر مثلاً ديوان "الرسم بالكلمات" لثرار نفسه).

اختلف الباحثون في تعبير أقرب الفنون إلى الأدب يرى كل من ليسنغ وديدرو أن الرسم هو أقرب الفنون إلى الأدب. من حيث طريقة المحاكاة وتصوير الأشياء. أما غيورغي غاتشيف. فيرى أن الموسيقى هي أقرب الفنون إلى الأدب. ويرى غاتشيف أنهما يتباينان في طريقة التعبير عن الإيقاع العام للوجود والعالم الداخلي للإنسان¹¹. من ناحية أخرى، يشير غاتشيف إلى حاجة الشعر إلى الفنون التي اقتصت بالصور المادية التجسيمية: كالمعمارة والنحت: "ما دامت الصور المادية - التجسيمية في المعمارة والنحت هي، قبل كل شيء، الصورة المنطقية بالنسبة للوعي الفني في المرحلة القديمة، فإن الشعر، بنية تأكيد ذاته. يحس بحاجة إلى الاستناد إلى أحوته الكبار الذين هم أرسخ قديماً منه¹². وكان سيمونيد يعتبر التشكيل "شعراً صامتاً" والشعر "تشكياً صائناً"¹³.

من ناحية أخرى، عرفت محاولات شعبة الصورة السينمائية وتسميها

في التصويرات التي تروق السامعين وتروعيهم، والتخييلات التي تهز المدعوين وتحركهم وتضل فعلاً شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكّلها الحدائق بالتخطيط والنقش، أو بالنحت والنقر؛ فكما أن تلك تعجب وتخلب، وتروق وتوق، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، ويفشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه، ولا يخفى شأنه. فقد عرفت قضية الأصنام وما عليه أصحابها من الافتتان بها والإعظام لها، وكذلك حكم الشعر فهما يصنعه من الصور، ويشكّله من البدع، ويوقمه في النفوس من المعاني التي يتوهم بها الجامد الصامت في صور الحي الناطق، والموات الأخرس في قضية الفصيح المرعب والمبين المميز^{١١١}.

المشابهة بين الشعر والفنون الأخرى كالرسم والنحت ونحوهما في الغرض والفعل في النفس - على رغم الاختلاف في المادة - فكرة راسخة إذن في الثقافة العربية منذ قرون طويلة، وإن كنا - للأسف البالغ - لا نكاد نرى تطوراً لها في الفكر النقدي العربي إلا تلك الإشارات القليلة المتأخرة جداً عند بعض النقاد الحداثيين المعاصرين.

لعل رسوخ فكرة المشابهة بين الفن الشعري وفنون أخرى في الثقافة العربية يقود إلى الإشارة إلى أن ما نراه في كثير من القصائد السردية المعاصرة من تقطيع وكتابة شعرية سينارية ليس بالضرورة وليد تأثر الشاعر العربي المعاصر بتقنيات تصويرية سينمائية. إنها بالأحرى منبهات لا شعورية للمبالغة في المعنى عن طريق المحاكاة لمن آخر. قصائد سردية في عصور الشعر العربي القديمة بنيت على مثل هذه الكتابة الشعرية السينارية ولم تكن تقنيات التصوير السينمائي قد عرفت بالطبع بعد. انظر مثلاً إلى بعض قصائد عنتره في غزلياته الفروسية. وانظر إلى بعض قصائد البحري؛ كقصيدته المشهورة في وصف الذئب والصراع بين الذئب والشاعر. إنها سرديات سينارية من طراز عال لعل وجوهاً عدة للمشابهة بين نصوص شعرية قديمة وما نعرفه الآن في التقطيع التقني السينمائي أو مراعاة الأبعاد

^{١١١} انظر في هذا الموضوع كتابي "نهر الخطاب والاصطلاح" ص ١٠٠ - ١٠١.

لحسية والجمالية متوقفاً. وسم دكتور صلاح فضل شعرية نزار بـ "شعرية الحرس" ^{١١} وانبرى حسين العورى في رفضه تلك الدعوى لبيان أن أداة الحرس في نص نزار - انطلاقاً من ظاهرة "تراسل الحواس" أو ما يسميه العورى "الحس المترام" - ليست أداة بسيطة (أذن أو عين)، وإنما هي أداة معقدة؛ فما تكاد حاسة السمع - مثلاً - تفرغ حتى تتحول عن طريق التخيل من لمس إلى بصر، أو من ذوق إلى لمس إلى شم ^{١٢}

والحق أن العورى لم يفعل شيئاً، فما زالت التراسلات تراسلات بين الحواس. بيد أن نصوصاً أخرى غير قليلة من شعر نزار - على نحو ما رأينا في النموذج السابق - قد استحال فيها الجسد الأنثوي إلى لوحة فنية مقصودة لداتها، ولتكنها - من ناحية أخرى - تمكس مخيلة الشاعر الخصبة وحساسيته الجمالية البرينة من الاشتها.

في حالات أخرى تبني القصيدة كاملة على صورة شكلية من نمط "الصورة" - الحركة التي يعرفها الفن السينمائي: كالقصيدة - الصورة التالية التي يصور فيها رقصة شرقية، وعنوانها "ذئبة" من ديوانه (طفولة نهد ص ١٣٦ - ١٣٧)

.. وداسبت على أذرع الضوء ..
ترقص .. مهداء عنقه
كقافلة العطر .. تطوى المدى
سحبته إثر سحبته
تلب خلال المسابيح
نهراً .. أضغاع مصبه
على شمرها الفجري

^{١١} صلاح فضل، شعرية نزار، ص ١٣٦. ^{١٢} حسين العورى، "الحس المترام"، ص ١٣٦. ^{١٣} نزار، "ذئبة"، ص ١٣٦. ^{١٤} نزار، "ذئبة"، ص ١٣٦.

يــــئــــن مــــماء .. ورهــــبــــة
 وبلــــة نــــفرهــــا الكــــرزي المــــن
 تــــبرعــــم رغبــــة
 عــــلى نــــقلــــة الســــماق ..
 يهــــمــــر لــــجج .. وتخــــضل نــــرة
 وبلــــة مــــقلــــع لــــرخــــام ..
 هنــــالــــك ، تــــبــــض مــــضــــبة
 إذا انــــفــــمــــل اللــــحن .. لــــارت
 شــــفاها .. وصــــدرا .. ورهــــبــــة
 وئــــديا .. كزويــــمة الفــــل
 تمــــد إلى الســــنجم ظنــــفــــرا
 غمــــهــــماً .. تحــــاول جــــنــــبه
 وقــــد تــــنــــحنــــي مــــرة بلــــة الطــــريق
 لتــــلقــــط حــــمــــة
 إذا انتــــهر اللــــحن .. راحــــت
 تــــئــــن عــــلى الأرض .. ذئــــبــــة

يمكن القول بأن تمثل تقنيات الصورة السيميائية في الصورة الشعرية
 التي بنيت عليها القصيدة السابقة نوع من رغبة البلوغ بالصورة الشعرية أقصى
 درجات الحيوية والحضور. إذا كان تمثل الصورة الشعرية للصورة التشكيلية
 تمثل للمكان الذي يتسع للأبعاد والعلاقات بين الألوان، فإن تمثل الصورة
 الشعرية للصورة السيميائية تمثل للمكان والزمان في آن معاً، ذلك أنها تبني

على الصورة - الحركة. وليس الصورة التي تضاف إليها الحركة. يقول جيل دولور Gilles Deleuze: "لا تقدم لنا السينما صورة ستضاف إليها الحركة، ولكنها تقدم لنا مباشرة صورة - حركة. تقدم لنا بالتأكيد مقطعاً، ولكنه مقطع متحرك، وليس مقطعاً ساكناً - حركة مجردة".^(١١) تأتي القصيدة - الصورة السابقة على الحركة، وهي حركة متطورة: من دوس ورقص وطلي للمدى ونقل للساق ونبض للضباب (على الكفافية) وانفعال للحن وثورة للشفاة والصدور ... إلخ. الحركة حضور. وهذه الصورة - الحركة التي قامت عليها القصيدة تفتح لنزار نافذة أخرى على مطالعة جماليات الجسد الأنثوي في أوضاع حركية مختلفة تجود بها هذه الراقصة الغنثية!

في الصورة - الحركة السابقة تظهر بعض تقنيات الصورة السينمائية ومبادئها:

- ١- فالصورة السينمائية تقف على لحظات ما من الزمان، يمكن أن تكون مألوفة أو منفردة، عادية أو بارزة".^(١٢) وهنا يقف نزار عند تلك اللحظات المتميزة للراقصة وهي تتماطي الرقص في نشوة ومزاج عذبة وقد دل نص الصورة على ذلك لغوياً بالقطع ثم المطف على محذوف مدلول عليه كتابياً بالنتقنين في صدر البيت الأول من القصيدة.
- ٢- في إطار الصورة السينمائية أو اللقطة ما يسمى بـ "ضبط حدود الإطار Cadrage"، وهو عبارة عن تحديد منظومة مغلقة نسبياً، تحتوي على شكل ما هو مائل في الصورة: ديكور، وشخصيات، واكسسوارات. فالكامرا، أو إطار الصورة، هو مجموع من عدد كبير من الأجزاء: أي من العناصر التي تدخل هي نفسها في أجزاء - مجاميع Sous-ensembles".^(١٣) وفي هذه القصيدة - الصورة تلمب أذرع الضوء والمصاييح دوراً مهماً في إطار الصورة من حيث دلالتها على المكان والزمان، ويلعب شعر الراقصة الفجري، وثورها الكركزي، وسبقاتها المتقلبة دور المثيرات

(١١) دولور، جيل. الصورة - الحركة (ترجمة الصورة) ترجمة حسن حمزة مشورمات ووزارة الثقافة، دمشق (١٩٩٧)

ص ٧

(١٢) المرجع السابق ص ١٢

(١٣) المرجع نفسه ص ٢١

تعرف منطوقاته قوى إجمالية عدة. في الغرض الإجمالي الإخباري مثلاً يمكن أن نقول: 'ضاع' وأظنه ضاع' و'أسفاه، ضاع'. وفي الغرض الإجمالي التوجيهي، يمكن أن نقول: 'توقف عن الكلام' و'توقف عن الكلام، من فضلك' و'توقف عن الكلام راضياً أو غير راضٍ'. في كل من 'ضاع' و'توقف عن الكلام' نحصل على القوة الإجمالية الأبسط ذات الغرض الإخباري أو التوجيهي. وفي أظنه ضاع' و'توقف عن الكلام، من فضلك' تدخل علامة من علامات القوة هي فيهما علامة إنقاص في درجة القوة؛ لأنها تضعف قوة التبليغ في الغرض الإخباري، وتضعف قوة الأمر إلى قوة الالتماس بصيغة خاصة للتأديب، في تحقيقها الغرض الإجمالي التوجيهي (فالتكلم باستخدامه من فضلك' يمنح المستمع حق الاختيار في عمل محاولته بعمله يفعل شيئاً ما⁽¹⁾). وفي المنطوقين الأخيرين تدخل علامات القوة بالزيادة: تعلن 'أسفاه' عن أسف المتكلم الذي يتقله المحتوى القسوي، حتى يمتلك المنطوق قوة الأسف للوضع الراهن، وتلقي راضياً أو غير راضٍ حق المستمع في الاختيار، فيصبح للمنطوق قوة الجبر أو الإرغام على الفعل.

علامات القوة السابقة، سواء أكانت وسائل معجمية أم هيئات تركيبية تعد مفاتيح لغوية تقود إلى تعيين القوى الإجمالية والتمييز بين درجاتها. يضاف إلى

(1) يتضمن التأديب سبرجه عام - مراعاة مشاعر الآخرين. وكما تقول جانيث هولمز، فإن التأديب يعني لغوياً أن تخاطب الآخرين على ضوء علاقتهم بك. أما الخيارات اللغوية غير المناسبة، فيمكن أن تعد خشونة أو قلة أدب. وتشير جانيث إلى أننا بحاجة إلى أن نفهم القيم الاجتماعية لمجتمع ما حتى نتكلم على نحو مؤدب. وتجعل جانيث للتأديب لمطين اثنين هما: التأديب الإيجابي Positive Politeness الذي يتجه إلى تحقيق التماسك Solidarity. وذلك أنه يدعم السلوكيات والقيم المشتركة. والتوسط الثاني هو التأديب السلبي negative politeness الذي يدفع الناس إلى أن يبجل بعضهم بعضاً ولا يعتدي أحدهم على الآخر: Holmes, Janet: An Introduction to Sociolinguistics. Longman. London and New York (1992) pp. 296-297.

تلك المقاييس اللغوية اعتبارات تداولية (هما في ذلك أحراف الاستعمال الفنية كما شرحها سيرل^(١)، والالتزامات الحوارية Conversational Implicatures) بما في ذلك البادئ الخمسة التي قدمها جرابس والتي يتبعها المتكلمون في التخاطب^(٢).

(ها) نسبة القوة

إذا كانت القوة الإجمالية لفعل كلامي تعني الشدة أو الضعف اللذين يعبر بهما عن غرض إجمازي بعينه، في موقف اجتماعي بعينه، أيًا كان المؤشر أو العلامة الملائقة على تلك القوة، وإذا كان لكل من الشدة والضعف درجات متفاوتة، فإن القوة الإجمالية ينبغي لها أن توصف بأنها نسبية. يبان ذلك أن الأمر سراً بوصف غالباً بأنه النمط الأقوى من أنماط الغرض الإجمازي التوجيهي، وأنه الأشدّ تحقّقاً ومباشرة. ولكن إذا تأملنا ذلك، في ضوء الاستعمال الفعلي المرتبط بالوامة الكلامية أو المقام، وجدنا ذلك يستعصي على التسليم. إذا قارنا مثلاً الأمر بالصيغة ذات الفعل المساعد 'يجب' أو 'ينبغي' سيبدو الأمر من ناحية أقوى كثيراً عندما يكون المتكلم في كامل سلطته in full authority (كالقائد في الجيش) للتأكد من أن الأمر قد صدر (في حال لا يصلح فيها استعمال أحد هذين الفعلين 'يجب' أو 'ينبغي') ومن ناحية أخرى، سيبدو الأمر أضعف كثيراً عندما يستعمل في مثل: أدخل! (في إجابة عن طرقة باب). إنه في الحال الأخيرة، يعطي إنفاً. وهي

(١) Searl, John: Speech Acts. Op. cit. P.23

(٢) Grice, H.P.: Logic and Conversation. In: P. Cole and J. Morgan (eds): Syntax and Semantics 3: Speech Acts. New York (1975) pp.44-45

وتقارن:

العبد محمد: العبارة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال. دار الفكر العربي. ط ١ (١٩٩٥-١٤١٦) ص ٨١ وما بعدها.

الضهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تصميم
٧	أوليات
١٣ - ٦٦	الفصل الأول: الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية
١٥	١ - توطئة
٢٠	٢ - الكفاية اللغوية
٢٠	(أ) مفهوم الكفاية اللغوية
٢٤	(ب) الكفاية والأداء
٢٥	(ج) نقد الكفاية اللغوية
٢٩	(د) إعادة صياغة الكفاية
٣٢	(هـ) الكفاية اللغوية والملكة اللسانية
٣٧	٣ - الكفاية الاتصالية
٤٠	(أ) مفهوم الكفاية الاتصالية
٤٣	(ب) الأسس النظرية للكفاية الاتصالية
٤٧	(ج) الكفاية الاتصالية وتعلم اللغة
٤٨	(د) المعايير النحوية والكفاية الاتصالية
٥٢	(هـ) الكفاية الاتصالية والفشل اللغوي التناولي
٥٩	(و) الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية في موقف الإتشاد ..
٦١	١ - مراعاة مكان الاتصال
٦٢	٢ - مراعاة حال المخاطب

الصفحة	الموضوع
٦٤	٣ - الملاقة بين أطراف الاتصال.....
١٤٠-٦٧	الفصل الثاني: حبك النص - منظورات من القرائن العربي... ..
٦٩	١- توطئة.....
٧٨	٢- الحبك عند القدماء: إشارات عامة.....
٩٠	٣- بنية النص من منظور الحبك.....
٩١	(١) بنية النص من منظور الحبك قبل حازم.....
٩٢	١ - الابتداء.....
٩٦	٢ - التخلص.....
١٠١	٣ - الانتهاء.....
١٠٣	(ب) بنية النص من منظور الحبك عند حازم.....
١٠٦	١- قوتين الابتداء والتخلص والانتهاء.....
١٠٦	أ/ ١- الابتداء.....
١٠٨	ب/ ١- التخلص.....
١١١	ج/ ١- الانتهاء.....
١١٢	٢- المبادئ الدلالية لحبك الفصول.....
١١٣	أ/ ٢- قوتين الوصل بين الفصول.....
١١٨	ب/ ٢- تنسيق المعاني بين الفصول.....
١١٩	(ج) رهوس الفصول: التسهم والتحجيل.....
١٢٢	٤- التناسب بين النصوص.....
١٣٣	٥- خلاصات وتعميمات.....

الصفحة

الموضوع

٢٢١	(أ) مفهوم القوة
٢٢٢	(ب) القوة والمقصد والهدف
٢٢٣	(ج) القوة والحرص
٢٢٨	(د) علامات القوة
٢٣٠	أساسية لقوة
٢٣١	٣ تعديل القوة الإنجازية
٢٣٢	(أ) نتائج التعديل
٢٣٥	(ب) أسباب تعديل القوة
٢٤٠	(ج) وسائل تعديل القوة
٢٤١	أولاً - وسائل التقوية
٢٤٠	ثانياً - وسائل لإضعاف
٢٦١	الفصل الخامس : الصورة والثقافة والاتصال
٢٦٣	١ - توطئة
٢٦٦	٢ - الاتصال الأدبي والصورة
٢٧٤	٣ - الصورة والثقافة
٢٨٢	٤ - نص الصورة وخطاب الصورة
٢٨٣	(أ) الصورة والشاعرية الجديدة
٢٩١	(ب) الصورة وإشكالية التراسل
٣٠١-٣٠٢	الفهرس